سفير (م)

أحمد محمد دياب



خواطر وذكريات دبلوماسية

تقديم

الطيب صالح



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

خواطر وذكريات دبلوماسية

سفير (م)
أحمد محمد دياب

خواطر وذكريات دبلوماسية

المؤلف

أحمد محمد دياب

●●

الناشر

مركز عبدالكريم ميرغنى الثقافى

أم درمان ـ الخرطوم

●●

تصميم الغلاف والإشراف العام

إلياس فتح الرحمن

●●

التنسيق الداخلى

عفت إبراهيم

●●

رقم الإيداع: ١٩٧٩٩/٢٠٠٤

الترقيم الدولى: 977-339-065

خواطر وذكريات دبلوماسية

سفير.. أحمد محمد دياب

تقديم..
الطيب صالح

مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

الإهـــداء..

إحياءً لذكرى والدى المرحوم محمد دياب محمد على الذى منحنى حرية كاملة، فكانت مسؤولية .. أتمنى أن أكون قد تحملتها كما ينبغى التحمل.

ولذكرى والدتى المرحومة فاطمة عبد الرحمن التى منحتنى حباً لا حدود له حتى فاض وتدفق على كل من حولى .. وصار حباً للحياة زماناً ومكاناً وبشراً.

ولذكرى شقيقى المرحوم عبد العزيز الذى لم يكن أخاً فقط .. بل شريكاً وصديقاً ورفيقاً فى درب حياتى وحياة الأسرة.

ولزوجتى ليلى حامد بشير .. وابنى ياسر وبناتى يسرا .. أصيل .. علا، وأشقائى .. وشقيقاتى.. الذين آمل أن يجدوا بين هذه السطور ما غاب عنهم معرفته عنى فى حياتنا العائلية.

وإلى الزملاء الذين عاشوا معى بعضاً من هذه الخواطر سواءاً فى العمل معاً برئاسة الوزارة أو فى السفارات بالخارج .. الذين بادلونى أخاءاً بأخاء .. ومحبة بمحبة ... روح زمالة أصيلة لاتزال حية باقية .. صفحات بيضاء من التعاون و "العشرة " الطيبة وهى ثروة سأظل أعتز بها وأحرص عليها.

أحمد محمد دياب

تقديم

هذه الفصول الممتعة ، هى مزيج من الذكريات ، ولمحات من السيرة الذاتية ونظرات دقيقة متمعنة فى نقل الأحوال فى السودان على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً. وقد وفق الكاتب الدكتور أحمد دياب ، أيّما توفيق ، إنه اتخذ أسلوباً سلساً جميلاً يمتاز بالبساطة وروح الدعابة.

بعد تخرج أحمد دياب من جامعة الخرطوم عام ١٩٦٣م ، التحق بالعمل فى وزارة الخارجية أواخر عهد الرئيس المرحوم إبراهيم عبود. لكنه لم يلبث بها طويلاً ، لأن سلوكه العفوى المغاير للقالب البيروقراطى المطلوب ، لم يعجب وكيل الوزارة للشؤون الإدارية.

كان وكيل الوزارة يومئذ الأستاذ محمد ميرغنى الذى صار فيما بعد سفيرا ، ثم وزيراً للخارجية. كان وهو وكيل للوزارة - كما يصف الكاتب - رجلاً صارماً مفرطاً فى الحزم ، وقد كان من قبل من كبار ضباط البوليس.

تشاء الأقدار أن يلتقى به أحمد دياب مرة أخرى فى سفارة السودان فى نيروبى عام ١٩٦٦م ، حيث نقل سكرتيراً ثالثاً . وجده سفيراً هناك فتوجس شراً ، ويقول الكاتب "إنه اكتشف أن السفير محمد ميرغنى كان يخفى تحت مظهره الصارم ، إنساناً لطيفاً رقيق القلب ، فنمت بينهما صداقة وثيقة" .

إنما الآن فى عام ١٩٦٣م ، فقد تسبب السيد محمد ميرغنى فى خروج الكاتب من وزارة الخارجية ، فالتحق بالعمل فى جامعة الخرطوم مساعداً للسكرتير الأكاديمى - الذى كان المرحوم محمد عمر بشير. ولا عجب أنه سعد بوظيفته تلك ، فقد كان بروفسير محمد عمر بشير رجلاً واسع الثقافة ، عظيم الاستنارة ، ودوداً مرحاً لا يبالى كثيراً بالروتين.

ولو أن أحمد دياب استمر فى عمله بالجامعة ، فلا شك أنه كان سوف ينجح فيه خاصة أنهم وعدوه أن يرسل فى بعثة دراسية فى الخارج ، إنما الله شاء له غير ذلك.

فجأة انفجرت ثورة أكتوبر فأسقطت حكم الرئيس إبراهيم عبود ، وتكونت حكومة جديدة من جبهة الهيئات التى أسقطت النظام ، وكان أحد وزرائها المرحوم عبد الكريم ميرغنى الذى كان يقول عنه الكاتب :

" عين الأب والأخ والصديق والسفير النبيل المرحوم عبد الكريم ميرغنى وزيراً للتجارة ، وقد تم استدعاؤه من الهند ، حيث كان يعمل سفيراً للسودان هناك. وقد جمعتنى بعبد الكريم روابط عديدة ...".

يخصص الكاتب بعد ذلك عدة فقرات من كتابه للحديث عن المرحوم عبد الكريم ميرغنى، وكان بوسعه أن يسترسل فى الحديث ، فقد كان عبد الكريم ميرغنى حقاً من أفذاذ السودانيين ، اشتهر بسعة الإطلاع وعمق الفكر والكفاءة فى العمل ، والحس الإنسانى الغامر.

وهنا أحب أن أذكر ، أن من الأشياء الكثيرة الممتعة فى هذه الفصول ، أن الدكتور أحمد دياب يرسم بحذق لوحات جميلة لشخصيات متعددة سودانية وغير سودانية ، من الناس الذين عرفهم والتقى بهم خلال سيرته العامرة بالتجارب. وهو يصنع ذلك بأسلوب يغلب عليه جانب المرح ودقة الملاحظة ، مظهراً موهبة فنية كما لدى الكتاب الروائيين المتمرسين.

كان المرحوم عبد الكريم ميرغنى يؤمن أن الشباب المتعلم أمثال أحمد دياب ، يجب أن يكونوا فى وزارة الخارجية فعمل على إعادته إليها . وهكذا قدر للكاتب أن يمضى فى مسيرة طويلة خصبة فى العمل الدبلوماسى ، كما توضح هذه الفصول.

قضى أحمد دياب عامين برئاسة الوزارة بالخرطوم برتبة سكرتير ثالث ، ومن التجارب التى عرضت له فى تلك الفترة ، تجربة مع الرجل العظيم محمد أحمد محجوب رحمه الله ، الذى كان يومئذ وزيراً للخارجية ، ورئيساً للوزراء.

يصف الكاتب تلك التجربة وصفاً حياً مشوقاً .. وكأنه تعمد أن يظهر حال السودان فى تلك الأيام. وهى تجربة تدعو للتأمل وربما الحسرة ، لأنها تؤكد مع عدد من التجارب المماثلة التى يرويها الكاتب بأسلوبه الجذاب ، أن السودان يكون فى أحسن حالاته فى العهود الديمقراطية ، فهى انعكاس حقيقى لطبيعة السودانيين ومزاجهم العام.

ولا شك أن القارئ سوف يرى البون الشاسع بين تلك التجربة ، وما انطوت عليه من أسلوب إنسانى متحضر فى التعامل ، وبين الأسلوب الهمجى المتعسف فى عهد الرئيس جعفر نميرى الدكتاتورى. كان الدكتور أحمد دياب يتقلد منصب سفير السودان فى الأردن ، حين جاءه الأمر من الخرطوم بإغلاق السفارة فجأة قرّر النميرى ، دون منطق واضح أو مبرر أن يغلق ثلاثة وعشرين سفارة للسودان ، وهى حقبة مؤلمة من تاريخ السودان .. يصفها الكاتب بحرقة بالغة وغصة فى الحلق يحسها القارئ.

عرض عدد من الدول على السودان أن تتكفل هى بدفع النفقات على أن تبقى السفارات مفتوحة. ويصف أحمد دياب كيف أنه رافق وزير خارجية الأردن الذى أرسله المرحوم الملك حسين فى طائرة خاصة إلى الخرطوم ليثنى النميرى عن قراره ، ولكن دون جدوى.

وبعد أن يصف الكاتب وصفاً مؤثراً مشهد بيع محتويات السفارة وبيت السفير والجماهير التى تجمعت إما للشراء وإما مدفوعة بحب الاستطلاع ، يقول :

"... فى اعتقادى أن قرار تقليص البعثات الدبلوماسية فى الخارج ، الذى نفذ بحق ثلاث وعشرين سفارة ، يعتبر أحد القرارات العشوائية التى قام نظام نميرى باتخاذها فى لحظات الصراع مع الموت فى أيامه الأخيرة ، إلى جانب قرار تقسيم المديريات الجنوبية والإطاحة باتفاقية أديس أبابا ، مما أدى إلى " بداية الحركة الشعبية لتحرير السودان " وقرار تنفيذ الإعدام فى الشهيد محمود محمد طه ، وقرار تطبيق قوانين سبتمبر أو "قوانين الشريعة " إلى آخر المهازل التى شهدها الفصل الأخير من حكم نظام مايو .. ".

هكذا يمضى الدكتور أحمد دياب فى مسيرته فى العمل الدبلوماسى حتى يصل درجة سفير ، عمل فى سفارات السودان فى بلاد كثيرة ، منها: كينيا وتنزانيا ومصر ورومانيا والأردن والأمم المتحدة . وقد تكونت لديه من ذلك كله ذخيرة كبيرة من التجارب والمواقف والأفكار والرؤى ، يجد القارئ أصداءها مبثوثة فى ثنايا هذه الفصول.

هذا وقد خصص الكاتب حيزاً كبيراً نسبياً للحديث عن تجربته فى كينيا وتنزانيا حيث انغمس فى قضايا إفريقيا ، وتأمل فى هوية السودان ودوره فى إفريقيا إزاء دوره العربى.

خلاصة القول: إن هذا الكتاب مفيد وممتع حقاً ، ومن عناصر جاذبيته أن الكاتب يخلط بحذق بين الخاص والعام والجد والدعابة والتاريخ والحياة المعاشة. وفيه ميزة كبرى ، وهى: أنه يقاوم الإغراء الذى يستسلم له كثيرون من كتاب السير الشخصية فلا يقحم نفسه إقحاماً فى سرده للأحداث ، ولا يعطى نفسه دوراً بطولياً ، بل لعله يغمط نفسه حقها فى كثير من الأحيان ، ثم هو يصف الناس

الذين عرفهم أو صادفهم خلال مسيرة عمله ، بإنصاف ومحبة . ولا توجد فى هذا الكتاب ، مرارات أو عنتريات أو تصفية حسابات ، بل هو سجل أمين لحياة خصبة مثمرة.

الطيب صالح



مقدمـــة

لقد أتاح لى العمل بالسلك الدبلوماسى بوزارة الخارجية فرصة عظيمة للانفتاح على الغير ، من بشر وبلاد وحضارات ولغات وعادات وطباع .. كما أتاح لى زيارة عدد كبير من الدول الأفريقية والدول الأوروبية والدول العربية ، بجانب قضاء فترات عمل بالأمم المتحدة بنيويورك ومنظمة الوحدة الأفريقية.

وأثناء تلك الفترة تحصلت على خبرة واسعة فى العمل الدبلوماسى بمختلف أنواعه ومراحله ، وبما أننى كنت دائماً أمثل بلادى " السودان الحبيب " فكان ذلك مصدر تحدٍ واهتمام بتاريخه وأصله وعاداته وقضاياه المختلفة التى كنت أنظر إليها من منطلق الإلمام والتبحر فى كل ما يتعلق بذلك ، حتى أكون دائماً فى موقف يمكننى من الدفاع عنه ، وشرح أبعاد قضاياه ودوافعها سواء على المستوى الشخصى ، أو مع زملائى من الدبلوماسيين من بلاد مختلفة ، أو فى المؤتمرات والندوات التى كنت أشارك فيها بصفتى الرسمية.

وكانت تلك الندوات واللقاءات مدارس ومعاهد مفتوحة .. وبقدر العطاء فيها كان التلقى ، منها بحوث ومحاضرات ووثائق وأرقام وخرائط سياسية وجغرافية ، جعلتنى أمتلك ثروة كبيرة وعريضة وواسعة عن الدول والأمم والشعوب ، وقضايا العالم المختلفة، ولقد أتاح لى ذلك أيضاً إقامة علاقات شخصية مع مجموعة كبيرة من أبناء تلك الدول على مختلف المستويات ، أصبحوا يكوّنون بالنسبة لى

أسرة كبيرة تجمع بينى وبينهم مودة وأخاء .. وما زالت بعض هذه العلاقات حية تزخر بالنبض الإنسانى المجرد ، وتشاركنى أفراحى وأحزانى .. تذكرنى دائماً بأن اللحظات التى وهبتها من عمرى لتلك العلاقات لم تضع هباءً ، وتزيد من ثقتى بالإنسان الذى كنت وما زلت اعتقد أنه الثروة الحقيقية فى هذه الحياة.

وفى أغسطس ١٩٨٩م ، عندما كنت سفيراً برومانيا أُحلت إلى الصالح العام (أى التقاعد القسرى) ، بعد أن أكملت قرابة سبعة وعشرين عاماً من الخدمة بالسلك الدبلوماسى ، وعدت إلى السودان ومكثت به حتى عام ١٩٩٤م ، حينما تعاقدت للعمل بوزارة خارجية دولة قطر التى ما زلت أعمل بها حتى الآن.

ومنذ أن تركت العمل بوزارة الخارجية السودانية ، أشار علىّ عدد من الأصدقاء أذكر منهم الأخ على التوم والمرحوم د. على الملك ,وأصدقاء وزملاء آخرون بأن أكتب عن تلك التجربة ، وكانت الآراء تتفاوت ما بين سرد للعمل الدبلوماسى وسياسة السودان الخارجية وتجربتى الشخصية .. وبعد تفكير طويل رأيت أن أكتب شيئاً يجمع بين كل ذلك، واخترت عنوان " خواطر وذكريات دبلوماسية " لهذا الكتاب ، وحاولت أن أجمع فيه كل تلك الآراء ، ولكنها فى نفس الوقت تتطرق من حين إلى آخر لبعض المواقف والتجارب التى قد تتعرض للجوانب المختلفة من العمل الدبلوماسى ، وتؤرخ لبعض المواقف فى سياسة السودان الخارجية ، إلى جانب إشراك القارئ فى بعض تجاربى الشخصية فى الدول التى عملت بها ، ولمحة عن البلاد التى زرتها فى رحلتى مع العمل الدبلوماسى.

ولعل القارئ يلاحظ أننى قد تعرضت لمواقف ونوادر شخصية .. وقد قصدت بذلك أن تتضمن هذه الخواطر والذكريات لمحات من الدعابة البريئة ذات الأبعاد الإنسانية والشخصية ، وقد حاولت بقدر الإمكان أن أعكس الجوانب الإيجابية فى

هذه التجارب ، ولكننى لم أغفل كذلك السلبيات والأخطاء التى تتعلق بمصلحة السودان ، وبالعمل الدبلوماسى السودانى ككل ، حتى يستفيد منها الذين يخططون لهذا العمل فى المستقبل ولناشئة السلك الدبلوماسى (بصفة خاصة).

كما أن القارئ قد يلاحظ ـ أيضاً ـ أننى لم أتناول تلك الخواطر والذكريات بأسلوب بحثى أكاديمى ـ رأفة بالقارئ ـ واعتباراً لمادة هذا الكتاب التى ما أردت لها الخروج عن نطاق الخواطر والذكريات، ويفقد بذلك اللمسة الشخصية التى أردت أن تكون طابعاً له .. أردتها رسالة شخصية منى إلى كل من يقرأ هذه السطور ، وكأنه قد عاش معى تلك التجارب.

ومن ناحية أخرى فإن إشراك بعض أفراد أسرتى كوالدى ووالدتى وأبنائى فى هذه الخواطر والذكريات يجىء من إحساسى الصادق بأنهم أصحاب الفضل الأول فى تهيئة المناخ والظروف والاسترخاء الذى جعل شخصيتى تتفاعل بإيجابية مع تلك التجارب، وتعطى أكثر مما تأخذ : إيماناً بأن العطاء هو خير إنجاز فى الحياة ، بل هو الحياة بذاتها حتى اتسعت أسرتى لتشمل أفراداً انتشروا فى بقية أنحاء العالم ، ومازال يربطنى بهم رباط الوفاء والمحبة الذى شملتنى به أسرتى الصغيرة.

وخارج تلك الأسرة الصغيرة ،هنالك شخصيتان أثرتا على مسيرة حياتى بصورة هامة وكبيرة، هما السفيران المرحومان عبد الكريم ميرغنى والذى تربطنى به صلة القربى .. وقد تعرضت له فى هذا الكتاب ، وفخر الدين محمد الذى لم أكن سعيد الحظ لكى أعمل معه بصورة مباشرة بديوان عام الوزارة أو بإحدى السفارات فى الخارج، ولكن ارتباطى الشخصى به خارج ذلك النطاق لأكثر من خمسة وعشرين عاماً كان بمثابة مدرسة متعددة المناهج .. نهلت منها الكثير والكثير ، وكان أستاذاً بارعاً .. وفى نفس الوقت كان أخاً وصديقاً صادقاً عزيزاً،

وسأظل مديناً لهذين الأخوين الصديقين بالكثير والكثير مدى الحياة واعتقد أنهما كانا من الشخصيات الشامخة فى تاريخ السلك الدبلوماسى السودانى ، بل فى تاريخ السودان بأكمله.

وإلى جانب ذلك - آمل أن أكون قد وفقت فى اختيار المفيد من دفتر ذكرياتى وخواطرى ليشاركنى فيه القارئ كما آمل أننى لم أتعدى أو أنقصت أحداً حقه .. وإن فعلت، فليغفر الله لى.

وفى الختام أود أن أتقدم بالشكر والتقدير للأخ الصديق والأستاذ الروائى السودانى الماهر " الطيب صالح " الذى أتحفنى مشكوراً بتقديم هذه الخواطر والذكريات للقارئ والذى اعتبره خير تتويج لهذا الجهد .. لإيمانى وقناعتى بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين كتابة الرواية التى نبغ فيها الأخ الطيب ومعاصروه ، وبين المهنة الدبلوماسية التى فى اعتقادى فى النهاية هى المعرفة والإلمام بالإنسان والمكان والزمان ، وكل ما يتعلق بذلك.

أحمد محمد دياب

الدوحة ١٠ مارس ١٩٩٩م



شكر وتقدير..

إن هذه الخواطر والذكريات التى بين أيديكم الآن ما كان لها أن ترى النور بهذا الشكل والمضمون ، إلا بدعم وتأييد ومشاركة الزملاء والأصدقاء .. وأود هنا أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ أحمد محمد صالح الذى قام مشكوراً بالمراجعة اللغوية ،وللأصدقاء د. أمين مكى مدنى والسفير م/ أحمد يوسف التنى والأستاذ مولانا بشير محمد صالح الذين تكرموا بالإطلاع على مسودة الكتاب وأبدوا ملاحظات ساهمت فى إثراء النص ، وللأخ عبد الله البشير للأشراف العام على التبويب والصياغة ، والأخ ياسر حامد خليفة ، والأخ مهدى عبد الرحمن للطباعة ومراجعة النص ، وللأخ صلحى خليل الذى قام بالإخراج الفنى.

الإلتحاق "بالميري"



إن العمل الحكومي الميري [1] في الخمسينات كان غاية تنشدها كل أسرة سودانية لأبنائها، وكلمة "أفندي" كان لها وقع خاص في قلوب الناس عامة ، والعذارى بصفة خاصة ، لأن الحكم البريطاني نجح في خلق هذه الشخصية ، وجعل لها اعتباراً مميزاً وكانت قبيلة " الأفندية " تتمتع بامتيازات عديدة منها: ارتداء الزي الغربي المميز عن "الجلابية " ، واستعمال سيارات الحكومة والسكن في منازل الحكومة والتحدث "بالرطانة" (أي باللغة الأجنبية) والسفر إلى الخارج لتمثيل أهل السودان " الغبش[2] " في المحافل الدولية. وكان لتلك الامتيازات سحر خاص في ظروف الحياة في السودان آنذاك ، وبذلك اكتسب موظف الحكومة هيبة وجبروتاً وهالة اجتماعية كبيرة خاصة في الأقاليم ، كما أن الراتب الحكومي "الماهية "[3] كان يغطي نفقات الحياة المختلفة ، مما جعل الأفندية طبقة "منغنغة".[4]

---

(١) الميري : ملك الحكومة ، قال الشايقي " تلتين في جزائر الميري ملكو " : وهو الأمير «قاموس اللهجة العامية في السودان ص ١١ عون الشريف قاسم»، قاموس اللهجة العامية في السودان.

(٢) الأهالي الغبش ، والرجل الأغبش : المترّب وتعني الرجل البسيط المصدر السابق ص ٨١٨

(٣) الماهية : الدخل الذي يأتي مقابل العمل الرسمي وهي من الفارسية ماه بمعنى شهر والنسبة إلية ماهي بمعنى شهرية وقد غيرت إلى ماهية وهي غير " ماهية " العربية التي تقال لحقيقة الشيء المنسوب إلى " ما هي " المصدر السابق ص ١١٠٧

(٤) النغنغة : الرفاهية نغنغه دلله ، دي نغنغة أي شيء كثير ، وهي من لغلغ الطعام أدمه بالسمن والودك ، واستعيرت للنعمة والرفاهية ، ناغى الطفل كلمه بما يعجبه ويسره. المصدر السابق ص١١٤٣

كما كان أبناء الأفندية "أمثالي" يعتبرون آباءهم قدوة في هذا المجال ، وكان آباؤهم يدفعونهم في ذلك الاتجاه أما لقناعتهم بالوظيفة " الميري " ووضعها الاجتماعي المميز ، أو لأنها وظيفة تخلو من المخاطرة ، مثل التجارة والتي كانت الخيار الآخر آنذاك ، إذ أن العمل الخاص في شكل شركات أو مؤسسات ،كان حكراً على أبناء الجاليات الأجنبية بالسودان: كالشوام واليونانيين والإغريق وغيرهم.

وكانت الوزارات والمصالح الحكومية تتنافس حول التحاق خريجي جامعة الخرطوم - بصفة خاصة - بالخدمة في دوائرهم ، لذا فإن إيجاد الوظيفة التي ترضي الخريج من الكليات المختلفة لم تكن صعبة ، بل كان الخريج " يتدلع " في الاختيار بين وظيفة وأخرى وفي بعض الأحيان كانت تلك الدوائر الحكومية تقوم بتوظيف الطالب قبل أن يتخرج من الجامعة.

لذا عندما تخرجت من الجامعة عام ١٩٦٣م تقدمت للالتحاق بوزارة الحكومات المحلية ، وكانت تلك رغبتي الأولى لأنني كنت شغوفاً بالعمل العام ، والاهتمام بمجالات تلك الوزارة.. وربما يكون ذلك مرده لأن تلك الوظائف كانت حكراً على فئة قليلة من السودانيين قبل " السودنة " إذ كان يشغلها الإنجليز أو المصريون ، وكانت رغبة والدي " رحمه الله " أن ألتحق بوزارة الخارجية لأنه سبقني للعمل بها بقسم اللاسلكي الذي كان يتبع وزارة البريد والبرق ، وقد سحره العمل الدبلوماسي (خاصة) وقد ذهب في مأموريات إلى بعض السفارات السودانية بالخارج.

ولذلك لم تكن هناك صعوبة في قبولي للعمل بالوزارتين ، ولكنني في النهاية خضعت لرغبة المرحوم والدي ، وقررت الالتحاق بوزارة الخارجية ، وبعد الإجراءات التي كانت تشتمل على امتحان تحريري في المعلومات العامة واللغة الإنجليزية تشرف عليه جامعة الخرطوم ، ثم امتحان شفهي تشرف عليه وزارة

الخارجية ، تم قبولي ضمن خمسة عشر خريجاً وأعلن في الصحف المحلية وفي الإذاعة عن تعييننا بدرجة سكرتير ثالث بالوزارة.


الوالد المرحوم محمد دياب محمد علي

والآن وقد تقاعدت عن العمل بالسلك الدبلوماسي - وبعد هذه الخبرة الطويلة - بدأت أرى هذه التجارب الماضية بنظرة موضوعية ، واقتنعت بأن المرحوم والدي كان بعيد النظر.. وقد أسدى لي معروفاً إلى جانب بقية ما أسداه لي في حياته في مجالات أخرى ، حين أصر على التحاقي بالعمل في وزارة الخارجية ، وذلك لأسباب عديدة.. لأن العمل بالسلك الدبلوماسي لا يعني المظهر الخارجي الذي يراه الناس في التأنق في اللبس، أو مظاهر الرفاهية الأخرى التي توفرها الدولة للذين يعملون في هذه المهنة من سكن وخدم وحشم ، ولكنها مهنة ككل المهن تتطلب صفات ومهارات خاصة لا يمتلكها الجميع.

وأهم تلك المهارات: القدرة على التأقلم والقبول للآخر ، بما يحمله من تقاليد وعادات ولغات، وحب التطلع والمعرفة للجديد من تجارب الآخرين ، وسرعة البديهة، والتمتع بقدر من اللياقة والكياسة في كل شيء إلى جانب الميل إلى المرح غير المفرط والجاد والدعابة التي تترك أثراً جيداً في نفوس الغير.. وعلى الدبلوماسي أن لا ينسى أبداً - وهو خارج بلاده - أنه يمثل دولة لها عاداتها وتقاليدها التي يجب أن ينقلها إلى الخارج بصورة صادقة ومشرفة.

وعلى الدبلوماسي كذلك ، أن يضع دائماً مصلحة بلاده في الدرجة الأولى وليس مصلحته الشخصية أو المحافظة على منصبه: لأن المنصب هو خادم تلك الرسالة وليس العكس.. وعليه أن يتقيد بقوانين المهنة دون إذلال ، وان يحترم التزاماته وأقواله وأعماله ومواعيده.. وان يكون مرناً في التعامل مع الآخرين ،

ومتتبعاً للأحداث الداخلية والخارجية ومنفتحاً على الغير.. وان لا يبوح إلا بالقدر المطلوب ولا يخفي إلا القدر المطلوب.

ومنذ التحاقي للعمل بوزارة الخارجية في عام ١٩٦٣م ، وإلى أن تمت إحالتي للتقاعد مع عدد كبير من زملائي السفراء والدبلوماسيين عام ١٩٨٩م ، فإنني أستطيع أن أذكر هنا ، أنه على الرغم من خلفيات وانتماءات الذين كانوا يعملون بالسلك الدبلوماسي أثناء تلك الفترة ، إلا أن وزارة الخارجية ظلت تؤدي واجبها كوزارة قومية تضع مصلحة السودان في مقدمة اهتماماتها ، كما ظل العاملون بها على الرغم من اختلافاتهم يضعون مصلحة السودان القومية فوق كل اعتبار ، وبذلك اكتسبت تلك الوزارة أهمية خاصة ، كما اكتسبت سمعة السودان في المحافل الدولية والإقليمية والدولية ، ثقلاً يتناسب مع موقع السودان وأهميته في القارة الأفريقية والعالم العربي.

كان هذا حال وزارة الخارجية منذ أن تأسست عام ١٩٥٦م ، حيث استطاعت الخدمة المدنية وقوانينها التي ورثتها منذ عهد الإنجليز ، أن تقف سداً منيعاً ضد محاولات الأحزاب في التغول عليها ، وعلى العاملين بها ، إلى أن كان انقلاب مايو ١٩٦٩م الذي باسم الثورة و"شعارات مايو المفترى عليها" نجح في اختراق الخدمة المدنية " بالتطهير " حيناً - لإبعاد بعض العناصر التي قاومت تسييس الخدمة المدنية - وحيناً آخر بالتعيين السياسي في صفوفها من أنصار مايو ، وخاصة في السلك الدبلوماسي. ومنذ ذلك الحين انهارت الخدمة المدنية في السودان (أحد الأركان العامة التي عرف وامتاز بها السودان عن معظم المستعمرات البريطانية السابقة).. وتوالت بعد مايو الاختراقات الأخرى ، حتى فقدت الخدمة المدنية هيبتها ، وحتى صار ولاء العاملين بها للنظام الحاكم أولاً وفوق كل شيء ، وتقلص بذلك الولاء للمهنة وللمصلحة القومية.



سنة أولى دبلوماسية



فور أدائنا للقسم أعدت لنا وزارة الخارجية فترة تدريبية لمدة ثلاثة اشهر في مختلف أقسام الوزارة ، وما زلت أذكر أول يوم ذهبت فيه إلى مقر الوزارة كموظف "رسمي" إذ ركبت سيارة أجرة تاكسي "طّراحه"[1] من أمام منزل الأسرة بالملازمين بأم درمان وأنا " قاشر"[2] " بالقميص والبنطلون " والكرفته " التي فرضت علينا، وكانت أجرة الطراحه «قرشين ونصف» ، ووصلت إلى مبني وزارة الخارجية منذ إنشائها عام ١٩٥٦م ، وكان يقع في شارع النيل جوار سراية السيد علي الميرغني (سابقاً).


السفير محمد ميرغني

دخلت الوزارة من الباب الخلفي أي: من شارع الجامعة – وكان مبنى الوزارة من قبل منزلاً للمستر " لندسي " الذي كان رئيس القضاء قبل الاستقلال ، وكان المبنى يتكون من ثلاثة أجزاء : الجزء الأمامي وهو مبنى المنزل الرئيسي ، وأمامه حديقة كبيرة وجميلة كان يضم مكتب وزير الخارجية والوكيل والمكتب السري والمراسم ، والجزء المتوسط : كان إسطبل[3] رئيس القضاء من قبل

---

(١) طراحة : عربة الأجرة التاكسي لأنها تقذف بالناس بعيداً. عون الشريف قاسم ، قاموس العامية في السودان ص ,٧٠٨

(٢) قاشر : كلمة بالعامية السودانية وتعني أنه يرتدي أجمل ما لديه من ثياب.

(٣) إسطبل : مبنى الدواب وجمعها إسطبلات ، وهناك مكان جنوب الخرطوم ، كان يعرف بالإسطبلات لأن به مكاناً يعنى فيه بخيول السباق ، والكلمة في أصلها يوناني وتعربت قديماً ، المصدر السابق ص ,١٤٧

، وأصبح مكتباً للقسم السياسي ، وبه كذلك مكتبة الوزارة وملحق به مبنى آخر كان يضم قسم الإدارة – شئون الموظفين – والشئون المالية ، أما القسم الثالث : وكان ملحق ضيافة أصبح القسم القنصلي والإدارة الاقتصادية.

وكنت آنذاك حديث التخرج من الجامعة ، وكان الطالب الجامعي شخصية لها وزنها ، وكانت جامعة الخرطوم قلعة من قلاع العمل السياسي ويكن الجميع لطلبتها وخريجها احتراماً من ذلك المنطلق ، لأنها كانت تمثل الرأي العام المستنير وقيادات المستقبل ، وكانت روح الثورة والرفض تملأ شخصية الخريج ، كما أن الخدمة المدنية وقوانينها وحياة دواوين الحكومة والرؤساء ، لم تكن جزءاً من اهتماماتنا في تلك المرحلة.

دخلت الوزارة من الباب الخلفي وكلي تشوق ، لأن أبدأ أول يوم عمل في حياتي الجديدة. وكنت أدخن " الكدوس (٤) " الذي بدأت استعماله في السنوات الأخيرة من الجامعة.. وعندما اجتزت القسم القنصلي سمعت شخصاً ينادي..

- يا أفندي أنت !!

ولكنني لم ألتفت..

ولكن النداء تكرر مرة أخرى...

فاضطررت إلى أن ألتفت ..

فرأيت شخصاً يقف في الطابق العلوي طويلاً ضخماً يلبس بدلة كاملة ، وفي منتهى

"الشياكة" (٥) فرددت عليه بكل براءة..

---

(٤) الكدوس : هو الغليون أو البائب.
(٥) الشياكة : التهندم ، اللبس المتناسق الألوان والجميل.

- إنت بتتكلم معاي؟؟

-فرد قائلاً : نعم تعال هنا فوق...

أخذت السلم.. ووقفت أمامه.. وقد أدار لي ظهره.. وكان يدخن بعصبية شديدة وقد ذكرني بأبطال أفلام " الكابوي " التي كنا نحبها.. ولما وقفت أمامه خاطبني دون أن ينظر إلي....

- مين إنت يا أفندي؟

فرددت عليه بأنني سكرتير ثالث جديد.. فما كان منه إلا أن التفت نحوي ومد يده وامسك " بالكدوس " من يدي بقوة وكسره إلى نصفين ورماه في الأرض من الطابق الأول وأردف قائلاً :

-سكرتير ثالث وجاي أول يوم ماسك كدوس وأمّال لما تبقى سفير حتجي ماسك شنو؟!!

فذهلت للغاية ، ولم اعرف كيف أتصرف ، وكدت أرد عليه رداً قوياً لأنني لم أتعود من قبل على مثل هذه المعاملة لا من والدي - رحمه الله - ولا من أساتذتي بالجامعة... وفجأة سألني عن اسمي فرددت عليه بهدوء.. فانطرحت أساريره قليلاً وكأن شيئاً قد حدث... فسألني هل أنت ابن (العم دياب) بتاع اللاسلكي؟..

فرددت : نعم.

فقال : أبوك راجل طيب ومؤدب انت طالع لمنو؟..

ولكني لم أرد عليه فنظر إلى نظرة أخرى وقال : أمش مكتبك.. لكن عندك حظ طلعت ود العم دياب وإلا كان يومك أسود.

وفعلاً كان يومي أسود ، وهو أول يوم عمل في حياتي الجديدة.

وعلمت فيما بعد ، أن ذلك الشخص هو السيد محمد ميرغني مبارك مساعد الوكيل الإداري ، وعلمت أيضاً انه شخصية صعبة ومخيفة ، وأن كل من يعمل بالوزارة يخاف منه ويعمل له ألف حساب ، وقد كان ضابط بوليس قبل الاستقلال ، ثم التحق بوزارة الخارجية بعد الاستقلال بالسلك الدبلوماسي كغيره من الإداريين والمعلمين.

وانتهى ذلك اليوم بسلام.. ولكنني لم أكن أدري ما كان يخبئه القدر لاحقاً.. إذ تقرر نقلي لأول سفارة بالخارج في عام ١٩٦٦م إلى سفارة السودان بكينيا ، وكان السفير هناك هو نفس محمد ميرغني الذي وقع على خطاب طردي من الوزارة عام ١٩٦٣م ، وتشاء الأقدار أن تنشأ بيننا علاقة ود وصداقة رائعة ومتميزة.. حيث أتاحت لي فرصة العمل معه والتعرف عن قرب على جوانب أخرى من شخصيته ، استطاع أن يخفيها وراء تصرفاته الخارجية التي تتم عن العنف والقسوة ، واتضح لي بأن ذلك كان غشاوة مفتعلة نجحت في إخفاء جوانب الضعف الإنساني في ذلك الشخص الذي اكتسب لقب "الفك المفترس" بجدارة من العاملين بوزارة الخارجية.



الطرد من الوزارة



استضاف السودان في عام ١٩٦٣م أول مؤتمر لوزراء المالية الأفارقة ، وكان ذلك المؤتمر يهدف إلى إنشاء بنك التنمية الأفريقي ، وقد أسندت إلى وزارة الخارجية مهمة الأشراف على تنظيم ذلك المؤتمر ، ولأن السودان كان يسعى إلى أن تكون الخرطوم مقراً لذلك البنك ، فقد اهتمت الدولة اهتماماً كبيراً بالإعداد لذلك المؤتمر.

ولذلك فقد كانت مهمة " دفعتنا "[1] من السكرتيرين الثوالث الجدد وكنا خمسة عشر هي المساهمة في إنجاح ذلك المؤتمر. فأعدت وزارة الخارجية برنامجاً خاصاً اشرف عليه السفير الفذ فخر الدين محمد ، والذي عرف بدرايته وسعة إطلاعه وإلمامه بأساليب البروتوكول ، ومعاملة الفرنجة المعاملة المتحضرة ، وقد صارت تلك الفترة من أمتع فترات التدريب إذ اشتملت على كل نواحي الدبلوماسية من اللبس إلى الحديث إلى أنواع الأكل وأطباقه المختلفة.. وكان التوجيه العام هو : أن نحاول أن نبرز ونبرهن للضيوف الأفارقة أن السودان دولة عصرية منفتحة ، ولا نبدي تزمتاً يجعل الوفود الأفريقية ترفض إقامة مقر البنك بالخرطوم.

كنا سعداء بتلك المهمة.. فقد صرفت لنا الوزارة ثلاثمائة جنيه لكل واحد منا

---

(١) دفعة : الدفعة من المطر : الجماعة تقول دفعتي في المدرسة أي زملائي في نفس الفصل، وجاءوا على دفعات : جماعات منفصلة المصدر السابق ص [illegible]

كبدل لبس لكي نظهر بالمظهر اللائق ، ووضعت عربات الحكومة تحت تصرفنا ، كما أن بعضنا قد اختير للسكن في الفنادق الكبرى آنذاك فندق (القراند هوتيل ، وفندق السودان) وبدأ لنا كأننا قد وفقنا في اختيار الدبلوماسية مهنة لنا في حياتنا المستقبلية.

أعدت لجنة الاستقبال برامج متنوعة للتعريف بالسودان ، إلى جانب برامج ترفيهية متعددة شملت ليالي فنية بالمسرح القومي بأم درمان ، وزيارات للمتاحف بالعاصمة ، والتعريف بمعالم العاصمة المثلثة ، وكذلك رحلات نيلية بالبواخر إلى ضواحي الخرطوم. وكانت مهمتنا هي استقبال الوفود ومرافقة كل واحد منا لوفد دولة معينة ، ولما كان العدد لا يكفي فقد رأت الوزارة الاستعانة بالجنس اللطيف من شابات الجاليات الأجنبية بالخرطوم خاصة ممن كن يجدن اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وقد أدى ذلك إلى تحفيزنا أكثر فيّ الاهتمام بعملنا ، وكذلك الاهتمام بمظهرنا وهندامنا ،وكانت فرصة للتعرف على شابات الجاليات الأجنبية ودخول دنيا جديدة بالنسبة لبعضنا ، ممن كانت تجاربهم في ذلك المجال محدودة أو معدومة ، كما كان المؤتمر فرصة لارتياد مناطق في الخرطوم كانت محرمة علينا : إما لقلة التجربة أو لضيق ذات اليد أو بحكم التربية والتقاليد مثل " صالة غردون " و " الجي بي ".(٢)

وفي أحد الأيام وأثناء المؤتمر كان البرنامج يشتمل على رحلة بالبواخر النيلية من أمام فندق القراند اوتيل (الذي يقع في شرق الخرطوم) إلى حدائق أبو العلا بالكدرو (والتي تقع شمال الخرطوم بحري) ، بدأت في العاشرة صباحاً.. وكان الطقس رائعاً والنظام والإعداد تاماً ، وكان يرافق الوفود على ظهر الباخرة الفنان القدير "شرحبيل أحمد " وفرقته الموسيقية التي كانت تعتبر صرخة في تلك الأيام بعزفها للآلات الحديثة وترديدها للاغاني الغربية الراقصة.

---

(٢) صالة غردون الجي بي : مرقص ليلي اشتهرت به العاصمة السودانية آنذاك.

بدأت الموسيقى ، وقام بعض الضيوف للرقص مع المرافقات من الجنس اللطيف وكنا نجلس على طاولة جمعت عميد الصحافة السودانية المرحوم بشير محمد سعيد ورائد العمل الإعلامي الدولي المرحوم محمد ميرغني سيد احمد والمعروف " برويترز " لأنه كان أول مراسل لوكالة رويترز بالسودان ، وأحد رواد الثقافة اللامعين المرحوم محمد عمر بشير ، والزميل الصديق جلال عتباني وشخصي بينهم.

وعندما بدأ الجو "يحلو " – كما يقول الفنان الراحل المبدع د. على المك ولعبت الموسيقي برؤوسنا – أشار إليّ الصديق جلال عتباني بأن ننضم إلى مجموعة الرقص وعندما رآني متردداً ، أشار إليّ أن هذه هي تعليماتنا بأن نظهر للأخوة الأفارقة بإننا

"بتاعين كلو " نرقص ونغني ونلعب " كنكان " كمان ، فوجد اقتراح الصديق جلال التأييد من الذين كانوا يجلسون معنا على الطاولة فنهضنا ، وكل منّا اختار إحدى الفتيات وبدأنا نميل شمالاً ونميل يميناً ، كما يشير إلينا الفنان شرحبيل بأغنيته المشهورة " يا اللابس البمبي " إلى أن وصلت الباخرة إلى حدائق أبو العلا بالكدرو وكان هناك عدد من المستقبلين معظمهم من أهل المنطقة جاءوا للترحيب بضيوف السودان ، ولكنهم أبدوا بعض الاستغراب والذهول – ولا أقول الإعجاب – برؤية بعض " أولاد البلد " يشاركون الأجانب في هذه الممارسة غير المألوفة لدى أهل السودان " الغبش ".

وكان يوماً رائعاً خاصة وأن الضيوف قد استمتعوا بتلك الرحلة ، وبسحر الريف السوداني وبسحر النيل العظيم ، وفوق كل ذلك بالجو الرائع والكرم " الحاتمي " الذي قدمه آل أبو العلا لهم من ذبائح ومشويات وكسرة وملاح وفواكه السودان من قريب فروت وموز ومانجو بأنواعها وبطيخ وشمام ، إلى جانب المشروبات الروحية

بأنواعها مع خدمة " الكيترنق"[٣] التابع لسكك حديد السودان والتي كانت في مستوى يضاهي اكبر الفنادق المعروفة في العالم الآن.

وحوالي الساعة السادسة مساء عدنا مرة أخرى إلى فندق القراند اوتيل في روح معنوية عالية ، لأننا اعتقدنا أننا قد خدمنا " القضية " كما يلقب إخواننا الفلسطينيين قضية الشرق الأوسط... وإننا بذلك دون شك قد ساهمنا بأن تصبح عاصمة بلادنا الحبيبة مقراً لأول بنك إفريقي ولكننا لم نكن ندري بما كان يخبئه لنا القدر.. أقصد محمد ميرغني..

وعند دخولنا الفندق سمعنا " الميكروفون " الداخلي للفندق يطلب من كل من السيدين جلال عتباني وأحمد دياب مقابلة مساعد الوكيل الإداري في الساعة الثامنة صباحاً بمكتبه في الوزارة لأمر هام.. وقد كانت مفاجأة لنا.. أما صديقي جلال فلم يكن منزعجاً وكان يعتقد أنه ربما يريد أن يشكرنا على مساهمتنا في إنجاح الحفل.. أو هناك مهمة أخرى يريد مساعد الوكيل أن يكلفنا بها.. أما أنا فقد توجست شراً.. خاصة وفي مؤخرة ذاكرتي تجربتي مع السيد محمد ميرغني في أول يوم التحقت فيه للعمل بالوزارة.

ولقد كان نومي متقطعاً وانتابتني الوساوس بأن شيئاً ما سيحدث غداً.. وفي الثامنة صباحاً ذهبنا أنا والصديق جلال إلى مبنى الوزارة واستقبلنا عند باب مكتب مساعد الوكيل المرحوم السفير عز الدين شبيكة ، ونصحنا بالهدوء وعدم الانفعال عند مقابلة مساعد الوكيل ولكن لم يفصح لنا عن الأمر شيئاً.. وعندما حان موعد مقابلته.. طلبت من الصديق جلال أن يقابله أولاً وأنا اقابله بعده.. وقد كان.. وبعد دقائق خرج الصديق جلال ووجهه " يلعن قفاه " [٤] محمراً كأنه أخذ " واحد كف " ، وعندما سألته عما جرى؟ قال لي بسرعة خاطفة : استحمل "

---

(٣) الكيترنق : الخدمة الفندقية.

(٤) وجه يلعن قفاهك كناية عن قطوب الوجه : كالح الوجه عبوس...

الراجيك "(٥) فتيقنت أن إحساسي كان صادقاً فدخلت وقررت المواجهة مهما كانت النتائج.. وقد كان..

عندما دخلت مكتب مساعد الوكيل كان يتحدث وكأنه يخاطب شخصاً غير موجود أمامه وهو ينظر من نافذة مكتبه إلى الخارج.. ابتدأ حديثه مرة أخري بأنني ابن راجل طيب وهو لا يدري أنا طلعت لمين.. كيف أرقص مع بنات في مكان عام؟!! وعلى مرأى ومسمع من الجميع !! وأية تربية هذه.. وفعلاً " النار تلد الرماد " ، عند ذلك جمعت كل شجاعتي وقلت له بثقة تامة إنني قمت بما تدربت عليه ، وطُلب مني اداؤه ولم أفعل شيئاً يشين الوزارة أو شخصي.. فصاح كيف ترد عليّ.. وأكدت له مرة أخرى أنني أرد على اتهاماته وإنني اعتز بنفسي وبتربيتي ، وإن كان هناك خطأ فهو مسئولية الوزارة التي طلبت منا تأدية ذلك الواجب.. وارتجف غاضباً واسمعني الكثير من الوعود وألوان البطش.. فما كان مني إلا أن تركت مكتبه ، وأسرعت إلى سيارتي وذهبت إلى منزلي ، وقررت عدم العودة إلى العمل بالوزارة.

وذهبت فوراً في اليوم الثاني إلى جامعة الخرطوم التي قبلتني في وظيفة مساعد السكرتير الأكاديمي آنذاك د. محمد عمر بشير ، وانتظمت في العمل.. وكنت سعيداً بها إلى درجة كبيرة خاصة وان إدارة الجامعة قد وعدتني ببعثة إلى الخارج بعد عام للحصول على الدكتوراه..

وبعد شهر من توقفي عن العمل بوزارة الخارجية وصلني خطاب موجه وموقع من السيد محمد ميرغني مساعد الوكيل الإداري يفيد بأنه نسبة لأنني قد تغيبت عن العمل لمدة شهر دون إبداء أسباب فقد تقرر " طردي من قوة الوزارة " هكذا كانت لغة الخطاب ، والذي احتفظت به لمدة طويلة لكن لكثرة التنقل ضاع من أوراقي.



(٥) الراجيك : الذي ينتظرك..

إلى الجامعة



التحقت للعمل بجامعة الخرطوم في وظيفة مساعد السكرتير الأكاديمي في أكتوبر ١٩٦٣م بعد أكملت حوالي سبعة اشهر من العمل بوزارة الخارجية ، وكان مسجل الجامعة المرحوم احمد المرضي جبارة ويساعده في الشؤون الأكاديمية بروفسير محمد عمر بشير ومحمد احمد حسن " حمدتو " وشخصي ، وكانت تجربة مفيدة خاصة وأنها أعادتني مرة أخرى لجو الجامعة الرائع المليء بالأنشطة المختلفة في تلك الفترة.. ذلك الجو الذي يعتبر من أجمل مراحل العمر.

كانت شخصية المرحوم المرضي جبارة تغطي على كل شيء بإدارة الجامعة ، كما كان الأستاذ المربي على مصطفى وعم منديل وعم السني رحمهم الله من أعمدة إدارة الجامعة ، وكانوا يتعاملون مع الطلاب بأساليب التربية والتواضع في آن واحد دون الإخلال بالقوانين ، وكل يحترم الآخر.. خاصة وأن طالب الجامعة آنذاك كان شخصية لها وزن إجتماعي وسياسي.. فيجب الحذر في معاملته لأن اتحاد الطلبة كان بالمرصاد لكل صغيرة وكبيرة في علاقة الإدارة مع الطلاب.

اما مكتب السكرتير الأكاديمي الذي انضممت إليه ، فكان يتعامل مع " قبيلة " الأساتذة ، خاصة الأساتذة الأجانب الذين كانوا يشكلون الأغلبية في ذلك الوقت وتتعلق مسئولية السكرتير الأكاديمي بفحص مؤهلاتهم العلمية والإشراف على تعيينهم وقضاياهم الأخرى من إسكان وترحيل وخلافه.. وكان مسجل الجامعة المرحوم المرضي جبارة كالنحلة ، يلم بكل صغيرة وكبيرة عن إدارة الجامعة ،

ويسعى بصفة خاصة لتوفير الموارد المادية وعدم الإخلال بالقوانين ، والاستفادة من كل الإمكانيات المتاحة.

ومن ذكرياتي في تلك المرحلة : أنني وفي إحدى مقابلاتي بالمرحوم المرضي جبارة ذكرت له أنني لست مرتاحاً من رؤية ملاعب وحدائق الجامعة ، أنها تحتاج إلى رعاية حتى يكتمل مظهر الجامعة وتظهر بشكل لائق.. وكنت مولعاً آنذاك بمثل تلك الاهتمامات الجمالية في الحياة العامة.. وبعد أيام من تلك المقابلة صدر قرار من مكتب المسجل بتكوين لجنة لرعاية الحدائق بالجامعة برئاستي وعضوية كل من الصديق الزين على إبراهيم الذي كان مساعداً للسكرتير الإداري للمسجل ود. قريب الله الأنصاري الذي كان يشغل وظيفة مساعد أستاذ بكلية الاقتصاد وكان ذلك القرار مصدر سعادة بالنسبة لي ، ومصدر تندر وفكاهة بالنسبة للصديقين الزين ود. قريب الله.

كان المرحوم المرضي يقوم بزيارات مفاجئة لأقسام الإدارة وأذكر في إحدى الأيام وكان السكرتير الأكاديمي د. محمد عمر بشير غائباً ، وكنت السكرتير الأكاديمي بالإنابة ذهبت إلى إحدى محطات البترول لتغيير زيت سيارتي ، وأخبرت سكرتيرة المكتب وكانت تدعى " ماريكا " - بأنني سأتغيب حوالي ساعة من المكتب.. وحضر في غيابي المسجل وسألها عني فأفادته السكرتيرة بأنني ذهبت إلى محطة البترول.فأخذ قلماً وكتب على طرف طاولة المكتب السيد فلان.. أرجو الإفادة عن علاقة الجامعة "بمحطة البترول".

ولما عدت إلى المكتب أخبرتني السكرتيرة بذلك ولفتت نظري إلى المذكرة التي تركها لي السيد المسجل ، فما كان مني إلا أن أخذت المذكرة وكتبت عليها السيد المسجل لا علاقة أبداً بين إدارة الجامعة ومحطة البترول ، ثم أخذتها وذهبت إليه في المكتب وسلمته المذكرة فقرأها بإمعان ، ثم نظر لي من وراء نظارته السميكة

وقال باسماً : إذن ما في مشكلة.. وخرجت من مكتبه وحتى هذا اليوم لا أدري لماذا سأل ذلك السؤال؟ ولماذا اقتنع بتلك الإجابة الصادقة البسيطة؟.

ومن ذكرياتي التي لا أنساها في فترة عملي بإدارة الجامعة ،هي اشتراك أساتذة الجامعة في معارضة الحكم العسكري الأول برئاسة الفريق إبراهيم عبود رحمه الله ، والذي عرف في تاريخ السودان السياسي بموكب الأساتذة الذي نظمه اتحاد أساتذة الجامعة وقد خرج الموكب الرهيب من حرم الجامعة وقد ارتدى الأساتذة " أرواب الأستاذية " بألوانها وأشكالها المختلفة ، وقد ضم الموكب كبار الأساتذة وعمداء الكليات إلى جانب أمثالي من صغار مساعدي التدريس.

وكما ذكرت من قبل ، فإن جامعة الخرطوم آنذاك - واعتقد لا تزال - لها أهمية اعتبارية لدى رجل الشارع ، وكان الطالب الجامعي مصدر تقدير وإجلال . لذا لما خرج موكب الأساتذة بتلك الصورة.. فقد أحدث ذلك في الشارع السوداني هزة عنيفة وبدأ رجل الشارع في العاصمة يعتقد أن هنالك فعلاً شيئاً خطيراً قد حدث ، مما جعل أساتذة الجامعة يتحركون بتلك الصورة وما زلت اعتقد حتى اليوم أن المثقفين هم ضمير الأمم والشعوب ، وتقع عليهم مسئولية تختلف عن مسئولية غيرهم ، وأن مستقبل الأمم يتوقف على مدى استجابة تلك الفئة من المثقفين لآمال وطموحات وتطلعات ذلك الضمير ، كما أنني ما زلت اعتقد أن ذلك الموكب كان الرصاصة القاتلة للحكم العسكري الأول في السودان.

وصل الموكب إلى مبنى دار العدل أو " القضائية " لتسليم مذكرة إلى رئيس القضاء تطالب بعودة العسكر إلى ثكناتهم ، وعندما كنا ننتظر أن يتم تسليم الرسالة أحاطت بنا قوات الأمن من الشرطة والقوات المسلحة ، وهي تشهر السلاح وتصوب البنادق نحونا ، وكانت لحظات رهيبة.. وحينها كنت أفكر فيما نحن مقبلون عليه ولماذا الخلاف وقد رحل الاستعمار وعبود سوداني والمرحوم "

قرشي فارس " الذي كان يشرف على قوات الشرطة سوداني والبروفسير محمد عبد الله نور الذي كان يقود الموكب سوداني.. وفي تلك اللحظات التفت إليّ الصديق د. احمد عبد المجيد - وكان أستاذاً بكلية العلوم ، ونحن نقف معاً في الصف الأمامي بين مصدق ومكذب - وقال لي : يا احمد " نحن حنموت " وقبل أن أرد عليه لمحت من بعيد المرحومين محمد احمد المحجوب ومبارك زروق يقفان تحت إحدى الأشجار داخل مبنى القضائية ويتبادلان الحديث في هدوء تام وكان ذلك الموكب وما قد يترتب عليه لايعنيهما؛ فقلت لصديقي احمد عبد المجيد نعم سنموت ولكني أرى المحجوب وزروق يتفقان على تشكيل الحكومة القادمة.. وفعلاً " فدانا القرشي وعبد الحفيظ " وكوّن المحجوب وزروق الحكومة بعد ذلك الموكب بأيام.

وبعد نجاح ثورة أكتوبر في إسقاط الحكم العسكري وتكوين حكومة جبهة الهيئات ، التي كان اغلب الوزراء فيها من الهيئات التي اشتركت في معاداة الحكم العسكري إلى جانب بعض الشخصيات التي اتفق على اشتراكها في الحكومة لأسباب مختلفة ، تم تعيين الأب والأخ والصديق السفير النبيل المرحوم عبد الكريم ميرغني وزيراً للتجارة ، وقد تم استدعاؤه من الهند ، حيث كان يعمل سفيراً للسودان هناك.

وقد جمعتني بعبد الكريم ميرغني روابط عديدة سأتعرض لها في مكان آخر وقد تم اختياره وزيراً بحكومة أكتوبر عندما كان سفيراً للسودان بالهند ، وتم استدعاؤه للمشاركة في الحكومة الجديدة ، وعندما وصل من الهند ذهبنا أنا والمرحوم والدي للسلام عليه وتهنئته بالمنصب الجديد فسألني عن أحوال الخارجية فقلت له : إنني تركت الخارجية لأسباب عديدة وإنني اعمل الآن بالجامعة (أضفت مزهواً بأنني اشتركت في موكب الأساتذة الذي أطاح بالحكم

العسكري).. ولدهشتي لم تسعد تلك الأخبار عبد الكريم الذي قال إن هذا خطأ وإن مكان أمثالي من الشباب - المثقف والوطني - يجب أن يكون في صفوف السلك الدبلوماسي.. ولما غادرنا منزله كان المرحوم والدي سعيداً بذلك.. أما أنا فكنت أحلم بالبعثة التي خصصت لي من جامعة الخرطوم إلى ألمانيا الشرقية.



عملت إيه.. يا مجنون؟



في صبيحة اليوم التالي من تلك المقابلة مع وزير تجارة انتفاضة أكتوبر.. وأنا جالس بمكتبي كالعادة بإدارة جامعة الخرطوم.. أخطرتني سكرتيرة المسجل بأن السيد المرضي جبارة يريد مقابلتي فوراً ولأمر عاجل بمكتبه.. وهذا ما لم يحدث قط منذ التحاقي بالعمل في إدارة الجامعة.ولكن لمعرفتي بالسيد المرضي فلم أتوقع شراً.. فأسرعت إلى مقابلته...

عندما رآني أمامه وضع نظارته ، جانباً وقال لي بصوت تعتريه نبرة من السعادة: يا ابني لقد انتهت فترة عملك بالجامعة فأرجو أن تذهب فوراً وتسلم نفسك لوزارة الخارجية فذهلت وكانت مفاجأة لي.. فسألته ولماذا؟ قال لي لا تسألني وأنا ما عايز مشاكل مع ناس أكتوبر من فضلك امشي وخلاص.وانتهت بذلك المقابلة التي غيرت مجرى حياتي.

واستسلمت للأمر الواقع وذهبت إلى وزارة الخارجية ، وعلمت هناك أن قراراً قد صدر لإعادتي للعمل مرة أخرى بالوزارة ، وهناك فقط فهمت ما ذكره المرحوم عبد الكريم ميرغني عندما ذهبت إلى مقابلته ، وعلمت مؤخراً بأنه سعى لإصدار ذلك القرار بإيعاز ونزولاً عن رغبة والدي رحمه الله وعدت إلى السلك الدبلوماسي والعود أحمد...

وظللت برئاسة الوزارة منذ ١٩٦٤م إلى أن تم نقلي للعمل بسفارة السودان في نيروبي في أواخر ١٩٦٦م بين إدارة المراسم والقسم السياسي ، ولأنني كنت أصغر

الدبلوماسيين بقسم المراسم مرتبة ، فكثيراً ما كنت اذهب إلى المطار للإعداد لمقابلة كبار الزوار من رؤساء الدول والوزراء وغيرهم ، وقد أتاحت لي هذه المهمة فرصة لمصافحة عدد من كبار الشخصيات في ذلك الزمن ، أذكر منهم : "شوان لاي " رئيس وزراء الصين و" تنقو عبد الرحمن " رئيس وزراء ماليزيا و" ديالو تيللي " أمين عام منظمة الوحدة الأفريقية آنذاك، وعدد كبير من الوزراء والسفراء السودانيين ، مما ساعد في تسهيل مهمتي في مستقبل حياتي المهنية أمثالهم.

كانت الخدمة المدنية في ذلك الوقت تحتل المرتبة الأولى في قوانين العمل الحكومي ، وكان وكيل الوزارة هو الذي يدير شؤون الوزارة المختلفة " والدينمو " المحرك لها.. وكان الأستاذ الصديق خليفة عباس - رحمه الله - وكيلاً للوزارة حينما جاءت حكومة الأحزاب بعد حكومة جبهة الهيئات ، والسيد إبراهيم المفتي وزيراً للخارجية.. وكنا نسمع أن هناك خلافاً بين الوزير والوكيل في شؤون الوزارة حول محاولة الأحزاب التدخل في صميم أعمال الوكيل سعياً وراء إختراق الخدمة المدنية ، وكان مكتبي بقسم المراسم بالطابق الأرضي في مدخل الوزارة تحت مكتب الوكيل مباشرة.. ولاحظت عند حضور الوزير إلى الوزارة تقف عربته أمام مكتبي وينزل السائق ويسألني إذا كان الوكيل بمكتبه فإذا أجبت بنعم كان الوزير يغادر الوزارة فوراً ، وإذا أجبت بأنه غير موجود فكان الوزير يخرج من سيارته ويصعد إلى مكتبه بالطابق العلوي، فتأكد لي أن تلك الإشاعة كانت صحيحة ، وأن الوزير كان يخشى الاصطدام مع الوكيل الذي عرف بقوة الشخصية والتمسك بحقوق العاملين بالخدمة المدنية.

وعندما كنت أعمل بالقسم السياسي - كان ذلك في قمة اهتمام إفريقيا بقضية روديسيا وإعلان الاستقلال من جانب واحد - وقد أرسلت وزارة الخارجية السفيرين عبد الكريم ميرغني ورحمة الله عبد الله إلى الدول الأفريقية لمعرفة



مع السيد تنقو عبدالرحمن رئيس وزراء ماليزيا

مواقفها وشرح خطورة تلك الخطوة.. وكانا يرسلان تقاريرهما من عواصم كل الدول الأفريقية بعضها باللغة العربية وأخرى باللغة الإنجليزية ، ولا أنسى تلك اللحظات التي كنا نقضيها ونحن نقرأ ونتفحص تلك التقارير ، فقد كانت دروساً ذات مستوى رفيع في الدبلوماسية والسياسة إلى جانب إجادة اللغة والتعابير الأدبية في صياغة تلك التقارير ، والتي استفدت منها كثيراً في مستقبل عملي بالوزارة.. وفي هذا المجال لا أنسى تقارير سفراء آخرين والتي كانت في نفس المستوى والجودة أذكر منهم المرحومين فخر الدين محمد وصلاح هاشم؛ وصلاح احمد محمد صالح والمرحوم الامين محمد الامين.

وعندما اشتعل الخلاف بين مصر والسعودية حول اليمن ، ووصل إلى مواجهة عسكرية وقطيعة بين أكبر دولتين عربيتين ، وكنت آنذاك بالقسم السياسي أطلع على التقارير التي ترد من سفارتنا بالقاهرة حول تطورات الخلاف بين البلدين ، وكان العمل اليومي في معالجة التقارير يبدأ من السكرتير الثالث بالإدارة ليبدي رأيه ، ويتدرج إلى رئيس القسم ثم الوكيل ثم الوزير إذا تطلب الموافقة على رأي أو إجراء معين وأذكر إنني علقت في (ID. Sheet) وكانت تلك تسمية الأوراق التي تحمل آراء واقتراحات الدبلوماسيين على التقارير السياسية وغيرها - على الخلاف بين مصر والسعودية مشيراً إلى العلاقات القوية التي تربط السودان معهما مقترحاً أن هذا الوضع يجعل السودان من أكثر الدول العربية تأهلاً للتوسط في هذا الخلاف معدداً الفوائد التي قد تعود إلى العرب من مصالحة الدولتين ، وعلى السودان إذا نجح في هذه المهمة.

وبعد يومين سافرت في إجازة قصيرة لمدة أسبوعين إلى مدرسة حنتوب ، حيث كنت أذهب إليها من حين إلى حين لزيارة شقيقتي الكبرى " محاسن " وزوجها الأستاذ محمود يوسف الذي كان يعمل معلماً للغة العربية هناك ، وكنت أرتاح لأكون معهم وثانياً : لقد أحببت حنتوب الجميلة ولأنها تذكرني بأيامي الخوالي في مدرسة وادي سيدنا الثانوية.



مع الصديق سيد أحمد الحردلو. الخرطوم ١٩٦٦م

وفي مساء ثاني يوم من أيام وصولي جاء ناظر المدرسة وسأل صهري إذا كان المدعو أحمد دياب موجوداً ، وكنت حاضراً فعرفت نفسي له فقال لي : إن وزارة الخارجية اتصلت بمكتبه وطلبت منه أن يبلغني بأن اتصل بهم فوراً... فاستغربت أيما استغراب ولولا احترامي للسيد الناظر لاتهمته بالكذب ، أو أنه فهم الرسالة بالخطأ.

فذهبت معه واتصلت بالرقم الذي أعطاني إياه وكان الوقت حوالي الساعة السابعة والنصف مساءً فرد علي الزميل والصديق سيد أحمد الحردلو - وكان مناوباً أو كما نقول "نبطشي" - وعندما سألته عن الموضوع رد على بطريقته المعهودة... ماذا فعلت يا مجنون؟! وكان يناديني بذلك دائماً... فقلت له لم أفعل شيئاً !! وأنا في إجازة رسمية.. فقال لي إن مكتب رئيس الوزراء ووزير الخارجية محمد احمد محجوب طلب حضورك فوراً للخرطوم صباح الغد... فسألته عن السبب.. فرد أنه لا يدري.. ولكن هذه هي التعليمات.

وعدت وصهري إلى المنزل وكلانا يتساءل عما وراء ذلك (خاصة وأنا موظف صغير) ولم أجرؤ للوصول إلى مكتب الوكيل ناهيك عن مكتب الوزير ، وليست لي

علاقة أو تعامل سابق مع مكتب رئيس الوزراء.. وقضيت ليلة سوداء طويلة مؤرقة وكاد عقلي يطير من كثرة التفكير ، ولم أصل إلى إي تفسير لذلك الحادث.

وفي الغد نهضت مبكراً وأخذت أول " بنطون " (١) إلى مدني وركبت البص السريع وكانت قيمة التذكرة خمسة وعشرين قرشاً ووصلت الخرطوم.. وذهبت مباشرة للوزارة فأخطرت بمقابلة الوكيل بالإنابة الذي أشار علي بالذهاب مباشرة إلى مكتب وزير الخارجية ورئيس الوزراء بمجلس الوزراء ، ووصلت إلى هناك منهوك القوى من الإعياء والرهبة والترقب.. وأخيراً استقبلني السيد محمد احمد محجوب بابتسامته المعهودة وشخصيته الطاغية ، وكدت يغمى عليّ عندما رفع ملفاً وسألني .. هل كتبت هذه المقترحات يا ابني؟ فنظرت إلى الملف فإذا خطي واسمي كانا واضحين تماماً وعلى الرغم من ذلك كدت أجيب بلا.. ولكني تماسكت وقلت له - وصوتي يكاد لا يخرج من حلقومي - نعم سيادتك.. فانطرحت أساريره.. وقال : إنني فقط أردت أن أهنئك وأنقل إليك بأنني قررت الأخذ برأيك ونسعى للمصالحة بين مصر والسعودية.



(١) باخرة لنقل الركاب بين شطي النهر (معدية)....

لم أصافح عبد الناصر



وأثناء الفترة التي قضيتها بالقسم السياسي برئاسة الوزارة ، كانت تتاح لصغار الدبلوماسيين من أمثالي الفرصة لمرافقة الوزراء والوفود التي تسافر في مهام رسمية خارج السودان ، خاصة المشاركة في المؤتمرات المختلفة : كالجمعية العامة للأمم المتحدة ، واجتماعات مجلس الجامعة العربية ، ومنظمة الوحدة الأفريقية..حتى تتفتح عقولهم على ما يجري في تلك المؤتمرات والقضايا التي تناقشها بقصد التدريب وتوسيع معلوماتهم عن طبيعة عمل هذه المؤسسات.

وحانت لي في عام ١٩٦٥م فرصة الذهاب مرافقاً لوفد وزير الخارجية آنذاك المرحوم إبراهيم المفتي لحضور اجتماعات الجامعة العربية بالقاهرة ، وقد كنت في تلك الفترة كغيري من الشباب في السودان وفي العالم العربي معجباً إلى درجة الجنون بالرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ، تلك الشخصية التي طغت على المسرح السياسي في العالم الثالث بصورة لم يسبق لها مثيل.

وكان عبد الناصر - وسيظل بالنسبة لي زعيماً كبيراً وعملاقاً ، وأنا هنا لا أتعرض بالحكم أو التقييم لثورة ٢٣ يوليو ، ولكني أتحدث عن عبد الناصر كظاهرة سياسية في ذلك الوقت - وحتى هذه اللحظات ، فعندما أرى صورته أو أسمع صوته ، - وهو يخاطب الشعب العربي - فإن قشعريرة باردة تسري في جسدي ، وهالة قدسية عنه تجول بخاطري ، ولا أملك تفسيراً لذلك الإحساس والذي لم يشارك فيه أحد عبد الناصر حتى اليوم.

كنت أرى كل شيء من رؤيته له ، وكنت عندما أستمع إليه في خطبه الشهيرة تتلون حالتي النفسية بحالته ، فعندما يكون منتصراً أحس بالزهو والافتخار ، وعندما يكون مهزوماً أحس بمرارة الهزيمة تملأ أحشائي وينتابني الحزن والألم.. لذلك الرجل الذي كان يتحدث من قلبه فملأ الدنيا وشغل الناس.

وقد استقر وفد السودان وأنا بينهم في فندق " هيلتون " النيل بميدان التحرير قريباً من مقر جامعة الدول العربية - وهذا التقليد ما زال قائماً حتى الآن - ولذلك فإن اللقاءات الجانبية التي كانت تتم بين وزراء وأعضاء الوفود العربية كانت فرصة لتبادل وجهات النظر ، والاتفاق على القرارات والتوصيات في المواضيع المختلفة لمؤتمرات الجامعة العربية قبل طرحها رسمياً داخل قاعة الاجتماعات.

ومن المعروف أن الشخصيات السياسية السودانية التي كانت تعرف بميولها نحو الوحدة ، أو نحو إقامة علاقات مميزة مع مصر منذ الاستقلال خاصة التي كانت تنتمي إلى حزب الأشقاء أو الوطني الاتحادي أو الشعب الديمقراطي أو الاتحادي الديمقراطي ، كانت تجد قبولاً خاصاً لدى السلطات المصرية وقياداتها السياسية يختلف عن الشخصيات السودانية من الأحزاب الأخرى ، كما أنه كان هناك تقليد أن يقوم وزراء الخارجية والذين يشاركون في اجتماعات الجامعة العربية بطلب مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر.

وأثناء تلك الزيارة - وتمشياً مع تلك التقاليد - أعرب وزير الخارجية ورئيس وفد السودان لذلك المؤتمر عن رغبته في مقابلة الرئيس عبد الناصر ، وعندما تحدد موعد المقابلة.. بدأت أفكر في كل لحظة وساعة كيف أرافق الوزير في تلك المقابلة حتى أحقق حلماً من أحلام حياتي في ذلك الوقت ، وهو أن أصافح الزعيم العملاق عبد الناصر.. ولأن ذلك الحلم ظل يراودني دائماً فقررت ألا أدع تلك الفرصة تضيع دون أن أحقق ذلك الحلم.

وقبل موعد الزيارة بساعات ذهبت إلى غرفة الوزير وجمعت كل شجاعتي ورتبت أفكاري وشرحت للسيد الوزير في كلمات معبرة صادقة عن رغبتي في أن يوافق على أن أرافقه عندما يذهب لمقابلة عبد الناصر ، ويبدو أن السيد الوزير أحس بأحاسيسي الصادقة فوافق فوراً على طلبي.

وتملكتني سعادة غامرة ، وبدأت أواجه قضية جديدة وهي : كيف أصافح عبد الناصر؟ وكيف أقوم بتحيته؟ وهل اطلعه على ذلك الشعور العميق الدفين في أعماقي الذي ظللت أكنه له منذ أن تفجرت ثورة ٢٣ يوليو؟ وعن متابعتي واستماعي المتواصل بكل أحاسيسي لخطاباته وعن.. وعن..؟

وحانت ساعة موعد اللقاء التاريخي ، وكنت في حالة من الاضطراب لم أعرفها في حياتي عندما اقترب موعد اللقاء وكانت حالتي النفسية أقرب إلى حالة شاب صغير ذاهب لمقابلة فتاة أحلامه للمرة الأولى؛ وقد اشتمل ذلك على اهتمامي بمظهري واختيار كلماتي وكيف أبدأ وكيف أنتهي؟

وتحرك موكب السيد الوزير وأنا برفقته نحو " منشية البكري " حيث منزل الرئيس جمال عبد الناصر. وكنت وأنا داخل السيارة قد فقدت الإحساس بمن حولي وبمناظر القاهرة في الطريق من ميدان التحرير إلى منشية البكري ، وتركز كل اهتمامي وتفكيري باللحظة التاريخية القادمة ولقائي بعبد الناصر لحماً ودماً.. وبدأت أفكر في الكيفية التي سأحكي بها تفاصيل هذا اللقاء لأهلي ولزملائي وأصدقائي بعد عودتي إلى السودان.

وكلما اقتربت المسافة إلى منشية البكري ، كلما ازداد اضطرابي وتوترت أعصابي وفقدت الإحساس بمن حولي ، حتى كدت أعتقد أنني ما عدت أسيطر على تحركات أعضاء جسمي المختلفة.. وعندما وقفت السيارة أمام منزل عبد الناصر شعرت بأن هناك غشاوة قد كست عيوني وأن رؤيتي بدأت تضعف ، ولكنني تماسكت في انتظار ذلك اللقاء.

قادنا مدير المراسم وبرفقته عدد من رجالات الأمن وسكرتارية الرئيس إلى داخل المنزل ، وإلى قاعة الاستقبال ، وكان منزل عبد الناصر في منتهى البساطة التي لا تصدق.. واعتقدت أننا سوف ننتقل من ذلك المنزل إلى منزل آخر هو السكن الرسمي لعبد الناصر.

وبدأت الدقائق تمر وأنا في حالة ترقب ، وبدأت دقات ونبضات قلبي تزداد وترتفع مع مرور اللحظات ، كما بدأت قشعريرة تسري في عروقي وإذا بالعرق بدأ يتصبب من جبيني ، وشعرت بأنني ارتجف وأن حمى لعينة قد داهمتني في تلك اللحظات الحاسمة وبدأ دوار وغثيان يلف رأسي.. وأثناء هذه اللحظات دخل القاعة فجأة شخص يرتدي بذلة وفي منتهى الأناقة ووقف في مدخل الغرفة ووقف وقفة عسكرية وصاح بأعلى صوته "الرئيس جمال عبد الناصر ".

وعند ذلك وقف الجميع وأنا منهم ، وبدا وكأن الرئيس عبد الناصر سوف يدخل القاعة في أي لحظة ، فوقفت بصعوبة شديدة مع الآخرين ولكنني شعرت بأن أرجلي غير قادرة على حمل جسدي الذي بدأ أثقل من دب أسود ، كما أن أوصالي جميعها صارت ترتجف وبدأت دموعي تنهمر.. وفجأة توقف إحساسي بما حولي وهويت على الأرض.

عندما عدت إلى وعيي وإدراكي وجدت نفسي ملقى على سرير وحولي بعض الأشخاص في لباس الأطباء والممرضين ، وأيقنت أنني قد أدخلت إحدى المستشفيات بالقاهرة.

وعلمت فيما بعد أنه قد أغمى على قبل دخول عبد الناصر إلى غرفة الاستقبال في منزله للالتقاء بالوزير ، وقد نقلت فوراً إلى أحد المستشفيات العسكرية ، وكان تقرير الطبيب أنني أصبت بصدمة من فرط إحساسي في تلك اللحظة.

فشعرت بحزن عميق وأسف لا يوصف على فقدان تلك اللحظة الهامة والفرصة التاريخية التي ضاعت من بين يدي قبل لحظات قليلة من تحقيق أحد أحلام حياتي التاريخية ، ولعنت ضعف أعصابي الذي تسبب في ذلك.. ولكنني قد أيقنت بعد ذلك بكبر عبد الناصر وقوة شخصيته وسحره الذي جعل منه زعيماً روحياً للملايين من أبناء الشعب العربي ، فازددت محبة وإعجاباً وتشوقاً للقائه مرة أخرى.. ولكن للأسف لم تتكرر تلك الفرصة.. ولم أصافح عبد الناصر.



توناكوندا .. نيروبي



توناكوندا : كلمة سواحيلية تعني الذهاب....


مع وزير خارجية كينيا . نيروبي ١٩٦٧م

في نهاية عام ١٩٦٦ نقلت للعمل بسفارة السودان بكينيا ، وبذلك أصبحت نيروبي عاصمة كينيا الجميلة أول محطة في رحلتي مع العمل الدبلوماسي ، وكنت غير راغب في مغادرة السودان للعمل بالسفارات بالخارج.. فراتبي كان يكفي كل متطلباتي ، والخرطوم كانت فعلاً عاصمة تمتلئ بالحياة.. أما أم درمان فهي " أم الدنيا " بالنسبة للذين عاشوا فيها وفي أزقتها الملتوية وفي رائحة شوارعها وأسواقها التي تمتلئ بالبشر.

كانت وزارة الخارجية تمنح الدبلوماسي الحق في رفض النقل إلى الخارج مرتين فقط وعليه أن ينفذ النقل في الحالة الثالثة أو يستقيل.

إن منح ذلك الحق يؤكد أن السودان لم يكن بلداً طارداً كما أصبح لاحقاً حيث صار الدبلوماسي يصيبه الإكتئاب عندما ينتقل من العمل بإحدى السفارات بالخارج إلى رئاسة الوزارة بالسودان، وتستمر معه هذه الحالة إلى أن ينقل مرة أخرى إلى الخارج.... سبحان الله مغير الأحوال. وبما أنني سبق وأن رفضت النقل مرتين إلى كل من لندن وباريس من قبل ، فقد قررت أن أشد الرحال هذه المرة إلى كينيا خاصة أن أغنية آسيا وإفريقيا للشاعر الكبير تاج السر الحسن ، والتي كان

يشدو بها الفنان الصديق عبد الكريم الكابلي ، كانت تدفعني لزيارة غابات كينيا ومشاهدة جومو كينياتا أحد الأساطير الأفريقية.

وجدت نيروبي مدينة ساحرة خضراء جميلة تتمتع بطقس يجعلك في حالة نشاط دائم ومزاج معتدل ، وبها فنادق لا تقل عن مستوى أوروبا ، وكذلك المحلات التجارية وأماكن الترفيه كدور السينما والمسارح والمطاعم المختلفة الجنسيات ، وأول ما لفت نظري في كينيا كان اللغة السواحلية.. وكان وقعها كالموسيقى على أذني فأعجبت بها وقررت من البداية أن أتعلمها.

والظاهرة الثانية التي لفتت نظري تواجد أبناء الجالية الآسيوية في كل مكان خاصة في دواوين الحكومة وسيطرتهم التامة على معظم الأماكن التجارية وعلى المهن الوسيطة التي تحتاج إلى مهارة كالكهرباء والميكانيكا وغيرها ، وكانت دهشتي أكبر حين علمت أن معظمهم مواطنون كينيون يحملون الجنسية الكينية.

وكذلك الإقطاعيات والمنازل والمزارع الكبيرة التي يملكها " الخواجات " (١) من بريطانيين وخلافهم ، الشيء الذي جعل من كينيا وطناً لهم بعد الاستقلال واستولوا على مصادر الثروة الهامة في كينيا مثل الفنادق الكبيرة ، والمطاعم المتخصصة ومزارع الشاي والبن ، وشركات السياحة والطيران وغيرها.

ومن ناحية أخرى فإن الكيني من أصل إفريقي كان يعيش في ظروف صعبة وكما علق البعض بأن المواطنين الأصليين في الدول الأفريقية (أي السود) ، يعملون في بلادهم إما وزراء أو مديرون أو في الوظائف "الخدماتية".. ومدينة نيروبي كانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء : جزء يسكنه أبناء الجاليات الآسيوية ، وجزء الأوربيون المقيمون ، والجزء الآخر يسكنه المواطنون الأفريقيون.. وهذا يمثل

(١) الخواجات : جمع خواجة وهو الرجل الأبيض.

الضواحي المحيطة بالمدينة والتي تمثل أفقر المناطق حيث تفتقر إلى الخدمات أو وسائل المدنية الأخرى.

وقد استغربت لهذا الوضع وحزنت عليه كثيراً ، وكذلك على أبناء ذلك البلد من الأصول الأفريقية ، وخيرات بلادهم المتعددة تتلقفها أيدي وبطون الوافدين إليها من آسيا وأوروبا. ولذلك – وبسبب هذه المفارقات – تلاحظ أن شخصية الكيني الأفريقي مهزوزة ومثله الأعلى هو الرجل الأبيض ، ويميل إلى الانغماس في المباهج الرخيصة التي كانت تتوفر له في تلك الظروف.

ولذلك ، فقد ازددت فخراً واعتدادا بأنني سوداني ولما لبلادي من قيم وتقاليد حيث يمتلك المواطنون السودانيون كل المرافق والمواقع المختلفة وتفرّد الشخصية السودانية آنذاك ، والمقدرة والكفاءة التي تمكن بها السودانيون من إدارة دفة الحكم في بلادهم بعد خروج الإنجليز ، والثقة والاعتزاز بالانتماء للسودان أصلاً وسلوكاً وحضارةً.. مقارنة بما رأيته بالنسبة لوضع الكينيين من الأصول الأفريقية في كينيا في تلك الفترة.

والآن وأنا أكتب هذه الخواطر ، بعد مرور حوالي الثلاثين عاماً على تلك الذكريات ، أجد مفارقة وهوة كبيرة بين وضع السودان آنذاك ووضعه اليوم ، وبين ما حققته كينيا وما حققه السودان خلال تلك الفترة ، ووصلت إلى قناعة بأننا تبادلنا الأدوار.. فصار سودان التسعينات هو كينيا الستينات ، وكينيا التسعينات هي سودان الستينات... ويا للهول كما يقول المرحوم الفنان الكبير " يوسف وهبي"!!.

ونحن بصدد الحديث عن المفارقات.. فقد كنت قد تركت العمل بوزارة الخارجية عام ١٩٦٣م ، أي بعض مضي شهور على التحاقي بها ، وقد أوردت في صدر هذه الذكريات بأن فصلي من الوزارة كان موقعاً عليه السيد محمد ميرغني

مساعد الوكيل للشؤون الإدارية ، وكان الخطاب ينص على فصلي من قوة وزارة الخارجية.

وبعد أن عدت إلى العمل بوزارة الخارجية في عام ١٩٦٤م ، تقرر نقلي في نهاية عام ١٩٦٦م إلى كينيا ، وكما ذكرت آنفاً كان يتوجب عليّ تنفيذ النقل أو الاستقالة ، وبما أنني قد اخترت العمل بوزارة الخارجية عن قناعة بأهمية التجارب والاحتكاك بالدول الأجنبية ، ولأنني كنت أعلم بأن السفير السوداني في كينيا هو السيد محمد ميرغني ، الذي اصطدمت به في أول يوم بدأت فيه العمل بالخارجية ، وهو الشخص الذي وقع على خطاب فصلي من قوة تلك الوزارة ، فقد أصبحت أواجه موقفاً صعباً !!.

وفي النهاية قررت أن أذهب لمواجهة الموقف بكل احتمالاته وعزمت على الوصول إلى اتفاق معه حول العلاقة بيني وبينه كسفير ، وألا أعود إلى السودان مهما كانت العواقب ، ولذلك ذهبت إلى مكتبه فور وصولي.. وقبل أن أبدأ الحديث بادرني بالترحاب وكان صادقاً في ذلك وقال لي) لا تتحدث إنني أعرف ما يدور بداخلك نحوي ، وإنني أعجبت بك حين علمت أنه على الرغم من أنك تعرف بأنني سأكون رئيسك المباشر هنا ، إلا أنك وافقت على العمل بهذه السفارة.. وأضاف أذهب إلى مكتبك ، وإن شاء الله لن ترى إلا الخير في هذه البلاد).

ولقد حدث ذلك فعلاً ، ووجدته شخصاً مختلفاً وقد أكبر قراري بالموافقة على العمل بنيروبي واعتبره غاية " الرجولة " ، وهو يعتبر أن الرجولة هي القوة والعنف وتجهم الوجه ، كما أن الرجل هو الذي لا ينجب إلا أولاداً فقط ولأنه "راجل" فقد أنجب أربعة أولاد فقط ، وهو بحكم عمله في الشرطة قبل التحاقه بوزارة الخارجية ، يؤمن بالانضباط في المواعيد وتحمل المسئولية.. وله أسلوب لا يخلو من أسلوب "التحري" في عمله الدبلوماسي ، والموظف عنده متهم إلى أن تثبت براءته.

ولكن بعد فترة من العمل سوياً اكتشفت أن وراء هذه الشخصية الحديدية ، أو وراء "الفك المفترس" - كما كان يطلق عليه بعد أن تقلد لاحقاً منصب وكيل وزارة الخارجية - شخصاً آخر يحترم المشاعر وسودانياً أصيلاً حتى النخاع ، وعلى الرغم من أنه من المدرسة التقليدية في الحياة وفي العمل إلا أنه كان مشرّفاً كسفير يملأ منصبه بكفاءة ويقدر المسئولية ، ولقد عملت معه لمدة سنتين أحمل فيها أعز وأنبل المشاعر والذكريات نحوه ونحو أسرته ، وقد استمرت علاقات الصداقة والود بيننا حتى يومنا هذا ، ولا أنسى أبداً مواقفه الأبوية نحوي في تلك الفترة وحرصه على أن أتعلم وأنجح في مهنتي ، وأعتبره من الشخصيات التي أثرت في حياتي الخاصة والمهنية.



نعنهم ماعندهم جنوب



نعنهم : كلمة باللغة العامية السودانية وتعني لعلهم.


الوالدة المرحومة فاطمة عبدالرحمن محمد صالح

لوالدتي الحاجة فاطمة عبد الرحمن محمد صالح رحمها الله نوادر كثيرة.. وكانت تتمتع بروح دعابة قوية تجمع بين بساطتها وأصالتها ومحاولاتها للجمع بين الماضي والحاضر وبين الأصالة والحداثة ، وكنت وما زلت أرى فيها كل شيء جميل وطيب ونقي وله طعم في هذه الحياة ، فعلى الرغم من أن والدها الشيخ عبد الرحمن محمد صالح - رحمه الله - كان من أوائل نظار المدارس الوسطى من السودانيين في الثلاثينات.. إلا أنها لم تذهب إلى المدرسة وما زالت "تبصم" ، ولكن كان لها عقل راجح ورزين وفكر ثاقب وشخصية تتمتع بصفات القيادة الواعية والمسئولية الملتزمة، والحديث عنها يطول.. ولكن سأكتفي هنا ببعض نوادرها الطريفة أثناء زيارتها لنا بكينيا في عام ١٩٦٧م.

جاءت الوالدة إلى كينيا وبرفقتها شقيقتي عواطف دياب والتي كانت لا تزال طالبة بجامعة الخرطوم ، وكان الهدف من الحضور إلى كينيا هو شراء الشيلة (١٨) لشقيقي المرحوم عبد العزيز دياب ، والذي كان ينوي الزواج ، إلى جانب الاطمئنان على شخصي الضعيف في "الغربة " ، وكانت الوالدة تحمل شيكات سياحية بمبلغ ٢٠٠ جنيه سوداني والتي كانت تعادل ٢٠٠ جنيه إسترليني آنذاك.

وكانت الجالية السودانية بنيروبي تقتصر على أعضاء السفارة فقط ، السفير محمد ميرغني وزوجته ، والأخ ميرغني سليمان خليل وزوجته ، والأخ جميل الملحق الإداري وزوجته ، والمرحوم محمد أبوبكر الملحق المالي ، والصديق سيد أحمد محمد خير والذي كان مدير الخطوط الجوية السودانية بكينيا في تلك الفترة.

وقد كانت هذه الجالية في انتظار " الحاجة " فاطمة بالمطار ، وكان استقبالاً كبيراً وحافلاً ، وقد سحرت بنيروبي ، بجمالها وخضرتها ورونقها ،ولذلك فإن الحاجة لم تخف إعجابها بزهرة إفريقيا ونظافتها وشوارعها الكبيرة ، ولكنها أبدت تخوفها على ابنها المسكين الذي كان العازب الوحيد في تلك المجموعة السودانية بكينيا.. تخوفها من بنات كينيا " المطلوقات " في شوارع نيروبي.

ولقد تولى السفير محمد ميرغني وزوجته مسئولية تعريف الوالدة بنيروبي وكانت تلك هي المرة الأولى في حياة والدتي التي تسمع فيها بلقب " سفير " ، ولا تعرف ماذا تعني بالضبط؟ ونسبة لأن والدها كان ناظراً في المدارس الوسطى وزوجها - رحمه الله - كان وكيلاً بالبريد والبرق.. فكانت تنادي السفير تارةً بالناظر وأخرى بالوكيل إمعاناً في احترامه.

وفي يوم من الأيام كانت تتجول مع السفير وحرمه في نيروبي ، وتتعرف على الأحياء والأماكن المختلفة فرأت من بعيد أماكن تشبه المناطق العسكرية التي تتبع "الجيش"، فسألت السفير عن تلك المباني ، فرد عليها بأنها تتبع للجيش الكيني فسألت باهتمام بالغ "نعنهم ما عندهم جنوب"؟ تعني بذلك هل توجد قضية جنوب أيضاً بكينيا ، كما هو الحال في السودان..؟ فرد عليها بالنفي ، وعندئذ - وبسرعة فائقة - قالت له لماذا لا ينقل شقيقي عبد العزيز ، الذي كان ضابطاً بالجيش السوداني ويعمل آنذاك بالجنوب ، لماذا لا ينقل إلى جيش كينيا حتى يقيم معي في ذلك المنزل الكبير الذي أسكن فيه وحيداً حتى " نونس " بعض.

وعندما روى محمد ميرغني هذه الرواية للأخ السفير عبد الله الحسن والذي عمل في الماضي سفيراً للسودان بغانا ، علق عبد الله بأن والدتي كانت رؤيتها للوحدة الأفريقية متقدمة عن رؤية " كوامي نيكروما " ، فهي لا ترى قيام حكومة موحدة للدول الأفريقية فقط كما يرى الرئيس نيكروما ، بل ذهبت خطوة متقدمة في ذلك الاتجاه وكانت ترى أن يكون لإفريقيا جيش موحد أيضاً.

وإلى جانب تعليق السفير عبد الله الحسن ، فإن ما ذهبت إليه الوالدة في الربط بين وجود جيش ووجود قضية الجنوب ، يدل على مدى أهمية قضية الجنوب في الأوساط المختلفة في السودان ، كما أن ذلك يعكس تلك الأهمية ، حتى على مستوى تلك المواطنة السودانية البسيطة التي كان تربط بصورة عفوية بين الجيش وقضية الجنوب مما يؤكد ترسيخ الحل العسكري لتلك القضية على عقلها وعقول غيرها.

وبما أن الوالدة - رحمها الله - أرادت أن تنهي مهمتها بشراء " شيلة " زواج ابنها عبد العزيز - رحمه الله - فذهبنا إلى البنك العثماني لتغيير الشيكات السياحية إلى شلنات كينية.. و لكن أفادنا الموظف الكيني بالبنك بأنه لا يستطيع تغيير الشيكات ، لأنها ليست موقعة والبنك لا يعترف " بالبصمة " ، فطلبت منه أن أقابل مدير البنك وكان بريطانياً عمل لمدة عامين بفرع البنك العثماني في أم درمان.

وبينما أنا والوالدة ننتظر - وقد شرحت لها ما ذكره الموظف الكيني ، وبدا عليها القلق والزهج وفجأة - ظهر مستر "مارتن" وعندما رأى الوالدة بالزي السوداني تذكر أيامه في السودان ، فتوجه نحوها باشاً وقال بأعلى صوته : السلام عليكم بلغة عربية واضحة.

فتغير مزاج الوالدة فجأة وانفرجت أساريرها واستقبلت مستر مارتن بترحاب شديد ولكنها لم تكتف بالرد على تحيته التي بادر بها ، بل بدأت تشتم في كينيا

وفي البنك العثماني.. لأنه لم يوافق على صرف مبلغ الشيكات السياحية مضيفة بالعربي بأن هذه الشيكات صرفت في "بيت الله" ، وكانت قد عادت قبل فترة بعد أن قامت بأداء فريضة الحج ، فكيف ترفض في نيروبي؟!. وهنا ، سألني مستر مارتن عما قالته.. ولما أخبرته بما ذكرته عن قضية الشيكات السياحية.. رد منزعجاً بأن تلك هي قوانين البنك ، لكن عشان خاطر الحاجة ، فهو سيستعمل سلطاته كمدير للبنك ويصرف لها الشيكات.

وعندما عادت الوالدة إلى السودان.. وجاء الأهل والجيران لتحيتها وسؤالها عن رحلتها إلى أدغال إفريقيا المظلمة ، خاصة عندما سألوها عن رأيها في مدينة نيروبي فردت الحاجة بكل بساطة : بأن نيروبي هي أجمل بلد في السودان ، ولكنها ليست أجمل من أم درمان ، وكانت الحاجة صادقة في إجابتها ، فهي كانت وما زالت تعتقد أن أم درمان شيء يختلف.. فهي الدنيا بأكملها وليست السودان فقط.

ولكني أشك في أنها سوف تتمسك كثيراً بموقفها ذلك الآن ، خاصة وأن أم درمان تعاني ما تعاني !! إذ اختلفت الأحوال من أيام زمان ولم تعد أم درمان هي أم درمان..ولم يعد السودان هو السودان.



ودَّ أبو قَرْجَة




الأمير محمد عثمان ابوقرجة

لقـد ترسـبت فـي عقـول المتعلمـين أو المثقـفين في السـودان فكرة خـاطئـة عن بعض التوجهـات الطائفيـة والقبليـة، أو بعـض الشـخصيـات في السـودان خـاصـة التـي تتـعلق بالإدارة الأهـليـة أو بـالطـوائف الدينيـة ، والاعـتـقـاد بأن تلك الشـخـصيـات " مـقـفـولة " أو " متـحجرة " أو "رجعية .. "وقد يكون مـرد ذلك سياسة التعليم التي كانت تتبع النمط الغربي ، وتشيد بالتقدم الذي أحـرزه الغـرب وتفـوقـه على الشـرق ، وأيضـاً الاختـلاف في نمط الحيـاة والمظهـر والملبس والمأكل ، مما أدى بالبـعض من المثقفين بالتشبه في شتى أنواع السلوك والمظهر والتفكير بالشخصية الأوروبية كأحد ضروب التحضر والمدنية.

وكنت بعـد تخـرجي من الجـامعـة والتـحاقي بالسلك الدبلومـاسي أحـد الذين يحـملون هذا المفهـوم عن تلك المجموعـات والاتجـاهـات.. وفي منتصف عـام ١٩٦٧ عند مـا كنت أعمل سـكرتيراً ثانياً بسـفارة السـودان بكينيـا ، وصلت إشـارة أن وفـداً من السـودان برئاسـة المرحـوم عبـد الله عـبد الرحـمن نقـد الله (وزير الداخليـة) آنذاك وعضوية السيدين أميـر الصـاوي والمرحـوم زيادة سـاتي سوف يصل نيـروبي في طريقـه إلى" لوسـاكـا" عـاصـمـة زامبيـا وسيـمكث بمطار نيـروبي حـوالي الثـلاث سـاعات.

وكان السفير محمد ميرغني بالسودان ، وكنت أنا القائم بالأعمال.. فذهبت إلى مقابلة الوفد بالمطار وأخطرت عدداً من رؤساء تحرير بعض الصحف بوصول وزير الداخلية ، وأنه سوف يعقد مؤتمراً صحفياً بالمطار ، يتحدث فيه عن مختلف القضايا وتطورات قضية الجنوب بوجه خاص ، علماً بأن نيروبي كانت من أهم المراكز الإعلامية في إفريقيا ، وكانت الصحافة الكينية توجه اهتماماً خاصاً بقضية جنوب السودان وتقوم بحملة قوية ضد حكومة الخرطوم وتدعم حركات التمرد ووجهات نظرها.. ولقد اتخذ عدد كبير من الحركات المناوئة في الجنوب من نيروبي مركزاً سياسياً وإعلامياً لتلك الأسباب.


الأمير عبدالله عبدالرحمن نقد الله

وكنت في طيلة فترة عملي بالسلك الدبلوماسي – منذ أن كنت سكرتيراً ثالثاً وإلى أن أصبحت سفيراً – أرتدي الزي السوداني بصورة دائمة في ساعات العمل وفي معظم المناسبات الأخرى ، وكنت وما زلت على قناعة تامة بأن ذلك الزي بالنسبة للرجل والمرأة يعتبر زياً مميزاً للشخصية السودانية وليس الشخصية العربية ولا الشخصية الأفريقية ، وهذا موضوع يتعلق بالهوية السودانية ، ويخرج من نطاق هذه المذكرات ، ولكن هذا الملبس بالرغم من اعتزازي به وإصراري على ارتدائه قد سبب لي عدداً من المشاكل أثناء عملي الدبلوماسي.

ونسبة للفكرة التي ذكرتها والتي كانت عالقة بذهني.. فلقد رسمت صورة لشخصية المرحوم عبد الله عبد الرحمن نقد الله ، خاصة وإنني لم أكن قد التقيت به من قبل ، واعتقدت أنه سوف يرتاح لرؤيتي بالجلابية السودانية وقد

اخترت بصفة خاصة جلابية "دمور" تفصيل "جناح أم جكو"[١] ومركوب "[٢] من جلد النمر وذهبت إلى المطار.

كان الاستقبال رائعاً بتواجد عدد من المسئولين من الحكومة الكينية إلى جانب رجال الإعلام والصحافة المحلية ، وقد كنت سعيداً بذلك الاستقبال وبأنني قد نجحت في تلك التجربة مع أحد الوزراء من " نوعية " نقد الله الذي ارتبط اسمه في تاريخ السودان السياسي بحوادث أول مارس الشهيرة.

وبدأت أنتظر موعد إقلاع الطائرة إلى لوساكا حتى أعود إلى برنامجي العادي في تلك المدينة المبهجة آنذاك.. وفجأة أُعلن أن الطائرة ألغيت لأسباب فنية وسوف تتأخر إلى المساء.. وكسوداني "ود بلد" ونسبة لعلاقتي الشخصية بكل من الصديقين أمير الصاوي وزيادة ساتي ، وبما أنني كنت عزابي[٣] حينذاك وأسكن في بيت "حدادي مدادي" فقد اقترحت أن يذهب الوفد معي إلى المنزل إلى حين أن يتم الإعلان عن موعد الإقلاع الجديد للطائرة ، ووافق الجميع وبدأنا نستعد لمغادرة المطار.

وقبل مغادرة المطار تذكرت فجأة أن السيد نقد الله ، سوف يكون معنا في المنزل فانتابني شعور بالحيرة والقلق.. كيف أقضي هذه الساعات مع هذا الرجل في منزلي ولا يوجد شيء مشترك بيننا ، ثم تذكرت "أشياء" أخرى فأسرعت واتصلت بمنزلي فرد عليّ " ناسونا " ، وناسونا هذا سوداني من أبناء الدينكا كان يعمل معي ، وجاء إلى نيروبي منذ بداية حركة التمرد بجنوب السودان ، وصار يتحدث اللغة السواحلية بطلاقة ويمتاز بصفات حميدة كثيرة من أدب وإتقان

---

(١) جناح أم جكو : جلابية واسعة. جنح : ذوات الأجنحة والجناح أيضاً الناصية. قاموس اللهجة العامية السودانية ص ٢٤٠.

(٢) المركوب : حذاء يصنع محلياً المصدر السابق ص ٤٦٦

(٣) عزابي : بالعامية السودانية وهو الرجل غير المتزوج.

للطبخ وأمانة متناهية.. وكنا أنا وهو كالأصدقاء نتجاذب أطراف الحديث ونتناقش في كل المواضيع ، وقد تزوج من إحدى بنات القبائل الكينية.. ولكن كان عيبه الوحيد هو إكثاره من شرب الخمور وعند ذلك يصبح شخصاً آخر غير ناسونا الهادئ الرزين.

اتصلت بناسونا وطلبت منه أن يجهز المنزل للضيوف ، وطلبت منه أن يقوم بإخفاء كل أدوات الجريمة لأن وزير الداخلية سوف يقضي اليوم معنا ، وكانت تلك الأدوات تشتمل على المسجل وشرائط الأغاني السودانية وبعض اللوحات الفنية ، وقد كنت أعتقد أن هذه الأشياء تعتبر أما " محرمة " أو " مكروهة " لدي السيد نقد الله.

وفي الطريق إلى المنزل شكرني السيد نقد الله على حسن الاستقبال ، وسألني عن أسرتي فقلت له إن جدي من والدي هو الأمير أبو قرجة ، وجدي من والدتي هو الشيخ عبد الرحمن محمد صالح فسر سروراً بالغاً بذلك لمعرفته بالاثنين ، وصار منذ ذلك اليوم يخاطبني يا " ود أبو قرجة "نسبة لأن الأمير أبو قرجة أحد قادة المهدية التي ينتمي لها السيد نقد الله تاريخياً وفكرياً.

وصلنا البيت ووجدنا ناسونا قد أعد لنا وجبة غذاء سودانية فاخرة ، وقد أعجب الجميع بجودة الطعام ولذته. وبعد الغداء ، سألني السيد نقد الله عن " المصلاية "(٤) فرددت عليه بأنني لا أمتلك مصلاية ففتح حقيبة يده وأخرج منها مصلاية ، ثم التفت وسألني عن القبلة وقبل أن أرد عليه أضاف قائلاً " أنت ما عندك مصلاية معقول تعرف القبلة " فشعرت بحرج ما بعده حرج ، وقررت منذ ذلك اليوم أن أشتري مصلاية وأن أعرف القبلة وأن أصلي صلواتي الخمس.

وبعد الصلاة ونحن نشرب الشاي " السادة " سألني السيد نقد الله.. فجأة وقال لي "ما عندك غناء يا ود أبو قرجة " فتعجبت من الطلب ولم أعلم ماذا كان

---

(٤) المصلاية : ما يصلى عليها ويقال لها أيضاً الصلاية ، المصدر السابق ص ٦٧٥.

يقصد بذلك السؤال " التجريمي " هل لأنه فعلاً يحب أن يسمع غناء أم لأنه يود أن يعرف أن كنت صائماً أم لا؟ فقررت المواجهة وقلت له أنني أمتلك جهاز تسجيل فطلب مني أن أحضره ، ولما أحضرته سألني إن كنت أمتلك تسجيلات للفنان عبد الكريم الكابلي فرددت عليه بالإيجاب ولدهشتي طلب أن يسمع أغنية " كسلا " لتوفيق صالح جبريل وبدأ يترنم ويردد مقاطعها مع الكابلي حتى وصل إلى المقطع الأخير الذي يقول :

إتيني بالصبوح يا بهجة الروح تَرحْني إن كان في الكأس باقي

فتعجبت من تلك الشخصية التي كانت تجلس أمامي : بجلابيته وطاقية رأسه ولحيته القصيرة وصلواته وابتسامته التي لم أر مثلها في حياتي ، والتي تشع رقة وطيبة وبشاشة ، وتعكس قلباً كبيراً وروحاً نقية طاهرة وشخصية محببة إلى النفس.. وكان ذلك اليوم بداية لمشوار طويل من الصداقة جمعتني به ، وفتحت عيوني على ثراء وحكمة مثل هذه الشخصيات التي عاشت بيننا في تواضع وبساطة نادرة برهنت على عظمة وأصالة ذلك الجيل.

ونحن في طريقنا إلى المطار نظر السيد نقد الله إلى جلابيتي – وقد ظهرت في عنقي " الفنلة " الداخلية – وقال لي لماذا لا تلبس قميصاً بلدياً مع الجلابية؟ فقلت له إنني لا أملك ذلك ، ففتح حقيبة يده وأخرج قميصين ولباسين لم يستعملهما من قبل وطلب مني أن أتقبلهما كهدية منه فتقبلتهما شاكراً ، وكانت تلك بداية استخدامي للقميص واللباس البلدي السوداني مع الجلابية.

وذهبت بعد هذه المقابلة بشهور في إجازة إلى السودان.. وكان السيد نقد الله قد ترك الوزارة فعلم بوجودي في السودان فزارني في منزل والدي بحي الملازمين ، وطلب مني بإصرار أن أقبل دعوته على الإفطار بمنزله بودنوباوي يوم الجمعة القادم، وبالفعل قد قبلت الدعوة.

وعندما ذهبت إلى منزله يوم الجمعة كنت أتوقع أن أجد عنده شخصاً أو اثنين.. وكانت دهشتي كبيرة عندما لم أجد مكاناً لأوقف فيه سيارتي أمام منزله ، وظننت أن هناك مناسبة أخرى عند أحد الجيران ولكن دهشت أكثر عندما دخلت إلى البيت ورأيت عدداً كبيراً من المدعوين من كبار الشخصيات ، ومن مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية.. وكان يوماً مشهوداً ، فقد كان الفطور سودانياً دسماً مكوناً من اللحوم والعصيدة[٥] والملاح[٦] والأسماك والشعيرية وخلافه.

وعندما غادر الجميع - وكاد وقت صلاة الجمعة يقترب - قررت الذهاب فودعني رحمه الله إلى باب الدار الخارجي.. وعندها شكرته وقد لاحظ انفعالي بهذه اللمسة الإنسانية الصادقة فخاطبني بود وعطف قائلاً : والله يا ود أبو قرجة هذا أقل من حقك !! يا لها من لفته.. ويا له من رجل.. ويا لها من أيام.

وأيقنت عندئذ أن مثل هؤلاء الرجال لا تملك إلا أن تحترمهم حتى ولو اختلفت معهم في بعض القضايا ، لأنهم كانوا صادقين مع أنفسهم ومع غيرهم... إن صراع الأجيال الذي أخذ لاحقاً في السودان طابع الرفض لاحقاً لكل شيء ، قدأحدث خللاً في نمو وتطور الشخصية السودانية ، مما زاد في الفرقة والشتات ، والتي أدّت إلى ما يعاني منه سودان اليوم من فقدان للأصالة ، وتنكر للذات والوطن ، وانعدام سمات الهوية التي تجمع ولا تفرق وتؤصل ولا تقتلع وتتقبل ولا ترفض كل شيء.



(٥) عصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ وهي الكسرة من الذرة أو الدخن ، المصدر السابق ص ٧٧٠ .

(٦) الملاح : الإدام. ملح الخبر أي وضعه في الإدام ، قال :ودأب شريعه : ما شربو السمون ما التذوا بالملحات جمع ملاح. المصدر السابق ص ١٠٩٨ .

حرامى فى السفارة



كما ذكرت من قبل فإن السفير محمد ميرغني ، كان يعطي الانضباط والمواعيد أهمية قصوى بالنسبة للعمل لدرجة مبالغ فيها في بعض الأحيان ، وهو يحدد علاقته الشخصية بالموظف بمدى التزامه بمواعيد العمل في الحضور والانصراف.

وفي يوم من الأيام العادية حضرنا جميعاً إلى السفارة التي تقع في الطابق الثاني في مبنى " شانكر داسي هاوس " بجوار سينما كينيا قبل التاسعة صباحاً . وتوجهنا إلى مكاتبنا وبدأنا نطالع الصحف.. وكان من المفترض أن يغادر السفير نيروبي حوالي الساعة الحادية عشر صباحاً إلى الكنغو " زائير سابقاً " لحضور أحد اجتماعات دول وسط وشرق إفريقيا.. وقبل أن يحين موعد مغادرته بساعة تقريباً ، شعرت بحركة غير عادية في السفارة وأصوات غريبة في الممر الداخلي بالمكاتب ، وقبل أن أغادر المكتب لأرى ماذا يحدث بدأ جرس التلفون يرن ، رفعت السماعة فإذا به السفير يطلب مني الحضور إلى مكتبه في الحال ومعي كل أعضاء السفارة.

اتصلت بأعضاء السفارة وطلبت منهم التوجه إلى مكتب السفير ، وعند دخولنا المكتب فوجئنا بوجود عدد من أفراد الشرطة الكينية وبعض الكلاب البوليسية فأصابنا الذهول ، وكان السفير يقف في وسط المكتب ، وبدا حازماً كأنه يدير معركة حربية ، وكان أعضاء السفارة إلى جانبي :القنصل الأخ ميرغني سليمان

خليل ، وكان برتبة بكباشي[1] بالقوات المسلحة السودانية ، إلى جانب الملحق الإداري والملحق المالي والسكرتيرة واثنين من المراسلات واثنين من السواقين ، واجتمع الجميع في مكتب السفير.

وعندما اكتمل عددنا أفادنا السفير بأن شيئاً مريباً قد حدث لأنه ترك حقيبته الخاصة بالسفر وبها بعض الأوراق وجواز السفر ونقود ، وذهب إلى الحمام ، وعندما عاد وجد أن الحقيبة مفتوحة ، فسألناه إذا كان هناك شيء مفقود ، فأجاب بالنفي فقلنا له إذاً لماذا هذا التجمع ؟ ، فقال لكي أعرف من الذي فتح الحقيبة.. وقرر أن يجري لنا جميعاً كشف البصمة، وكدنا ننفجر من الاستياء خاصة الأخ ميرغني سليمان الذي خلع وظيفته الدبلوماسية وبدأ يتكلم بأسلوب بين الجد والهزل مع السفير عندما ذكر له أنه عسكري بكباشي (يعني زي عبد الناصر) لذا يجب أن يعفى من إجراء الكشف ، ولكن محمد ميرغني لم يتزحزح عن موقفه.. وبالفعل تم الكشف علينا جميعا.

وبعد كل ذلك فشل البوليس في معرفة من فتح الحقيبة وكان قرار المتحري أنها فتحت بضغط ذاتي ولكن السفير لم يقتنع وقام بتأجيل سفره، وأرسل برقية " شفرة " إلى رئاسة الوزارة بتفاصيل الحادث ، ولكن الشيء الذي لم يذكره في البرقية أنه أخضع كل أعضاء السفارة إلى كشف بوليسي دقيق ، لا يتناسب مع الجريمة ، ولا مع وضعهم الدبلوماسي ، خاصة وقد قام بتلك الإجراءات بوليس الدولة المضيفة ، مما يتنافى مع القوانين والأعراف الدبلوماسية ، إضافة إلى ذلك فقد قام في نفس اليوم بفصل المراسلات والسواقين كإجراءات وقائية.

وعندما أخبرنا بذلك علق الأخ محمد سليمان بأنها " جات " سليمة (أي أتت سليمة) والحمد لله أنه لم يقرر فصلنا نحن أيضاً.

---

(١) بكباشي : عقيد (رتبة عسكرية).

كانت تلك إحدى مواقف السفير محمد ميرغني ، والتي تجلت فيها شخصيته البوليسية التي كانت تعيش داخل شخصيته الدبلوماسية في أغلب الأحيان ، ويبدو أنه في ذلك اليوم كان سعيداً ، لأنه خلع وظيفته الدبلوماسية وعاد إلى شخصية البوليس ومارس مهنته المفضلة بكل تفاصيلها According to the book.

ومن المعروف أنه بعد أن أُنشئت وزارة الخارجية فور نيل السودان استقلاله ، فقد تم اختيار أعضاء السلك الدبلوماسي للوزارة في مختلف الوظائف من الكوادر التي كانت تعمل في مجال الإدارة والبوليس والتدريس قبل الاستقلال ، وعلى الرغم من ذلك ومن قصة الحرامي التي خلق منها السفير محمد ميرغني حدثاً دراماتيكياً ، وعلى الرغم من أنه لم يتم تدريبها أو تأهيلها بصورة تامة للعمل الدبلوماسي ، إلا أن معظم تلك الكوادر قد برهنوا على مقدرة فائقة في هذا المجال ، وبعضهم تمكن من اختراق السلك الدبلوماسي السوداني والأفريقي . واحتل مواقع متقدمة في المنظمات الدولية أمثال المرحوم عمر عديل ، والمرحوم محمد عثمان يس ، والمرحوم فخر الدين محمد وقد رفعوا هامة السودان عالياً وخلفوا وراءهم إرثاً دبلوماسياً للأجيال المختلفة من ناشئة السلك الدبلوماسي السوداني.



هذا هو السفير



عين المرحوم السيد عبد الكريم ميرغني سفيراً للسودان بالقاهرة عام ١٩٦٨م ، وجاء ذلك التعيين لاعتبارات عديدة ، أولاً : لأن عبد الكريم كان من مؤيدي حركة الأشقاء أثناء نهوض الحركة الوطنية السودانية قبل الاستقلال وثانياً : لأنه من أكفأ ومن أكبر السفراء سناً بوزارة الخارجية ، وثالثاً : لأنه عمل وزيراً للاقتصاد والتجارة بحكومة أكتوبر.. واستطاع في ذلك الوقت أن يكوّن علاقات جيدة مع بعض الشخصيات المصرية ، وعلى رأسها الرئيس جمال عبد الناصر.. ولكن بحكم علاقتي وصداقتي بالمرحوم عبد الكريم فإنني أستطيع أن أؤكد أن هناك أسباباً أخرى وراء هذا التعيين.



يقدم اوراق اعتماده كسفير للسودان باليونان
الفقيد عبدالكريم ميرغني

كان عبد الكريم من الشخصيات التي أحست بالإحباط بعد سقوط حكومة أكتوبر وعودة الأحزاب مرة أخرى إلى كراسي الحكم ، وكان بحكم ماضية الوطني والسياسي يدرك عدم نضوج العمل الحزبي في السودان ، وعجزه عن مواجهة قضايا السودان السياسية إلى جانب القصور الذي كان واضحاً في ممارسة الديمقراطية بمفهومها الحقيقي في العمل السياسي... وكانت بعض رموز العمل الحزبي في الأحزاب التي تعاقبت على الحكم بعد أكتوبر تدرك ذلك ، كما أنها

كانت تخشى بقاء أمثال عبد الكريم ميرغني وغيره من الشخصيات الوطنية في ساحة العمل السياسي في السودان خشية أن تتكرر تجربة أكتوبر مرة أخرى.. ولذلك تقرر نقله للقاهرة.

ولذلك عندما تسلم عبد الكريم هذا المنصب كان أكثر زهداً فيه من غيره ، خاصة وإن الزهد كان أحد خصال عبد الكريم المتعددة التي ميزته عن غيره من السفراء والسياسيين كذلك ، وكان يدرك أن القصد من تعيينه بالقاهرة يأتي في نطاق سياسة "الإبعاد والإسعاد" : الإسعاد لم يكن يرضي ضمير وطموحات عبدالكريم الوطنية في خدمة بلاده كما أنه ليس متوقعاً من الأحزاب لشخص ليس من اتباعها ، إلى جانب أن عبد الكريم كان يتمتع بصفات عديدة يصعب التعرض لها جميعاً في هذا المجال ، ولكن ما يهمنا هنا هو ما يتعلق بشخصيته كسفير في القاهرة.. فالمصريون بل أغلب الجنسيات توفرت لها صورة معينه عن السفراء.. وفي مقدمتها الاهتمام بالمظهر والنواحي الإعلامية ومحاولة فرض شخصيته الرسمية دون الاهتمام بالاعتبارات الأخرى التي تفرض على السفير أن يحمل هموم وطموحات بلاده فوق كل الاعتبارات الدبلوماسية والمراسمية الأخرى.



السفير عبدالكريم ميرغني
مع السيدة ام كلثوم. القاهرة ١٩٦٩

كان عبد الكريم لا يهتم بالشكل والمظهر ، بل بالأصل والمضمون في كل شيء ولذلك كان لا يعير اهتماماً كثيراً بهندامه وأن تنسجم ربطة العنق مع لون البدلة ، التي يعتقد البعض أنها من مستلزمات وصفات السفير الناجح ، ولا يهتم بطريقة تصفيف شعره أو بأنواع الروائح أو الكولونيا التي يستعملها ، كما أنه – نسبة

للأسباب التي ذكرتها - كان راضياً ومقتنعاً بأن ليست هنالك اعتبارات جادة لتعيينه في ذلك المنصب.

وقد جعلته كل هذه الظروف لا يهتم كثيراً بتسخير كل إمكانياته الدبلوماسية والفكرية والسياسية في ذلك المنصب ، خاصة وأن القاهرة ووسطها الإعلامي والدبلوماسي كان يتطلب جهداً في تلك المجالات التي رأى عبد الكريم تجاهلها.. واكتفي بجهد المقل وكأنه بحسه السياسي كان مدركاً أن عمر الديمقراطية الثانية في السودان لن يكون طويل الأجل.

ولقد رأى الأخ والصديق والسفير صلاح أحمد محمد صالح - الذي كان يعمل مستشاراً إعلامياً بالسفارة في ذلك الوقت - أهمية أن يلتقي السفير ببعض رجالات الإعلام والصحافة ، وكان صلاح بحسه الإعلامي يعلم أن مثل هذه اللقاءات مهمة في تسهيل عمل السفير خاصة بالنسبة للعمل الدبلوماسي بالقاهرة... وقد نجح بعد ضغط كبير على السفير في أن يقيم حفل عشاء بمنزله يدعو له بعض الشخصيات المصرية التي كانت تربطه بأغلبهم علاقات شخصية وعلاقات عمل ميزته من غيره من المستشارين الإعلاميين الذين عملوا في هذا الموقع في مختلف سفارات السودان منذ ذلك الحين وحتى الآن.

أقيم حفل العشاء بشقة الأخ صلاح بالدقي والتي كانت تطل على النيل العظيم.. وكان صلاح في ذلك الوقت ما زال عازباً ولكن كانت " منيرة " التي تعمل لديه سيدة مصرية ماهرة في إعداد الطعام الذي لصلاح شغف كبير بأنواعه المختلفة. وقد كان ضمن الحضور على ما أذكر الأستاذ عبد الرحمن الخميسي ، والأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ، والأستاذ رجاء النقاش ، والأستاذ أحمد بهاء الدين ، وبعض الشخصيات من الإذاعة والتلفزيون.

وجلس الجميع يتبادلون الأحاديث المختلفة وجميعهم حاول أن يدفع السفير للحديث حتى يستطيع الحكم عليه وعلى قدراته السياسية . ولكن عبد الكريم ظل

مقتضباً وسارحاً ومستمعاً أكثر منه مشاركاً فعلياً ، كما توقع الجميع وعلى رأسهم الأخ صلاح أحمد.. واستمر الأخوة المصريون في تبادل الحديث فيما بينهم وكأنهم أدركوا أن هذا السفير ليس له ما يقوله ، وأن هذا اللقاء يأتي في نطاق العمل الروتيني للأخ صلاح بالسفارة.

وقبل موعد تناول الطعام بدأ عبد الكريم يشارك في الحديث.. وكانت البداية عن السياحة والآثار المصرية الفرعونية فتناول هذا الموضوع من كل جوانبه وأسهب في الحديث عن حياة الفراعنة ، وعن اختلاف الأسر الفرعونية وعن معتقداتهم وتفكيرهم بصورة مذهلة.. ظن البعض أن هذا هو تخصص السفير الدراسي الذي لا يجيد معرفة غيره.

وانتقل بعد ذلك وبأسلوب شيق مليء بالمعلومات والآراء الفكرية عن فترة عمله كسفير للسودان في الهند والتي استمرت لفترة طويلة ، وعن الديانات الهندوسية والبوذية وعن فلسفة تلك الديانات والمعتقدات الدينية المختلفة وعن الهنود كشعب واختلافهم ، وأسهب في الحديث عن غاندي وكأنه كان يعرفه بصورة شخصية ، وعن فلسفته في الكفاح السلمي ، إلى جانب التعرض بروح الفكاهة والمرح والنكته عن المفارقات في حياة الشعب الهندي.

ثم انتقل إلى الحديث عن الإسلام وعن القضايا الإسلامية المعاصرة ، فكانت مساهمته في تلك المواضيع مذهلة ومدهشة.. وكان يتحدث وكأنه يعيش في عهد الخلفاء الراشدين. وقد أعجب عبد الرحمن الشرقاوي إعجابا كبيراً بمساهمة عبد الكريم في ذلك الحديث.

وبعد العشاء تفرقنا ، وكاد الصبح أن ينبلج ، ولكننا لم نحس بمرور الوقت ولم نمل تلك السهرة التي كانت بالنسبة لي شخصياً حلقة دراسية متنوعة المواضيع ومتعددة الفوائد.

وعندما ذهبنا إلى السفارة في صباح اليوم التالي وجدنا أنه لم تختلف صحيفة من صحف القاهرة اليومية في الحديث عن سفير السودان الجديد بالقاهرة ، وقد أضفت عليه الأوصاف المختلفة من الحكمة والثقافة والفكر والموضوعية والتجارب ، ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك المجموعة من المجموعات التي يلتقي بها عبد الكريم في مختلف المناسبات.

فلقد نجح صلاح في تحقيق طموحه المهني وفي أداء مسئولياته ، ونجح عبد الكريم في الانطلاق بفكره ووعيه وثقافته في دنيا الصحافة والإعلام والفن في القاهرة وكانت تلك الأمسية هي التي أخرجت عبد الكريم من حالة الإحباط التي ظل يعاني منها منذ وصوله القاهرة فانطلق في الساحة الدبلوماسية بصورة تشرف المهنة وتشرف السودان.



الشعب الساحر



حدثان لهما دلالات كبيرة عشتهما عندما كنت أعمل بسفارة السودان بالقاهرة عامي ١٩٦٨م-١٩٦٩م مع نجمين عربيين كبيرين إذ قامت كل من السيدة أم كلثوم وشاعر العرب الأول نزار قباني بزيارة للسودان في تلك الفترة، ولقد التقيت بهما قبل زيارتهما للسودان وبعد عودتهما ... وكانت زيارة الاثنين للسودان هي الزيارة الأولى في حياتهما لذلك الجزء من "الوطن العربي".

وقبل قيامهما بزيارة السودان كان الاثنان يجهلان جهلاً كبيراً ذلك البلد ، بل يمكن أن نقول إنهما كانا يتخوفان من القيام بتلك الزيارة. على الرغم من أن الشاعر نزار قباني كان ملماً ببعض شعر وشعراء السودان ، ولكن السيدة أم كلثوم كانت لا تعلم شيئاً ليس عن السودان فقط بل عن العاصمة "الخرطوم" ، وعندما قام السفير بزيارتها بمنزلها لتوجيه دعوة وزير الثقافة والإعلام لها لزيارة السودان ذكرت بأن البعض قد حدثها بأن هنالك حيوانات مفترسة في شوارع "الخرطوم" وبدهشة أكد لها السفير أن الحيوانات موجودة في الخرطوم لكن في حديقة الحيوانات فقط.. وليس في الشوارع.

وقد أدى انفتاح السودان عربياً بعد عودة الديمقراطية الثانية.. وبعد نجاح مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالخرطوم عام ١٩٦٧م إلى بداية الاهتمام العربي بالسودان وإلى تأكيد أهمية دور السودان العربي وفي إمكانيات ذلك القطر المختلفة، بالإضافة إلى أن ثورة أكتوبر كانت ظاهرة جديدة في الوطن العربي وفي

العالم الثالث.. جعلت كثيراً من المفكرين والأدباء والفنانين والسياسيين ينظرون نظرة جديدة إلى السودان وبرؤية لا تخلو من إعجاب واستغراب في آنٍ واحد.

وبقدر ما كانت انطباعات السيدة أم كلثوم والشاعر نزار قباني متشابهة إلى حد كبير قبل قيامهما بزيارة السودان وكأنهما كانا مدفوعان للقيام بتلك المهمة.. بقدر ما كانت انطباعاتهما تفوق الوصف وتتجاوز حدود المجاملة وروح المغامرة.

عندما هبطت الطائرة السودانية التي كانت تحمل السيدة أم كلثوم عائدة من الخرطوم للقاهرة توجه أعضاء السفارة وعدد كبير من الصحفيين وأفراد أسرتها لاستقبالها، وعندما بدأ بعض الصحفيين توجيه الأسئلة لها عن انطباعاتها من زيارتها للسودان ، انهالت دموع السيدة أم كلثوم وكانت في حالة تأثر بالغة وهيام حقيقي بالسودان وبأهله.. وتحدثت حديثاً اذهل حتى أولئك الصحفيين الذين كانوا يتعاطفون مع السودان. على الرغم من شعورنا بالارتياح نحن أعضاء السفارة ولكن ما قالته السيدة أم كلثوم عن السودان وأهله فاق توقعاتنا وأمنياتنا.

وبعد عودتها وافقت فوراً على دعوة السفير لها للاحتفاء بقدومها بمنزله بالمعادي والذي دعا إليه صفوة المجتمع المصري من سياسيين ومفكرين وأدباء وفنانين ، وأصرت السيدة أم كلثوم على حضور السودانيين المقيمين بالقاهرة في ذلك الحفل بمختلف مستوياتهم ومشاربهم... وأثناء الحفل كانت السيدة أم كلثوم تتنقل من مجموعة إلى أخرى من الحضور ، وهى تكاد تغني عن غرامها بالسودان وأهله. وكانت تلك الأمسية هي العائد الحقيقي من زيارتها للسودان والتي تركت انطباعاً لن ينسى في ذاكرة الجميع ، وكان لها صدى إعلامي لا يقدر بثمن ، إذ تناقلته كل صحف القاهرة ، وترك نفس الانطباع في نفوس الملايين من المصريين الذين يعجبون بأم كلثوم.

من المؤسف أن ذلك النجاح الإعلامي لم يرد بخاطر أحد إذ لم يؤخذ في الاعتبار أثناء المحاكمات التي أعقبت ثورة مايو واتهام بعض المسئولين من رموز

الأحزاب السياسية بالفساد ، التي شمل المرحوم "عبد الماجد ابوحسبو" الذي قام بتوجيه الدعوة للسيدة أم كلثوم لزيارة السودان عندما كان وزيراً للإعلام والثقافة في تلك الفترة.

أما الشاعر الكبير نزار قباني فلم يكن اقل انطباعاً من السيدة أم كلثوم عندما عاد للقاهرة في طريقه إلى بيروت ، وقد أقام له السفير حفل غداء بمناسبة عودته ، وكان يحمل قصاصات من الصحف السودانية التي قامت بنشر أنباء زيارته والليالي الشعرية المختلفة التي أقامها ، والمقابلات التي تمت مع أجهزة الإعلام المختلفة.. وقال إنه "لم ير شعباً يتعشق الشعر في حياته كالشعب السوداني".

ولقد أدي انطباع السيدة أم كلثوم عن زيارتها للسودان أنها قررت تقديراً لتلك الزيارة أن تقوم بغناء أغنية من تأليف شاعر سوداني، ووقع اختيارها على قصيدة "غداً ألقاك" للشاعر السوداني الأستاذ "الهادي آدم" ، كما أن نزار قباني قام بزيارة أخرى للسودان في وقت لاحق.

هاتان التجربتان تثبتان أن الإنسان هو ثروة السودان الحقيقية، وأنها كانت السبب وراء وضع السودان المميز في العالمين العربي والأفريقي ، وكانت مصدر الثقة التي نالها أبناء السودان الذين احتلوا مواقع مميزة في المنظمات الإقليمية والدولية، وأنها ستظل كذلك إذا استطاع أبناء السودان المحافظة على تلك الصفات والطبائع.. والتي كادت تندثر في سودان اليوم نتيجة للخلافات حول القضايا السياسية والأوضاع الاقتصادية. إذا لم يتدارك أبناء السودان هذه الحقائق قبل أن يفقدوا أصالتهم ، وقبل أن يفقد السودان شخصيته المميزة.

إن إصرار الأنظمة المختلفة التي توالت على حكم السودان والأحزاب السودانية بتعددها واتجاهاتها على توجيه طاقات ذلك الشعب وحصرها في نطاقات ضيقة

ومحاولة فرضها بالقوة أو بالحسب والنسب ، أو بالأجندة الأجنبية.. أدت إلى أن تتآكل تلك الطينة النقية في جذور الشخصية السودانية وتصبح شخصية بلا هوية وبلا طعم ولا رائحة..



حفلة للكلام



كانت القاهرة في صيف ١٩٦٨م تبدو كشخص متجهم يتقبل العزاء في فقد عزيز لديه كانت مدينة حزينة مظلمة ، ألوانها داكنة ، وتبدو مدافع الدفاع المدني في كل مكان ، أكياس الرمل ، الأنوار الخافته ، الزجاج المظلل ، وكانت آثار النكسة تبدو على الأشياء وعلى البشر ، بل على مظاهر الحياة المختلفة وهي تعيش مرارة الهزيمة وتعاني من مرحلة حرب الاستنزاف.

وكان الإصرار الوحيد والتفاؤل هو صوت الرئيس العملاق جمال عبد الناصر وهو يخاطب الشعب المصري في مناسبات مختلفة ، ويحاول جاهداً أن يحيل الهزيمة إلى نصر بإصرار دائم وعزيمة لا تلين ، وثقة بالنفس وبالقضية وبالمصير قبل أن يهزمه القدر ، وكان بريق نظراته هو الأمل في ظلمات ليالي القاهرة الحزينة.

ولكن على الرغم من ذلك ، فقد ظلت القاهرة هي القاهرة " أم الدنيا " ، واستطاع الشعب المصري العملاق بصبره وقوة إرادته وروح دعابته وإصراره على الحياة أن يجعل الحياة تستمر ، كما استطاع أن يحيل " النكسة " إلى قصص وروايات شيقة ونكات وقفشات لا تخلو من دعابة تعكس روح الإحباط التي عمت مختلف الطبقات ، وأثرت على وتيرة الحياة.

وظلت القاهرة في الصيف قبلة المصطافين من أبناء الدول العربية ، وخاصة من السودانيين مع اختلاف مشاربهم ومستوياتهم واهتماماتهم ، وبعد نجاح

السودان في عقد مؤتمر القمة العربي بالخرطوم بعد نكسة ١٩٦٧م ، والذي اعتبر من أنجح مؤتمرات القمة العربية وأصبحت لاءاته الثلاثة.. لا سلام.. لا صلح.. لا اعتراف بإسرائيل قاعدة للعمل العربي المشترك لفترة طويلة ، إلى أن قامت مصر بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل عام ١٩٧٩م.

ولقد كانت من نتائج ذلك المؤتمر في العلاقات بين مصر والسودان ، إنها - ولأول مرة - ، خلقت اهتماماً حقيقياً بالسودان ، وبما يحدث فيه من مختلف طبقات الشعب المصري ، كما فتحت عيون المصريين إلى أن السودان ينتمي انتماء حقيقياً للأمة العربية، وأنه تضامن مع الشعب المصري تضامناً حقيقياً في محنته ، كما أن السودان ينعم بطاقات ورجال من طراز رفيع ، ظل مجهولاً لدى المثقفين من أبناء الشعب المصري.

وأصبح منزل السفير السوداني " بالمعادي " ملتقى الصفوة من السياسيين والأدباء والإعلاميين المصريين ، إلى جانب أصدقاء السفير الإنسان عبد الكريم ميرغني الذي كانت داره العامرة تستضيفهم بكل ترحاب ، وكان السفير يعمل على توفير كل أسباب الراحة والترفيه لهم أثناء تواجدهم بالقاهرة.

وفي ليلة من ليالي الصيف في ذلك العام ، كان هناك لقاء من اللقاءات التي كانت تتكرر كثيراً في منزل السفير بين الصفوة من المصريين مع بعض زوار القاهرة من السودانيين.. وكان في مقدمة الحضور الشاعر والأديب والسياسي الأستاذ عبد الرحمن الخميسي الذي كان نجماً لامعاً وحاضراً ومحبوباً في مثل تلك اللقاءات ، وكان يتصدر النقاش الذي احتلت السياسة أهم جوانبه ، ويتحدث بأسلوبه المسرحي الساحر ، والكل يستمع بتشوق واهتمام.

وكان من بين الحضور السيد احمد سليمان المحامي الذي كان يمثل في ليالي الخرطوم " أيام زمان " نفس الموقع الذي يحتله الخميسي في ليالي القاهرة ، وكان

"أبو السلمون " كما يحلو لنفسه ولأصدقائه أن يسموه ، لا يقل متعةً وسحراً في الحديث والنقاش عن الخميسي ، وظل أبو السلمون يحاول أن يجد الفرصة للمشاركة في النقاش ، إلا أن الخميسي أصر على الاستمرار في الحديث ، إلى أن ضاق ذرعاً أبو السلمون وهاج في وجه الخميسي قائلاً :

- يا عبد الرحمن أدينا معاك فرصة !! والله أنتو يا المصريين ما بتعرفوا غير الكلام!!

- فنظر الخميسي إلى " أبو السلمون : وقال :

- نحن المصريين ما بنعرف غير الكلام !! والله يا أبو السلمون ما في شعب في العالم بحب الكلام أكثر من السودانيين.

واستطرد قائلاً :

- بل إن السودانيين هم الشعب الوحيد الذي يقيم حفلة للكلام.

فقاطعه أبو السلمون قائلاً :

- هذا خطأ. فالسودانيون لا يحبون الكلام الكثير ، بل إن الشخص الذي يتكلم كثيراً يصبح مكروها لدى الآخرين.

عند ذلك اعتدل الخميسي في جلسته واستطرد قائلاً : يا أبو السلمون عندما تكون هناك مجموعة من السودانيين يرغبون في الاستمتاع بوقتهم فماذا يفعلون غير أن يجلسوا ويحتسوا ما يحتسون ، وتستمر جلساتهم من أول المساء وحتى الساعات الأولى من فجر اليوم التالي ، ولا يفعلون شئياً غير الكلام ثم الكلام ، من غير تخت أو موسيقى أو رقص أو شعر.. ماذا تسمي هذا يا أبو السلمون غير " حفلة للكلام ".

قد فاجأ الخميسي أبو السلمون بهذه الحقائق الموضوعية التي تتم عن معرفة تامة "بقعدات " وسهرات السودانيين بالقاهرة أو بالسودان.. ويبدو أنه أيضاً عاد

بذاكرته إلى " ليالي المقرن " و"رويال" و " الجندول " والتي كانت له فيها صولات وجولات.. فصمت وامتنع عن مواصلة النقاش واعترف بالهزيمة ، ولكن تلك الليالي استمرت واستطاع أبو السلمون أن يحيل تكل الهزيمة إلى انتصارات في مجالات أخرى.



كابْـلِيَّـات القاهرة




مع الفنان عبدالكريم الكابلي وشقيقاتي عواطف . عفاف . عرفه وشقيقي سيف الدين في استوديو تلفزيون القاهرة، عام ١٩٦٩م

في الرابع من يناير من عام ١٩٦٩م ذهبت إلى مطار القاهرة الدولي لوداع الأخ والصديق عبد المجيد الصاوي الذي كان عائداً إلى السودان بعد زيارة عمل قصيرة للقاهرة.. ونحن بالمطار رأى الأخ عبد المجيد الفنان "عبد الكريم الكابلي" في "خناقة" مع موظفي الخطوط الجوية السودانية ، لأنهم أخبروه بأنه لن يتمكن من السفر في الطائرة السودانية التي كانت ستغادر إلى الخرطوم ، وعليه أن ينتظر السفرية القادمة بعد يومين.

حاول الأخ عبد المجيد الصاوي الذي كان يعمل ضابطاً للعلاقات العامة بالخطوط الجوية السودانية ، وحاول الفنان الكابلي بشتى الطرق الحصول على مقعد في تلك الطائرة ، لكن باءت كل تلك الجهود بالفشل.. وأخيراً التفت عبد المجيد الصاوي وقال للكابلي محاولاً تخفيف وقع عدم السفر عليه :

" مافي مشكلة يا كابلي تمشي تعقد مع أبو دياب ، عنده شقه ظريفة وكلها يومين ونتقابل في الخرطوم.. "

فرحبت بالاقتراح وأبديت سعادتي بإقامة الفنان عبد الكريم الكابلي في ضيافتي حتى يسافر إلى الخرطوم، وذهبنا إلى الشقة وقضينا اليوم الأول في التعارف ، ثم جاء اليوم الثاني وبعد "غفوة العصرية" سمعت كابلي "يدندن" بالعود في الصالة فخرجت إليه ، عندما رآني سألني :

- "يا أخي أنت ما بتحب الغناء السوداني؟"

- قلت : "احبه جدا"

- قال : "مين هو فنانك المفضل؟"

- قلت : "الأستاذ عبد الكريم الكابلي"

عندها ابتسم ابتسامة عريضة وقال :

- "طيب يا أخي ليه ما طلبت مني أغني ليك؟"

- قلت : "أنت ضيفي... ولن أطلب منك أن تغني إلا إذا كان عندك مزاج.."

- فأجاب : "الليلة عندي مزاج.. اضرب التلفونات واحضر من تريد وخلينا نعمل سهرة حلوة الليلة".

فور سماعي ذلك ، هرعت إلى التلفون وبدأت في دعوة بعض أعضاء السفارة والأصدقاء الموجودين بالقاهرة.. جمعت في تلك الليلة الزميل والصديق المرحوم "احمد سالم" وكان يعمل مستشاراً تجارياً بالسفارة ، كذلك الأخ "علي يسن قيلي" ومولانا "دفع الله الحاج يوسف" ، والأخ "صلاح عبدون" والأخ المرحوم "فؤاد معني" إلى جانب الأستاذ "يوسف الشريف" الصحفي المصري المعروف وآخرين.

بدأت في تجهيز العشاء ومتطلبات السهرة الأخرى... وتذكرت فجأة بأنني لا أملك "جهاز تسجيل" لتسجيل هذا الحدث التاريخي.. فأسرعت إلى "الصالون الأخضر" وهو المحل الذي يتعامل مع الدبلوماسيين لإعفاء مشترياتهم من

الضرائب الجمركية، وقع اختياري على جهاز تسجيل ياباني الصنع ماركة "آكاي" لا أزال احتفظ به حتى اليوم ، وكان سعره يتجاوز راتبي الشهري لأكثر من ست اشهر.

لم تكن تلك المشكلة إنما كانت المشكلة في عدم إلمامي بطريقة التشغيل واستعمال الجهاز، فقد كان معقداً بالنسبة لي فهو يعمل على ثلاثة أنظمة للشرايط "ريل" و"كاسيت" و "كارتريج".. ومن فرط إصراري وحرصي على تسجيل تلك الحفلة اقترحت على صاحبة المحل "مدام رأفت" أن تختار لي أحد العاملين بالمحل وأنا أتكفل بكل مستلزماته شريطة أن يقوم بتسجيل الحفل حتى نهايته.. وقد كان ومنذ ذلك أصبح جهاز التسجيل والشرائط التي قام بتسجيلها من اعز مقتنياتي.

وكانت تعمل معي بالمنزل فتاة فلاحة صغيرة السن فطلبت منها إعداد "مزه" للضيوف... فسألتني ببراءة البسطاء "مزه يعني إيه يا بيه؟" وهذا يعكس الفوارق الطبقية التي كانت تسود المجتمع المصري آنذاك بالرغم من توجه ثورة يوليو الاشتراكي، فقلت لها دون ان اضع جهلها بالمزة في الاعتبار بأن "المزة" هي قطعة جبنه وقطعة "خص" وقطعة طماطم وخيار... وبعد فترة واثناء إنشغالي بالضيوف إذ أسمعها تناديني يابيه ، وعندما سألتها ماذا تريد قالت (المزة جاهزه يابيه)... وكانت تحمل صينية عليها طبق صغير وبداخله قطعة جبنه وقطعة خص وقطعة طماطم وقطعة خيار... فأدركت المفارقة... وقلت لها مازحاً ده كتير يا"كامله" وكان هذا إسمها فردت بكل بساطة معليش يابيه "كلو وخلو الباقي".

بعد تلك الليلة.. تكررت سهرات وسهرات واستطاع الكابلي بثقافته وسعة معرفته واطلاعه ومعرفته بالشخصية المصرية أن يملأ سماء وليالي القاهرة بصوته الرخيم وآهاته المؤثرة "ونحنحته" التي اصبحت جزءاً مكملاً للالحان العزبة الرقيقة ، كما اتسعت دائرة معارفه وأصدقائه ومعجبيه ، وكان يتردد علينا بشقتنا

في الطابق الخامس بعمارة "البيبون" خلف فندق "شبرد" بجاردن ستي العديد من الشخصيات الفنية والأدبية أذكر منهم الفنانة "ليلى نظمي" ، و"عبد المنعم إبراهيم" و"عبد الحميد الحديدي" و"فؤاد عمر" و"عبد الرحمن الخميسي" و"محمد نجم" و"الشيخ إمام" "واحمد فؤاد نجم" وآخرون.

ومن الأشياء التي لا أنساها أن "احمد فؤاد حسن" صاحب "الفرقة الماسية" والذي قام بكتابة النوتة الموسيقية لأول أغانٍ قام فنان سوداني بتسجيلها للتلفزيون المصري وكانت ثلاث أغان "حبيبة عمري" "حسنك فاح" وأغنية "لوتصدق" كان كلما يزورنا في الشقة لإجراء "البروفات" مع الكابلي ينظر إلى "المسجل الآكاي" ويقول "الجهاز ده يشغل إذاعة".. كما كان يطلق على شخصي كلما تبدأ تلك البروفات لقب المستشار الفني لسفارة السودان بالقاهرة.

كانت تلك تجربتي الأولى مع "النوته" الموسيقية، إذ قبلها تعودنا أن الفنان في السودان كان يهدر وقتاً طويلاً في المناسبات في "وزن" الآلات المختلفة في بداية كل أغنية وكان ذلك يسبب بعض المضايقات للمستمعين ويدخل الملل في النفوس ويقلل من التشوق لسماع الأغنية... وللأسف هذه "العادة" لاتزال موجودة ويمارسها الفنانين بالرغم في التقدم في مجال الآلات الموسيقية خاصة المبرمجة على الإيقاعات المختلفة وتخرج عدد كبير من معهد الموسيقى والمسرح.

وعلى الرغم من أن مصر كانت تعيش فترة الانكسار بعد النكسة فأن كل ما كان يدور في تلك الأمسيات من نقاش يتعلق بالنزاع العربي الإسرائيلي ، وكانت كل الاتجاهات تتفق حول عدم إمكانية الصلح أو الاعتراف أو السلام مع إسرائيل.. وكانت الأدبيات والأغاني والأشعار في تلك الأمسيات تعبر عن روح وشخصية مصر "عبد الناصر" ، خاصة عندما كان "الشيخ إمام" يشدو في تلك الأمسيات بالرثائية الحزينة لعنوان الثورة في ذلك الوقت "جيفارا"..

آخر خبر في الجرايد والراديوهات

وفي القهاوي والنوادي والبارات

ويمتد حبل "التريقة" والتعليقات

لكن اكيد.. أكيد.. جيفارا مات !

كنت أستمع إلى تلك القصيدة من الشيخ إمام بصوته المبحوح وهو يرتدي النظارة السوداء ولا يرى ما أمامه، ولكنه كان يتساوى معنا بنفس القدر في الإحساس بالمعاني العميقة لكلمات تلك القصيدة والتي كانت تجسد النضال والثورة بصورة أممية ، جعلت من "جيفارا" شخصية تعيش في قلوب الجماهير في العالم الثالث.

وكانت تلك الليالي التي كان الفنان الكابلي عنصراً هاماً فيها من أجمل ليالي العمر خاصة وأنها إستطاعت أن تدخل على ليالي القاهرة التي كانت تتسم بالهزيمة والحزن بعضاً من التغيير وكثيراً من الفرح والسمو في آفاق الكلمة واللحن والغناء والطرب ، وقد جمعت بين النخبة الفنية المصرية حول فنان سوداني لأول مرة بذلك الإعجاب والاهتمام.

ولذلك فإن زيارة الفنان الكابلي إلى القاهرة التي جاءت صدفة ولم يكن يتوقع أن تستمر لأكثر من يومين للعودة مرة أخرى إلى السودان... لكنها إستمرت قرابة الستة أشهر وكانت تلك الفترة من الاسباب التي دفعت الكابلي للإستقالة من الخدمة المدنية والتفرغ للفن والإبداع.. ولذلك كان الاخ عبد المجيد الصاي قد أسدى لي معروفاً لن أنساه لانه عرفني بالأخ "الكابلي"... إلا أن الخطوط السودانية قد أسدت للفن السوداني والمعجبين بالفنان "الكابلي" معروفاً حينما لم تلبي رغبته في السفر للسودان في طريق عودته من بيروت.



خواجة من السودان



عندما كنت اعمل بسفارة السودان بنيروبي تعرفت على الصحفي البريطاني الأصل والكيني الجنسية "ايريك مارسدن" الذي كان يرأس تحرير صحيفة "الإستاندرد" اليومية ، والتي كانت تصدر في نيروبي وكانت نيروبي في الستينات تعتبر "بيروت" إفريقيا نسبة لمركزها الإعلامي الهام وثقلها السياسي في القارة.

وكانت قضية الجنوب بالنسبة للسودان هي القضية الأولى في علاقاته مع الدول الأفريقية، إذ كانت دول شرق إفريقيا الثلاث كينيا ويوغندا وتنزانيا تتعاطف مع مطالب أبناء جنوب السودان في خلافهم مع حكومة الخرطوم ، كما أنها كانت تقدم لهم المساعدات المختلفة وكان في مقدمتها المجال الإعلامي الذي كان متعاطفا معهم بصورة تامة.

ولذلك فقد سبب ذلك الموقف عبئاً كبيراً على السفارات السودانية بتلك الدول ، بل إن ذلك كان أحد الأسباب الرئيسية لإقامة سفارات مقيمة بتلك الدول. شملت أيضاً تشاد وأفريقيا الوسطى وزائير ،وكانت تقع على عاتق تلك السفارات إلى جانب رصد مختلف الأنشطة التي تتعلق باتصالات السياسيين من أبناء الجنوب في زياراتهم لتلك الدول ، كذلك محاولة التصدي للحملات الإعلامية الشرسة التي كانت تقودها الصحف ضد حكومة الخرطوم.

وتأتي صحيفة "الإستاندرد" الى جانب صحيفة "الديلي نيوز" في مقدمة تلك الصحف ومن هنا ، جاء اهتمامنا في السفارة بخلق علاقات مع المسئولين في

الصحيفتين وتمكنت من إقامة علاقة خاصة مع المستر "مارسدن" وأسرته مما ساعد على تخفيف هجومه على السودان ، وعلى فتح صفحات صحيفته للرد على الهجوم على السودان.

وعندما تركت العمل بنيروبي ونقلت للعمل بالقاهرة في عام ١٩٦٨م، قامت الجامعة العربية بدعوة عدد من الصحفيين في الدول الأفريقية لزيارة منطقة الشرق الأوسط للوقوف على آثار عدوان "حرب ١٩٦٧م" على الدول العربية في مبادرة إعلامية لكسب الرأي العام الأفريقي ، ولفضح الاعتداء الإسرائيلي ، خاصة بعد أن وقفت منظمة الوحدة الأفريقية موقفاً مؤيداً للدول العربية ، والذي اعتبر بداية فك الارتباط بين تلك الدول وإسرائيل وخطوة أولى نحو التعاون العربي الأفريقي.

وكان المستر "مارسدن" من ضمن الصحفيين الذين وجهت لهم تلك الدعوة ، وقام بإرسال برقية لشخصي بواسطة السفارة يخطرني فيها بأنه سيكون في القاهرة في أحد أيام شهر يونيو ١٩٦٨م، ولكنه لم يوضح لي خط الطيران الذي سوف يصل به إلى القاهرة. وقد صادف أن ذلك اليوم كان يوم الجمعة وهو عطلة رسمية في مصر ، ولقد فشلت في الاتصال به لمعرفة خط الطيران وموعد وصوله ، ولذلك اتصلت بمعظم فنادق القاهرة المعروفة وتركت له رقم تليفوني بالمنزل لكي يتصل بي فور وصوله.

وكنت اسكن في شقة متواضعة في "جاردن ستي" وكان يعمل معي"طباخ" مصري طاعن في السن يدعى "عم عبده" ، وكان يجيد شيئين : طبخ الطعام ، والحديث المتواصل يعني "أبو كلام". وفي ذلك اليوم انتظرت بالمنزل حتى موعد الصلاة املاً في أن يتصل بي المستر "مارسدن" وعندما حان موعد صلاة الجمعة شرحت "للعم عبده" إنني أتوقع تلفون من "خواجة" لا يتكلم اللغة العربية.. سوف

يتصل من أحد فنادق القاهرة، وطلبت منه في حالة اتصال الفندق بمنزلي أن يعرف اسم الفندق ورقم تلفونه ورقم غرفة "الخواجة". كررت له ذلك اكثر من مرة ، وأكد لي بأنه فهم المطلوب وتركت المنزل وذهبت إلى أداء صلاة الجمعة.

فور وصولي للمنزل عقب الصلاة قام "عم عبده" بفتح باب الشقة ووجدته منشرح الأسارير، ودار بيننا الحوار التالي :

- إيه يا عم عبده إنت مبسوط كده ليه؟

- الخواجة ضرب يا بيه !

- وأين هو؟

- ما أعرفش !!

- ليه؟

- لان بتاع الاوتيل ضرب تلفون وقال في خواجه عاوز يكلمك ، ولما قلت له خليني اتكلم معاه رفض "فأفلت" السكه في وشه!

- بس ياعم عبده ده خواجه وانا قلت ليك انه ما بيعرفش يتكلم عربي !

فرد عليّ بكل بساطة:

- ليه هو الخواجة مش من السودان؟

عند ذلك أدركت أن القضية "خسرانة" ولا فائدة من متابعة التحقيق وان هنالك بعداً لغوياً وحضارياً وعنصرياً بيننا، واحترت ماذا أفعل "أضحك" أم "أبكي" !. فضاع مني "مارسدن" كما ضاعت "القضية" العربية لفشل العرب في مخاطبة الغير باللغة التي يفهمونها.



فعلاً جمهورية ديمقراطية



في أوائل يونيو عام ١٩٦٩م نقلت من القاهرة إلى يوغسلافيا وكانت تلك أول تجربة دبلوماسية بالنسبة لي في الدول الشرقية وعلى الرغم من أنها كانت قصيرة لكنها كانت مفيدة.. وجاء ذلك النقل بعد أن قامت مايو بتطبيق سياسة "التطهير" في صفوف الخدمة المدنية بعد أن سبقتها أكتوبر في هذا الاتجاه الذي دمر الخدمة المدنية وأدى إلى هجرة العقول والكفاءات ، وإلى ظلم في حقوق العاملين في الخدمة المدنية عندما وصلت إلى بلغراد ، كان قرار إحالة السفير هناك السيد "احمد مختار" رحمه الله للمعاش قد صدر.. لذا أصبحت القائم بالأعمال بالإنابة.

وبعد إحالة السفير إلى التقاعد صدر قرار بسحب شاغلي الوظائف الحسابية والإدارية من السفارات تقليلاً للنفقات ، وبما أنني كنت الدبلوماسي الوحيد بالسفارة فقد وقعت على رأسي أعمال السفارة الحسابية والكتابية والقنصلية إلى جانب الالتزامات الدبلوماسية الأخرى.. ولكن كانت هنالك شخصية هامة أخرى في السفارة لا تشغل منصباً معيناً ولكنها تعتبر أهم ما تعرف به سفارة السودان في بلغراد...

كانت تلك الشخصية الاعتبارية هي السيارة "الجاغوار" التي يستعملها السفير أو من ينوب عنه في الأعمال الرسمية.. و"الجاغوار" هي السيارة التي تصنع في بريطانيا والى جانب "الروزرويس" تعتبر من سيارات الطبقة الراقية في بريطانيا

وفي العالم.. وما جعل تلك السيارة شخصية " مميزة " أنها كانت الوحيدة من نوعها في يوغسلافيا.

كانت سفارة السودان تقع في شارع رئيسي في مدينة بلغراد ، وكانت السيارة تقف دائماً أمام باب السفارة في انتظار سعادة السفير ، وكان المارة يقفون بصورة مضحكة أمام السيارة ينظرون بإعجاب ، بل بغرام وتيه إلى تلك السيارة الفاتنة التي تمثل الرفاهية الغربية ، مقارنة بالحياة الجادة والمتقشفة كغيرها من دول المعسكر الإشتراكي في يوغسلافيا.. مع أن يوغسلافيا في عهد "تيتو" كانت تعتبر دولة يصفها البعض بالانحلال أو الميوعة السياسية ، مقارنة ببقية دول المعسكر الاشتراكي.

وعندما يحين موعد استعمال السيارة ، فإن ذلك يحتاج إلى وقت حتى يتمكن السائق من إبعاد "المعجبين" و"المريدين" بتلك الفاتنة الساحرة التي تقف أمام السفارة السودانية ، لأن البعض ينتظر أن تفتح أبواب السيارة حتى يرى كيف تبدو مفاتنها من الداخل؟ ويسرع آخرون لالتقاط بعض الصور التذكارية أثناء تلك الفترة.

كنت انظر لتصرفات اليوغسلاف هذه باندهاش واستغراب.. كيف يتعامل أولئك البشر مع "سيارة" أو مع غيرها من المصنوعات الغربية من الآلات ، والمأكولات والمشروبات والملبس؟! ولكنني تأكدت أن سبب ذلك هو الحرمان ، وأن تلك الدول كانت تدفع ثمناً باهظاً لكي تقف على أرجلها وتحقق التطور التي تطمح إليه للحاق بركب الدول الغربية إبان الحرب الباردة ، والتنافس بين المعسكرين : الشرقي والغربي.

وأيقنت أيضا أن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن تسلكه دول العالم الثالث لتحقيق الاستقلال الاقتصادي بعد الاستقلال السياسي ، وأنه بقدر ما

قدمت تلك الدول من تضحيات في حربها من اجل التحرير السياسي ، فإنه يتوجب عليها أن تقدم تضحيات من نوع آخر لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والتنمية الشاملة لشعوبها ، لكي تلحق بحركة التقدم والنماء العالمية.

وفجأة أصيبت "الجاغوار" الفاتنة بوعكة ألزمتها "الجراج" وفشلت كل محاولات "الأطباء" المحليين في علاجها.. وعلمت أن هذه السيارة لا تتوفر لها إمكانيات علاج في يوغسلافيا ، وإنها عندما تصاب بمثل تلك "الوعكات" فترسل إما إلى "أثينا" باليونان ، او الى "فيينا" في النمسا.. وبما أنني كنت الدبلوماسي الوحيد بالسفارة كقائم بالأعمال وقنصل وملحق ثقافي وتجاري فأبرقت رئاسة الوزارة عن العزيزة "الجاغوار" فجاءتني التعليمات بإغلاق السفارة لمدة ثلاثة أيام ومرافقة "الجاغوار" للعلاج في فيينا.

وفي صبيحة اليوم التالي ، ونحن نهم بالمغادرة تذكرت السكرتيرة بأنني لم استخرج تأشيرة دخول للنمسا.. فاتصلت بسفارة النمسا وطلبت السفارة مذكرة رسمية، وأكدت أنها سوف تمنح التأشيرة في نفس اللحظة.. وبما أن السفارة كانت تقع في بداية طريق "الأوتوستراد" إلى النمسا فقررنا أن نتوقف هنالك للحصول على التأشيرة ثم مواصلة الرحلة إلى فيينا.

وعند وصولي إلي سفارة النمسا قابلتني موظفة في مكتب الاستقبال ، واستلمت مني الجواز ومعه المذكرة الرسمية من السفارة وطلبت مني أن انتظر دقائق حتى تتمكن من تكملة الإجراءات لمنحي التأشيرة. وبعد دقائق عادت الى مكتبها وأفادتني بأنها على استعداد لمنحي التأشيرة ولكن المذكرة الرسمية لا تحمل ختم السفارة ، فطلبت مني أن اذهب للسفارة واضع عليها الختم ثم أعود لكي تمنحني التأشيرة.

وعندها تذكرت أنني أحمل معي أختام السفارة لأن بعض السودانيين في فينا طلبوا مني إحضارها لكي أقوم بتجديد جوازاتهم حتى أوفر عليهم مشقة الحضور

إلى بلغـراد ، كمـا إنني رأيت إنهـا قـد تكون أكثـر امـاناً في حـوزتي من أن أتركـهـا بالسـفـارة في بلغـراد ، خـاصـة وأنه لا يـوجـد مـسـؤول سـودانـي بالسـفـارة خـلاف شخصي.

فما كـان مني إلا أن فتحت حقيبتي وأخرجت الأختام وطبعت الختم المطلوب على المذكرة وسلمتهـا لموظفة الاستقبـال ، فنظرت إليّ وكررت قـائلة : لقـد طلبت منك أن تذهب إلى السفـارة فلم اجعلهـا تكمل فقلت لهـا ببسـاطة أنا السـفـارة ، وأخرجت لها بطاقتي الرسميـة الصـادرة من وزارة خـارجيـة يوغسـلافيا ، وعليـهـا صـورتي ووظيفـتي "القـائم بأعمـال سفـارة السـودان". فبدأ على الموظفة المسكينة الدهشة والاستغراب والذهول.. فصارت تنظر إلى البطاقة.. والى المذكرة.. والى الجواز.. وإلى شخصي الذي يقف أمامهـا ، وهى ترى أيضـا السيـارة "الجـاغـوار" تقف أمام السفارة.

استغرق ذلك المشهد دقائق ، ذهبت مرة أخرى إلى الداخل.. ثم عادت وسلمتني بهدوء وببطء شديد الجواز بعد أن طبعت فيه تأشيرة الدخول، ونظراتها تؤكد أنها بين مصدق ومكذب ما كانت تراه أمامهـا من حقـائق.. وواضح أنها لم تـواجه مـثل هذه التجربة من قبل.

وعندمـا مـددت يدي لاستـلام الجـواز قـامت بإلقـاء نظرة أخيـرة إليه فـرأت في صفحتـه الأولى اسم الدولة ، وقـد تغيـر من "جـمـهورية السـودان" بعـد مـايو إلى "جمـهـورية السـودان الـديمقـراطيـة".. فـقـرأتهـا بصـوت عـالٍ ، ثم نظـرت إلى نظـرة أخيـرة ، وقالت في حالة تعجب وكأنها وجدت المفتاح لذلك اللغز : "نعم إنها فعلا جمهورية ديمقراطية".



حوار الطرشان




السيد مصطفى امين مدير وكالة سونا الأسبق

عندما نقلت للعمل بسفارة السودان ببلغراد في عـام ١٩٦٩م ، كـان الرئيس الراحل "تيـتـو" يحاول أن يتفادى الصدام مع روسيـا ، ويجـري "غزلاً " سرياً مع الدول الغربية لبناء يوغسلافيا الحديثة بعد أن دمرتها الحرب ، وفي نفس الوقت الحفاظ على يوغسلافيا موحدة سياسياً على الرغم مما كانت تحتضنه من اختلافات عرقية ودينية ، وفوق كل ذلك بذل جهوداً مقدرة لأن يلعب دوراً هاماً ومؤثراً في دول العالم الثالث ، والتي عرفت بمجموعة دول عدم الانحياز ، وكان " تيتو " إلى جانب " سوكارنو ونهرو وعبد الناصر " أحد مؤسسي تلك المجموعة في مؤتمر "باندونق" التاريخي الشهير.

وكانت مدينة بلغراد عاصمة يوغسلافيا في ذلك الوقت في طور التكوين كعاصمة اتحادية ، وقد قامت الدولة بجهود مكثفة في هذا الصدد من تشييد الدور الحكومية والمرافق العامة والخدمات ولكنها على الرغم من ذلك ، كانت تعاني من نقص في بعض المجالات كالمنازل الخاصة ، والفنادق ، وأماكن اللهو والترفيه ، وكإحدى دول منظومة "الكوميكون" الشيوعية كانت الدولة تسيطر على كل شيء.

وعند وصولي إلى بلغراد وفرت لي الدولة سكن مؤقت في فندق " متروبول " حتى تخصص لي أحد المنازل الحكومية وكان الفندق الحكومي الوحيد في العاصمة الذي يعتبر من فنادق الخمسة نجوم في ذلك الوقت ، وكانت تتبع للفندق عدد من عربات الأجرة "التاكسي" الحكومية لتنقلات نزلاء الفندق من الأجانب حتى تتم مراقبة تحركاتهم.

وكانت بلغراد مدينة جميلة حديثة أجادت الدولة في تخطيطها بصورة علمية مدروسة ، وكانت المباني الحديثة تتميز بالجمال والتنسيق وحسن التشييد الذي عرف به اليوغسلاف ، خاصة الجسور التي أصبحت من أحد معالم بلغراد ، ونسبة لأزمة السكن فقد حرصت الدولة على إقامة المنتزهات العامة بصورة جميلة من تنسيق في الأشجار والأنواع المختلفة من النباتات والزهور كأماكن للترفيه البرىء للعائلات.

تعتبر يوغسلافيا من أوائل الدول الاشتراكية التي أنشأ السودان معها علاقات مميزة والتي بدأت في عهد الحكم العسكري الأول في السودان أبان حكم الرئيس الراحل إبراهيم عبود. ولقد شهد الجميع بأن تلك العلاقة أدت إلى مساهمة يوغسلافيا في عدد من المشاريع الاقتصادية والتجارية والعمرانية التي لا تزال بقاياها موجودة حتى اليوم ، قبل أن تتدهور علاقاتها مع السودان كتدهور علاقاته مع بقية دول المعسكر الاشتراكي ، بعد أحداث يوليو ١٩٧١م، ولعل أهم تلك المساهمات إنشاء الخطوط البحرية السودانية والتي استطاعت أن تنافس أعرق الخطوط البحرية في عدد من الدول التي سبقت السودان في هذا المجال.

طالت فترة بقائي بذلك الفندق قرابة الثلاث أشهر وأنا في انتظار تخصيص السكن الحكومي لإقامتي ، وفي أثناء هذه الإقامة زارني الأخ والصديق الصحفي المصري يوسف الشريف ،ولذي تعرفت عليه أثناء عملي بالقاهرة وجمعت بيننا

صداقة ومحبة لا تزال قائمة حتى اليوم ، كذلك ارتبط الأخ يوسف بالعديد من السودانيين الذين وجدوا في دماثة خلقه ، وطيب معشره ، وخفة دمه ، ومحبته الصادقة وإعجابه بالسودان والسودانيين خير صديق ، وقد أقام معي أثناء تلك الفترة بالجناح المتواضع الذي خصص لإقامتي في فندق " متروبول ".

كما زارني أيضاً الأخ والصديق الصحفي السوداني المعروف " مصطفى أمين " الذي كان في طريقه إلى نيويورك للاشتراك في دورة تدريب صحفية أقامتها الأمم المتحدة آنذاك ، وقد أقام معي أيضاً بجناحي المتواضع بالفندق. ولقد سبق وأن زارني الأخ مصطفى في دار السلام بتنزانيا في مهمة صحفية بعد أن أطاح انقلاب الجنرال " عيدي أمين " بحكم " ملتون أبوتي " في يوغندا ، وكانت تنزانيا قد أعلنت عدم اعترافها بانقلاب عيدي أمين ، واعتبرت ملتون أبوتي الرئيس الشرعي ليوغندا ، وقد اتخذ السودان آنذاك موقفاً مماثلاً لموقف تنزانيا من انقلاب عيدي أمين.

وقد عقد أبوتي مؤتمراً صحفياً فور وصوله إلى دار السلام هاجم فيه انقلاب عيدي أمين لإطاحته بالحكومة الديمقراطية في كمبالا ، ودعا فيه الدول الأفريقية والأجنبية لمقاطعته وإدانته ، وكان رجال الصحافة المحلية والأجنبية يوجهون إليه مختلف الأسئلة ، وكان الأخ مصطفى أمين قد أمطر أبوتي بالعديد من الأسئلة الهامة والجوهرية للدرجة التي لفتت أنظار أبوتي إليه وبدأ يركز على أسئلة الأخ مصطفى بصورة خاصة ، في الوقت الذي كانت ردوده على أسئلة الصحفيين الأخرى مقتضبة وسريعة ، وفي إجابته لأحد الأسئلة نظر إلى الأخ مصطفى ولاحظ أنه لم يكن مصغياً لإجابته وغير منتبهاً.. فسأله فجأة باللغة الإنجليزية.. أنت.. أنت وكان يشير إليه ، وعندما التفت مصطفى إليه قال له ما أسمك؟ فما كان من الأخ مصطفى إلا أن رد عليه بهدوء لا يخلو من خبث : أسف

سيدي الرئيس لكن أسمي " أمين " وبعد أن أبدى أبوتي الدهشة أضاف مصطفى قائلا : أنا مصطفى أمين من السودان وليست لي علاقة قربى بعيدي أمين.. فانفجرت القاعة بالضحك فما كان من أبوتي إلا أن شاركهم الضحك أيضاً

ونعود إلى زيارة الأخ مصطفى إلى بلغراد فبعد يوم من وصوله وإقامته معي أخطرت إدارة الفندق كل النزلاء بضرورة مغادرة الفندق بعد يومين لأنه قد خصص لإقامة الدورة الرياضية السنوية للمعاقين من " الصم والبكم " في العالم والذي قررت يوغسلافيا استضافته ، وعندما أخطرت إدارة الفندق بأنني لا أستطيع الإخلاء لأنني دبلوماسي وأقيم بمعرفة وموافقة وزارة الخارجية.. أصرت الإدارة على قرارها ما لم يصلها استثناء خاصة بالنسبة لي من وزارة الخارجية.

فسارعت إلى وزارة الخارجية صبيحة اليوم التالي وشرحت لهم موقفي فكانت استجابتهم سريعة وسلموني خطاباً موجه لإدارة الفندق لاستثنائي من ذلك القرار وثاني يوم بدأت وفود الدورية الرياضية من جنسيات مختلفة تصل للإقامة بالفندق وكنا وأنا وضيفي مصطفى الوحيدان اللذان يسمعان وينطقان بين كل نزلاء الفندق وكانت تجربة لن تنسى.

ففي الوقت الذي كانت فيه "الأغلبية الصامتة" الخرساء تتكلم وتتفاهم بلغة " الإشارة " المعروفة بصورة سلسة وطبيعية كنا أنا وهو نتحدث بطلاقة في ردهات الفندق وأماكن الطعام وكنا نبدي الإعجاب ونرى بين تلك الأغلبية الصامتة من هو مستعد للمشاركة في منافسات كرة القدم ، وكرة اليد ، وتنس المضرب ، وتنس الطاولة الخ.. من أنواع الرياضات المختلفة ولكن السؤال الذي لم نجد له إجابة هو كيف كان "حكام" هذه المنافسات وهم أيضاً من الأغلبية يديرون تلك المباريات..!!!

وظل الحال كذلك ثلاثة أو أربعة أيام وفجأة طلب مني الأخ مصطفى أن نبحث عن سكن آخر غير ذلك الفندق مهما كانت النتائج فأبديت الاندهاش لذلك

الاقتراح ولكن الأخ مصطفى بهدوئه الذي يميل إلى البرود أحياناً قال لي بحزم وجدية إننا إذا انتظرنا أياماً أخرى بين هؤلاء الصم والبكم فإننا إما سوف نفقد قوانا العقلية أو مقدرتنا على الكلام والسمع ، وأردف مردداً المثل الذي يقول : " من عاشر قوماً أربعين يوماً صار مثلهم ".

وبعد تفكير قصير قررت الموافقة على اقتراح الأخ مصطفى وانتقلنا إلى فندق من مستوى الثلاث نجوم.. ولكننا شعرنا إننا عدنا إلى طبيعتنا من جديد ، وصرنا نتحدث بطلاقة ونسمع بوضوح وكانت تلك التجربة تعتبر الفريدة من نوعها التي عايشتها أثناء عملي الدبلوماسي. وإن السمع والنطق نعم من نعم الله خص بها الإنسان من دون بقية المخلوقات، ولكن الإنسان لايشعر بتلك النعمة الإ حينما يفقدها.



الهروب من القصر





مع الصديق مهدي مصطفى الهادي

عندما قامت ثورة مايو بالسودان في ٢٥ مايو ١٩٦٩م ، كنت قنصلاً للسودان بالإسكندرية ولكن مع وقف التنفيذ ، وكان ذلك بسبب الود المفقود آنذاك بين المرحوم الشيخ علي عبد الرحمن الذي كان وزيراً للخارجية مع المرحوم عبد الكريم ميرغني الذي كان سفيراً للسودان بالقاهرة، وكان شيخ علي السياسي المحنك يعلم خطورة تواجد عبد الكريم بالقاهرة ، وعلي مقربة من السودان خاصة وقد اكتسب أرضية سياسية عندما كان وزيراً بحكومة أكتوبر ، وقد أصبح كذلك من السياسيين المقربين للرئيس عبد الناصر بعد أن أصبح سفيراً للسودان بالقاهرة.. ولأن اختياري لأكون القنصل بالإسكندرية قد تم بناءً على توصية ورغبة السفير فقد رأى "شيخ علي" تجميد ذلك القرار ، وذلك عن طريق تجميد ميزانية القنصلية.

وهكذا فقد كنت أنا الضحية في صراع الأقوياء.. لأن شيخ علي اعتبرني طرفاً في ذلك الصراع عندما وصله ما يفيد بأنني قد اجتمعت باتحاد الطلبة السودانيين بالإسكندرية، وقد تناول الاجتماع تدهور الأوضاع السياسية في السودان ، ولقد تحدثت في ذلك الاجتماع مشيراً إلى احتمال وقوع انقلاب

عسكري نتيجة لتردي تلك الأوضاع ، فقام باستجوابي شخصياً بدار السفارة عندما كان في زيارة للقاهرة ، وكان ذلك قبل قيام ثورة مايو بفترة قصيرة، وقد كانت للأحزاب عيون وآذان في الأوساط الطلابية في القاهرة.

ولذلك فعندما قامت ثورة مايو كنت من أوائل الذين استبشروا بها خيراً ، وقد ازداد ذلك الشعور بعد أن رأيت عدداً من المثقفين وأصحاب الفكر والكفاءة والخبرة الوطنية قد احتلوا مواقع هامة في الدولة بعد قيام ثورة مايو ، وبما أنني كنت من أنصار عبد الناصر فقد رأيت في التقارب بين قادة ثورة مايو والنظام المصري آنذاك بادرة خير بالنسبة للبلدين ، ولقد اعتقدت مخلصاً أن ثورة مايو سوف تمهد الطريق أمام إحداث التغيير المنتظر في خارطة السودان السياسية ، خاصة التي تتعلق بأسلوب الحكم والنظرة الحزبية الضيقة والتزامها المفرط بالطوائف الدينية التي جمدت حركة التغيير والتطوير في تلك الأحزاب.

وبعد اندلاع ثورة مايو بأيام تقرر نقلي فجأة لأكون قائماً بالأعمال بسفارة السودان بيوغسلافيا، ولقد نفذت ذلك القرار في أقل من ثمانية وأربعين ساعة ، واعتقد أن ذلك يعتبر وقتاً قياسياً في تاريخ الوزارة لتنفيذ النقل من بلد إلى آخر ، وكان السبب وراء ذلك أنني كنت شبه عاطل بالقاهرة بعد تجميد الوزير للقنصلية بالإسكندرية وثانياً لأنني كنت أتشوق للعمل بإحدى الدول الاشتراكية.

لكن تلك الفرحة لم تدم طويلاً.. فلم أكد استقر في بلغراد لشهور قليلة حتى وصلني قرار بنقلي فوراً إلى الخرطوم.. ولما كانت تلك الفترة قد شهدت بداية ما عرف "بالتطهير السياسي" في الخدمة المدنية ، وبما أنني لم اكمل الفترة المتعارف عليها للعمل بيوغسلافيا فقد أيقنت أن وراء هذا النقل المفاجئ ضباب كثيف ، وأنني لابد قد أصبحت من "المطهرين".

وحـزمت أمـري وتوجـهت وكلي توجس إلـى السـودان ، وقد دارت برأسـي أفكار مختلفة وبدأت استعيد من الذاكرة مسيرة عملي الماضيـة لعلي أجد تفسيراً لقرار استدعـائي خـاصـة ولم يكن في أدائي مـا يبـرر لومي أو مـحـاسبـتي بل كنت واثقاً بأنني أديت واجبي الوظيـفي على الـوجه الأكمـل وبالقـدر الـذي يسـتحق التقـدير والإشادة.

وفي اليـوم التـالي لوصـولي الخـرطوم ذهـبت إلى إدارة الشـئون الإدارية بالوزارة للاستفسار عن سبب قرار نقلي المفاجئ للخرطوم.. وازدادت حيرتي.. وبدأت شبه متـأكد بأن مـا كنت أتخليه قد حدث فـعـلاً عندمـا اخـبـروني بأن قـرار نقلي سـري للغاية ويتوجب علي مقابلة السيد الوكيل شخصياً لمعرفة السبب.

وعندمـا ذهـبت لمقـابلة السـيـد الوكيل وكـان آنذاك الصـديق السـفـيـر عـبـد الله الحـسن كنت قد تهـيـأت للأسـوأ وكـدت أتوجـه إلـى المنزل بدلاً من أن أتوجـه إلـى مكتب السيد الوكيل.. ولدهشتي فقد استقبلني الأخ عبد الله استقبالاً حسناً بل كان استقبـاله فـوق العادة ورحب بقدومي إلـى السودان ، ثم فسـر لي ذلك اللغـز ، وقـال لي : إنـه قد تقـرر نقلي للعمـل في سكرتارية مـجلس قـيـادة الثورة بالقـصـر الجـمـهـوري ، وطلب مني أن أتوجـه إلى هـنـاك لمقـابلة المرحـوم الرائد أبو القـاسم هاشم سكرتير مجلس قيادة الثورة.

وفي الظروف العـادية فإن مثل هذه الأخبـار قـد تشرح القلب ، وتجعـل الشـخص يشـعـر بنوع من الزهو أو التمـيـز ، ولكنهـا زادتني حيـرة وارتبـاكاً .. وعلى الرغم من أنني كنت على مـعـرفة شخصية ببعض أعضاء مـجلس قيادة الثورة من قبل ، فـقد كان المرحـوم الرائد هـاشم العطا دُفـعتي بالأهليـة الوسطى ، كمـا كـان الرائد مـأمون عوض أبوزيد وزين العابدين محمد احمد زملاء ودفعة شقيقي عبد العزيز دياب ، وكـانت تجـمـعني مع المرحـوم المقـدم بابكـر النور عـلاقـة شـخـصـيـة وصـداقـة

"أمدرمانية" ، ولكن كل ذلك لا يعني أن هنالك علاقة بيني وبين ثورة مايو ، لأن هذه المواقع عادة تسند إلى من تثق قيادة الثورة بهم ، وتعتمد عليهم.. ولكن هذا لم يكن ينطبق على شخصي.

وذهبت إلى القصر لمقابلة المرحوم الرائد أبو القاسم هاشم - وهو رجل هادئ متزن- فاستقبلني بحرارة وأخبرني بأنه قد تم اختياري والزميل مهدي مصطفى الهادي من وزارة الخارجية للعمل بسكرتارية مجلس قيادة الثورة ، ولقد أدخل ذلك بعض الطمأنينة إلى قلبي ، ولكنني لم أجد الإجابة لماذا وقع الاختيار على شخصي والزميل مهدي دون الآخرين؟. وفي نهاية المقابلة طلب مني مقابلة المقدم بابكر النور عضو مجلس قيادة الثورة ليطلعني على المهام التي سوف توكل لي.

لقد كانت لي علاقة صداقة سابقة بالمقدم بابكر النور، وقد قضيت معه إجازة أبان فترة عملي بكينيا عندما كان قنصلاً للسودان بكمبالا، ولذا فلقد كانت مقابلته ذات طابع رسمي وشخصي، فقد رحب بي وبالأخ مهدي وتحدث عن أهمية وجود بعض الدبلوماسيين الأكفاء لمساعدة العسكريين في بعض المواقف الحساسة ، وكنت متفائلاً بمستقبل الثورة ومستقبل السودان ، وكان يتحدث بهدوء والابتسامة لا تفارق وجهه أبداً.. ثم أطلعني بعد ذلك على مهمتي سوف تكون إشراف ومتابعة العلاقات بين مصر والسودان وليبيا.

وبدأت عملي بروح عالية وتوجه "ثوري" صادق وآمال عراض لتحقيق المهمة التي ألقيت على عاتقي وقد شملت مهامي الإشراف على العلاقات بين مصر وليبيا والسودان وإعداد أوراق العمل ومرافقة الوفود المختلفة إلى القاهرة وطرابلس التي تتعلق بالعمل الثلاثي.

وكان ذلك في بداية الثورة التي كانت في "طفولتها" البرئية ، ولذا فإن مناخ العمل كان بسيطاً ومتواضعاً لا مراسم أو أجهزة أمن تسود بين الجميع المودة

والاحترام ، وكان أعضاء مجلس قيادة الثورة يتعاملون بكل لطف واحترام مع الجميع.

واستمر الوضع كذلك عدة شهور.. ولكن سرعان ما بدأت تظهر بوادر الخلافات والإنشقاقات بين أعضاء مجلس الثورة.. وبدأت منتديات الليل في الخرطوم تهمس بأصوات عالية عن تلك الخلافات وعلى الرغم من إننا لم نلاحظ شيئاً من ذلك القبيل أثناء ساعات العمل ، إلا أن الإشاعات أصبحت تتداول داخل أروقة القصر.. إلى أن جاء ذلك اليوم عندما طلب منا المقدم بابكر النور أن نحضر لمقابلته أنا والزميل مهدي مصطفى.

وعندما دخلنا إلى مكتبه قام واغلق الباب وراءنا وبدأ وهو جالس أمامنا ساهماً مهموماً.. ولكن سرعان ما عادت إليه ابتسامته المعهودة ، وبدأ يخاطبنا – بأنه يتحدث معنا بصفته الشخصية كصديق – وقال : إن الثورات كثيراً ما تتعرض لصعاب وخلافات في صفوفها.. واستطرد قائلاً : بأنه يشعر أن ذلك بدأ في صفوف أعضاء ثورة مايو، وقد يتطور.. ولذا وبما أننا غير عسكريين ، فإنه يرى من الأنسب لنا أن نعود إلى وزارتنا تفادياً لما قد يحدث..

وخرجنا من مكتبه وقد ارتسمت على وجهنا الدهشة من ذلك الحديث الصريح المفاجئ ومن من؟ من أحد أعضاء مجلس الثورة وكدنا لا نصدق ما سمعناه ، وبدأنا على الأقل ننظر إلى مباني القصر في ذلك الصباح – والتي حتى قبل ذلك اللقاء كانت من المناظر المريحة للأعصاب – بدأت وكأن أشباحاً وأصواتاً تهمس في صمت رهيب ومخيف من جوانبه المختلفة..

وكان المرحوم السفير عبد الكريم ميرغني بالنسبة لي وللأخ مهدي بمثابة الأب الروحي ، وكنا نستشيره في معظم الأحيان ، فقررنا أن نذهب إليه ونناقش معه ما قاله لنا المقدم بابكر النور.

ولما أخبرناه بما حدث لم يبد أي اندهاش ، وأثنى على اقتراح المقدم بابكر النور وطلب منا العودة إلى وزارة الخارجية.

وعندما غادرنا منزل الأخ عبد الكريم، قلت للأخ مهدي إنني قررت العودة غداً إلى وزارة الخارجية.. ولكن الأخ مهدي بدا صامتاً ثم أضاف إن عبد الكريم ميرغني قد يكون منحازاً لصديقه عبد الخالق محجوب في موقفه من ثورة مايو ، على الرغم من إنه غير شيوعي ، وأضاف بأنه لن يترك القصر لأنه ارتبط بالرئيس نميري وصار " كلوته"، كما كان يحلو للأخ مهدي أن يتحدث بهذا الأسلوب الساخر عن تلك العلاقة.

أما أنا فذهبت في صبيحة اليوم التالي إلى وزارة الخارجية وقابلت السيد الوكيل عبد الله الحسن وذكرت له عن رغبتي في العودة إلى صفوف الوزارة ، فأخبرني بأنه قد علم بذلك من المقدم بابكر النور ، وطلبت منه أن انقل إلى سفارة بالخارج فقال "للأسف لا توجد وظيفة خالية حالياً إلا " بدار السلام " بتنزانيا ، فوافقت على الفور لقبول تلك الوظيفة.

ولو كنت قد خيرت آنذاك إلى أي سفارة أريد أن انقل لها لن يكون اختياري غير دار السلام ، لأن دار السلام في تلك الفترة كانت من اكثر العواصم الأفريقية نشاطاً وحركة ، وكانت مقر حركات التحرير الأفريقية التي كنت أتابع تطوراتها ، وكانت فعلاً تجربة مفيدة وغنية وثرية عن القارة الأفريقية وقضاياها المختلفة ، وقد كانت بذلك بداية لاهتمامي بالبعد الأفريقي للهوية السودانية والذي أدى منذ استقلال السودان إلى إشعال قضية جنوب السودان حتى اليوم.. كما أدى إلى تبعثر هوية السودان وإلى فقدانه القدرة على احتواء أطرافه في نسيج عرقي وديني وقبلي فعّال ، أسوةً بغيره من الدول التي أراد لها الواقع أن تكون بذلك التنوع.. ولو أن السودان تمكن من احتواء ذلك التنوع وتناقضاته لكانت مكانة السودان غير ما نراها اليوم من حروب وفقر وخلافات وضياع.

ونعود الآن إلى البداية لمعرفة التفسير وراء اختياري أنا والأخ مهدي مصطفى الهادي للعمل بمجلس قيادة الثورة بالقصر الجمهوري في بداية عمر الثورة.

فبعد أن عدت إلى وزارة الخارجية وفي إحدى الأمسيات كنت أجلس مع المرحوم سيد المبارك ، وسيد مبارك كان صيدلي مؤهل وينتمي بالقربى إلى الرائد مأمون عوض أبوزيد ، وبصداقة مع المقدم خالد حسن عباس ، وبعد نجاح ثورة مايو تم اختياره للعمل بجهاز الأمن القومي.. ولكنه رحمه الله كان من أنبل وأكرم وأصدق من عرفتهم في حياتي فتعرضنا لموضوع استدعائي من يوغسلافيا للعمل بسكرتارية مجلس قيادة الثورة.. فضحك رحمة الله عليه ضحكته المحببة إلى النفس ، وذكر لي أنه في ليلة الخامس والعشرين من مايو - أي ليلة الثورة - غفا غفوة قصيرة حلم فيها بأن أعضاء مجلس الثورة وجمعيهم بالزي العسكري كانوا على ظهر حاملة جنود عسكرية ، ولكن كان بينهم بالزي المدني المرحوم نفسه وبابكر عوض الله ومهدي مصطفى الهادي وشخصي.

وبعد نجاح الثورة بفترة حكى المرحوم سيد المبارك هذا الحلم لأحد أعضاء مجلس الثورة وبناءً على ذلك قرر هذا العضو استدعاء مهدي مصطفي من موسكو وشخصي من بلغراد للعمل بسكرتارية مجلس قيادة الثورة بالقصر الجمهوري."ولله في خلقه شئون".



الموزنقو السوداني



الموزنقو باللغة السواحلية تعني الخواجة أو الرجل الأبيض.


المهندس يحيى عبدالمجيد

بعـد نجـاح زيارة الرئيس السـابق نميـري لتنزانيـا عـام ١٩٧٢م ، قـام كل من الرئيس نيريري ونائبه في زنجبار عبود جومبي بزيارة إلى السودان.. وزار نميري تنزانيا مـرة أخرى في عـام ١٩٧٤م ، وقـد أدت زيارته الثـانيـة لتنزانيـا إلى تقـوية العـلاقـات بين تنزانيـا والسـودان بصورة كبيـرة ، كمـا أنهـا أدت إلى زيادة مسـاعدات السودان وارتباطه بحـركات التحرير الوطني الأفريقية.

وبعد تلك الزيارة قام الأخ والصديق والعالم المهندس يحيي عبد المجيد بزيارة إلى تنزانيا ، وكان آنذاك مساعداً للأمين العام للاتحاد الاشتراكي ، وهو يحمل رسالة من الرئيس نميري إلى الرئيس نيريري.. وأثناء إقامته بتنزانيا ، كان يرافقه وزير الأشغال التنزاني.. وقد شمل برنامج زيارته زيارة منطقة " بوكوبا " في شمال تنزانيـا - وهي منطقـة زراعيـة مطرية - وفي أثناء جـولتـه في المنطقـة - وكنت أرافقـه وبجـانبـه الوزير التنزانـي - بدأ المهندس يحـيي يتـحدث عن أهميـة الري والاستفادة من مياه الأمطار ، وأهمية تخزينها وإقامة السدود في تلك المنطقـة.. وكان حديثه علمياً وجاداً ومقنعاً ، وكان يتحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة.

وبعـد أن انتـهى من شـرح أهمـيـة الري في تلك المنطقـة ، انتـحى بي الـوزير التنزاني جانبـاً وسـألني إن كـان يحيي سـودانيـاً أصيـلاً أو " مـوزنقـو " مـتـجنس بالسودانية ، فلما سألته لماذا اعتقد ذلك؟ رد على بأنه يفكر كموزنقـو ، ويتحدث اللغة الإنجليـزية بطلاقة كموزنقـو.. فأكدت له أنه سوداني مائة بالمائة.. ولكن على الرغم من ذلك فإنني أعتقد أنه لا يزال غير مصدق ما قلته حتى الآن.

وكان من المفتـرض أن يغادر السيد يحيي عبد المجيد بعد تسليمه الرسالة للرئيس نيـريري ، في اليـوم التالي لزيارة منطقـة " بوكوبا " ، وفي صـبـيحـة ذلك اليوم أفادني وزير الخارجية التنزاني أن الرئيس نيريري يرغب في مقابلتي بصورة عـاجلة.. فوافـقت على الفور ، وذهبت إلى مـقـابلته في ظهر نفس اليوم ، وكانت لمقـابلة في "الأسـتيت هاوس " أو مـنزل الدولة (وهو مـقـر رئيس الحكومـة وكان منزل الحـاكم العام قبل الاستـقـلال ولا يختلف كثيـراً عن القـصـر الجـمـهوري في السـودان ، حـيث يغلب عليـه الذوق البـريطانـي في تهـيـئـة أمـاكن سكن الحكام البريطانيين في المستعمرات البريطانية المختلفة).

أمـا الرئيس نيـريري فـيغلب عليه الطابع الأفريقي في بسـاطة الملبس والتـأثيـر السواحلي في إصراره على استعمـال غطاء الرأس العربي.. أو " الطاقية"(١)، كما يسـمـيـهـا أهل السـودان.. ويتـمـتع بذكـاء واسع وله نظرات ثاقبـة ، ويتـمـتع بروح الدعـابة والمرح حتى في أصـعب اللحظات ، وهو رجل بسـيط ولكن شـخـصـيـتـه تفرض عليك احترامه والإعجاب به ، خاصة عندما يتحدث عن إفـريقيا واعتزازه بأفريقيته وإيمانه بأن إفريقيا ستجد لها مكاناً تحت الشمس.

---

(١) الطاقية : غطاء الرأس.. وقد لاحظ مجمع اللغة العربية بالقـاهرة (محضر جلسات غام ١٩٤٨م ص٣٠٠) أنها عربيـة وإن لم تذكرها المعاجم. ويظهر أنها مشتقة من تقية أي وقاية الرأس من الحـرارة والقـر. ويقـال تركيـة (طاقيـة) كناية عن الشـرف والملك. المصـدر : عـون الشريف قاسم - ص، ٧٢٩

بعد أن تبادلنا التحايا طلب مني الرئيس نيريري أن أبعث برسالة إلى الرئيس نميري للموافقة على أن يبقى المهندس يحيي عبد المجيد أسبوعين في تنزانيا للمساعدة في موضوع الري ، والاستفادة من مياه الأمطار في المناطق الزراعية ، ونقلت هذه الرغبة فوراً إلى رئاسة الوزارة.

وبالفعل وافق النميري على طلب الرئيس نيريري ، وتقرر بقاء المهندس يحيي عبد المجيد لمدة أسبوعين بتنزانيا ، وقد علمت بعد ذلك أن وزير المواصلات التنزاني الذي كان يرافق المهندس يحيي عبد المجيد قد نقل بالتفصيل كل ما ذكره المهندس يحيي عن موضوع المياه والسدود إلى الرئيس نيريري ، إضافة إلى إعجابه بيحيي وبسعة إطلاعه ومعرفته بذلك المجال.

انتهت زيارة المهندس يحيي إلى تنزانيا بوضع تصورت لإنشاء وزارة للري للمرة الأولى في تاريخ تنزانيا ، وليس ذلك فحسب ، بل إن السودان وافق على انتداب خمسين مهندساً سودانياً كمعونة فنية من السودان لإنشاء تلك الوزارة على أن يتحمل السودان تكاليف سفرهم ومرتباتهم الشهرية ، وتقوم تنزانيا بتوفير أماكن إقامتهم لمدة عامين ، كما يشمل ذلك أن تقوم تنزانيا بتقديم عشرين منحة دراسية بجامعة دار السلام للطلاب السودانيين.

وقد التزم الجانبان بتنفيذ ذلك الاتفاق ، ووصل خمسون مهندساً سودانياً بعوائلهم إلى دار السلام على رأسهم كبير المهندسين الريح عبد السلام حاج أحمد المقبول وأرسل السودان عشرين طالباً للدراسة في الكليات المختلفة بجامعة دار السلام على نفقة حكومة تنزانيا. وبعد مرور أكثر من خمسة عشر عاماً من استقلال تنزانيا قامت لأول مرة وزارة للري بتنزانيا ، التي كانت نتيجة اندهاش وانبهار وزير المواصلات التنزاني الذي كان يرافق المهندس يحيي عبد المجيد أثناء زيارته لتنزانيا التي لم تكن لها علاقة إطلاقاً بما حدث بعد تلك الزيارة.

كان السـودان آنذاك في صدارة الدول الأفـريقية ذات الانتماء العـربي الأفريقي الإيجابـي ، والمثل الأعلى للدولة ذات الأبعاد المختلفة وذات الانتماء المتعدد دون أن تفقد شخصيتها وتوازنها والتزامها بالجميع ، وبذلك التعاون مع تنزانيا يكون السـودان سباقـاً فيـما عـرف مـؤخراً بالتـعـاون بين " الجنـوب والجنوب " ، ووضع أسساً عمليـة وواقعية لإمكانية ذلك التعاون بين دول العـالم الثالث دون انتقاص من سـيـادة أي طرف من الأطراف ، ودون فـرض شـروط سـيـاسـيـة أو اقـتـصـادية أو عقائدية بين تلك الدول.

وفي هذا المجـال ترد إلى الخـاطـر قـصـة أخـرى ترتبط بالـزيارة التي قـام بـها " كينث كاوندا " رئيس جـمـهـورية زامـبـيـا السـابق للسـودان في عـهـد الديمقـراطية الثانيـة ، وكان من ضـمن برنامج جولتـه فـي السـودان زيارة ورش السكك الحـديدية بمدينـة عطبـرة ،وفي رفـقـتـه الـرئيس الراحـل إسـمـاعـيل الأزهري رئيس مـجلس السيادة آنذاك ، وكان ذلك في أعقاب استقلال زامبيا عام ١٩٦٤م.

وقـد أبدى الرئيس " كاوندا " إعـجـابـه وسـروره بما رأى في تلك الجـولة.. وكـان مما أثار اندهاشه عدم وجود أجانب ضمن العاملين في تلك الورش ، إذ كانت تدار بأيدٍ سودانية من مهندسين ، وموظفين ، وعمال في الوقت الذي كان فيه " البيض " في زامـبـيـا يسـيطرون على كل المرافق بـعـد الاسـتـقـلال . فـأبدى الـرغـبـة للرئيس أزهـري بأن يقـوم السـودان بإرسـال فـريقـاً من لإدارة السكك الحـديدية بزامـبـيـا.. فوافق الرئيس أزهري على ذلك الطلب ، وقام السودان بإرسال عدد من المهندسين وأكثـر من ألف عـامل فـي مـختلف التـخـصـصـات فـي مـجـال السـكك الحـديدية إلى زامبيا برئاسة المهندس القدير أحمد الأمين العجباني «رحمه الله».

وهذه الحقـائق تعكس وضع السودان آنذاك الذي أكسبه سمعة إقليمية وعـالمية ، كـان من المفتـرض أن يحـتل بذلك موقعاً مـتـقـدماً اليوم فـي القـارة الأفـريقـيـة. وأن

يمثل حلقة الوصل التي لا تزال مفقودة بين العالمين العربي والأفريقي.. ولكن السودان فقد حلقة الوصل مع نفسه وليس مع غيره فقط.

هكذا كان السودان.. وهكذا كان أبناء السودان العمالقة من أمثال العجباني والريح ومرتضى أحمد إبراهيم والطيب عبد الرازق وبخيت مكي ومأمون بحيري وعلى التوم "والموزنقو" يحيي عبد المجيد وعبد الله محمد إبراهيم.. يتربعون في أعلى وأهم المواقع في القارة الأفريقية.. يرفعون اسم السودان عالياً.. ولكن يا للعجب فإن أبناء السودان يقفون اليوم أمام السفارات للحصول على تأشيرات إلى أي مكان في العالم لهجرة لا عودة بعدها ، ومنهم من يحمل التخصصات العلمية المختلفة للعمل بمواقع في بعض دول في المنطقة.. لا تليق ولا تحترم تلك التخصصات.

ومن يهن يسهل الهوان عليه وما لجرح بميت إيلام



أوجاماعا



أوجاماعا باللغة السواحلية، تعني الجماعة.

مع موسى المبارك ود. صديق احمد إسماعيل ود. نوبي مادوت
وفد الاتحاد الاشتراكي الى تنزانيا . دار السلام ١٩٧٣م

بعد أن نجحت تنزانيا في احتلال موقع مميز بين الدول الأفريقية المستقلة.. باتخاذ خط سياسي متقدم في قضية تحرير إفريقيا ، وفي القضايا الدولية المختلفة ، وأصبحت لها شخصية متفردة بين بقية الدول الأخرى التي إما انحازت شرقاً وبدأت في انتهاج سياسة ماركسية بعد الاستقلال ، أو غرباً وارتبطت بالتحالف مع الدول الغربية.. وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أن هنالك عدة دول أفريقية – ومن بينها تنزانيا – قد وقعت في أحضان النفوذ الإسرائيلي، خاصة في تطبيق تجربتها في التنمية التي تقوم على نظرية " الكيبوتس ".

كان الرئيس نيريري يتميز سياسياً برؤية متقدمة في العديد من القضايا الأفريقية وفي مقدمتها قضية التحرير ، ويأتي في نطاق ذلك تأييده للقضية الفلسطينية ولكنه من من ناحية عقائدية فقد كان يسيطر عليه الفكر والفلسفة المسيحية التي تجعله في مفترق طرق مع التيارات السياسية التقدمية في القارة وفي داخل تنزانيا ، لذا فلقد اتبع نيريري موقفاً وسطاً في هذا الاتجاه.. جمع بين إصراره على قضية التحرير التي تجعله يصطدم مع الدول الغربية من ناحية ،

ولكن من ناحية أخرى ابتدع فلسفة في التنمية لا تتعارض مع تلك الدول ، ولكنها في نفس الوقت لا تتبع التوجه الماركسي الذي كان سائداً في بعض الدول الأفريقية في ذلك الحين.

كانت فلسفة نيريري - والتي أطلق عليها " الأوجاماعا " أي : القرى الجماعية - تقوم نظرياً على الاعتماد على الذات وتنمية الموارد المحلية للنهوض بتنمية تنزانيا. وشرع نيريري في تطبيق تلك النظرية ، ووفر لها كل الإمكانيات للنجاح وأصبحت سياسة رسمية للدولة وللحزب " تانو " Tanu أو الاتحاد الوطني بتنزانيا ، ونجح في استقطاب حماس ومشاعر المواطنين وكوادر الحزب ، وتأييد بعض المنظمات والدول الأجنبية حتى صارت تلك الفلسفة مصدر دراسة وتحليل في مختلف أنحاء العالم كتجربة أفريقية رائدة ، وأطلق عليها البعض اسم " النظرية الثالثة " إلى جانب الرأسمالية والنظرية الماركسية.

على صعيد آخر استطاع نيريري أن يحتل مكاناً في تاريخ إفريقيا الحديث.. يقوم على ريادة تنزانيا لقضية تحرير إفريقيا ، وأصبحت دار السلام مقراً للجنة التحرير الأفريقية التابعة لمنظمة الوحدة الأفريقية، كما أصبحت مقراً لإقامة ومكاتب قيادات حركات التحرير الأفريقية المختلفة. لذلك السبب تمكن نيريري من فرض نفوذه وسيطرته على بعض توجهات تلك الحركات ، وجعلت له مكانة دولية مرموقة بين الزعماء الأفارقة. إلى جانب اعتباره رائد تجربة أفريقية ذاتية لمواجهة قضايا التنمية وتطوير القارة بالاعتماد على الذات.

ولكن بعد استقلال جميع المستعمرات الأفريقية وبروز قيادات شابة جديدة في القارة ، وانتهاء الصراع الدولي بنهاية الحرب الباردة.. تغيّرت صورة تنزانيا ورأى نيريري بنفسه قبل وفاته هذا التغيير.. بعد أن تقاعد عن السلطة ، وتولت قيادات شابة جديدة السلطة في بلاده بعد فشل تجربته الرائدة.. وعادت تنزانيا إلى

التعامل مع الأسرة الدولية في ظل مبادئ النظام العالمي الجديد الذي يقوم على التعددية الحزبية والاقتصاد الحر ، كما رأى أيضاً التغييرات التي حدثت في تلك المستعمرات السابقة وأنماط الحكم التي رأت أنها تتماشى مع ظروفها وأوضاعها السياسية والاقتصادية.

كان لابد من هذه المقدمة لكي نعود بالعلاقات بين السودان وتنزانيا بعد فشل محاولات انقلاب الرائد هاشم العطا في الخرطوم عام ١٩٧١م ، والذي أشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب إلى موقف تنزانيا منه.. ولكن سرعان ما تمكن السودان من تصحيح علاقاته مع تنزانيا ، وقام الرئيس نميري بزيارة رسمية إلى تنزانيا عام ١٩٧٢م لحضور احتفالات تأسيس حزب " تانو " في " سبعة سبعة " أي : السابع من شهر يوليو.

عندما غيرت مايو من توجهاتها السياسية بعد نجاحها في القضاء على الانقلاب اليساري يوليو ١٩٧١م ، وقطعت علاقاتها مع المعسكر الاشتراكي (وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي) ، وقبيل أن تتحالف كلياً مع الولايات المتحدة الأمريكية . سبق ذلك البحث عن بديل لشعارات وتوجهات ثورة مايو التقدمية اليسارية التي انطلقت عام ١٩٦٩م.. ومن هنا ، حاولت مايو الاستفادة من تجارب بعض الدول الأفريقية في هذا المجال.

فقام وفد من الاتحاد الاشتراكي بزيارة إلى تنزانيا كان برئاسة المرحوم الأخ والصديق موسى المبارك وعضوية د. صديق أحمد إسماعيل ود. توبي مادوت من الإقليم الجنوبي.. وعلى الرغم من أن ثلاثتهم يعتبرون من طبقة المثقفين في السودان ، إلا أن كلا منهم كانت له خلفية سياسية تختلف عن الآخر.

قام حزب " تانو " بإعداد برنامج متكامل لذلك الوفد ، يشمل زيارات ميدانية لبعض قرى " الأوجاماعا " في الأقاليم المختلفة إلى جانب المحاضرات واللقاءات مع كوادر الحزب المختلفة ، ولقد كنت بحكم موقعي بالسفارة مرافقاً لذلك الوفد

في تلك الزيارات.. وعلى الرغم من أن تجـربة تنزانيـا فـي هذا المجـال قـد نـالت دعاية وسمعة إقليمية ودولية ، إلا أن انطباعنا جميعاً كان سلبياً عن تلك التجربة بل وصل ببعضنا مرحلة السخرية عندما قمنا بزيارة بعض القرى التي كانت لا تمتلك ليس الإلمام بتلك التجربة فقط ، بل بأبسط الإمكانيات للمساهمة في إنجاحها.

وقد كان تقرير الوفد عن تلك الزيارة متماشياً مع انطباعاتنا ، وأنه لن يكون مثالاً يحتذي به بالنسبة لظروف وأسلوب الحياة السياسية والاجتماعية في السودان.

ولكن هذه الزيارة والتي رافقتها زيارات وفود أخرى من الاتحاد الاشتراكي إلى بعض الدول الأفريقية والأجنبية ، مثل : رومانيا وغيرها من الدول التي كانت تحكم بواسطة الحزب الواحد ، تعتبر دليلاً حقيقياً بأن مايو بعد ١٩٧١م ، كانت جادة في إيجاد بديل لتوجهاتها السياسية التي انطلقت منها في عام ١٩٦٩م ، والتي انتهت بعد القضاء على محاولة انقلاب يوليو ١٩٧١م ، والتي كان مصيرها الفشل ،حتى أصبح السودان أخيراً لا يحكم بواسطة الحزب الواحد بل بواسطة الفرد الواحد.



الميدالية الأفريقية



إن أحداث يوليو ١٩٧١م ، بالسودان والأسلوب الذي عالج به نميري هذه الأحداث ، وذلك عن طريق تصفية حركة المقدم هاشم العطا وتصفيته الجسدية لمؤيدي الحركة من قادة الحزب الشيوعي السوداني ، أمثال عبد الخالق محجوب ، الشفيع أحمد الشيخ ، جوزيف قرنق ، ولما كان المد اليساري في إفريقيا يسيطر على معظم القيادات في القارة الأفريقية في ذلك الوقت نسبة للتأييد والدعم الذي وجدته حركات التحرير الأفريقية من الاتحاد السوفيتي السابق ، فقد أدى ذلك إلى صدمة لدى معظم قادة تلك الدول خاصة وأن بعضهم قد اعتبر أن ثورة مايو ١٩٦٩ إضافة من السودان لذلك التيار ، ودعماً للقوى التحررية في إفريقيا.



مع جوليوس نيريري رئيس تنزانيا
دار السلام ١٩٧٣م

وقد عبرت العديد من الدول الأفريقية، وحركات التحرير عن إدانتها لتلك الأحداث كما قامت الصحافة في عدد من تلك الدول بالهجوم على ذلك الأسلوب ، والتعبير عن استيائها ورفضها له وكانت تنزانيا في مقدمة تلك الدول خاصة وقد كانت آنذاك تمثل قلب النضال الأفريقي من أجل التحرير ، ومن أهم العواصم الأفريقية.. لأن الرئيس الراحل المعلم يوليوس نيريري قد نجح في أن

يجعل منها قبلة أنظار العالم ، وقلب إفريقيا الذي ينبض بمستقبل مشرق للقارة الأفريقية.

وقد انتبه نظام مايو لما أحدثه ذلك من مواقف سلبية في الأوساط الأفريقية، فقام باتخاذ مبادرات مختلفة لتحسين علاقاته مع الدول الأفريقية، وإزالة الروح العدائية التي انطلقت من بعض عواصم تلك الدول.. وكانت تنزانيا في مقدمة هذه الدول استشعاراً من نظام مايو بأهميتها وموقعها من الشأن الأفريقي.

وأثمرت تلك المبادرات الأفريقية، ووافقت تنزانيا على استقبال الرئيس السابق نميري للقيام بزيارة رسمية للمشاركة في احتفالات حزب " تانو " التي تعرف " بسبعة سبعة " وتعني باللغة السواحلية يوم سبعة شهر سبعة ، وهو ذكرى تأسيس حزب " تانو " الحاكم (اتحاد تنجانيقا الوطني الأفريقي).

وبدأت السفارة في الإعداد للزيارة في بداية يوليو ١٩٧٢م ، وفي هذا الإطار عقدت اجتماعاً تحضيرياً مع مدير المراسم بوزارة خارجية تنزانيا للاتفاق على البرنامج النهائي للزيارة ، وكانت رئاسة الوزارة بالخرطوم قد زودتنا ببعض المقترحات لبرنامج الزيارة.

واستقبلني السيد " امفينانقا "، مدير المراسم بهدوئه المعروف ، وهو رجل قد تخطى الستين من العمر ، مربوع القامة ممتلئ الجسم يتحرك ببط وهدوء ، وقد اعتلى رأسه الشيب فزاده وقاراً ، وتغطي عينيه نظارة طبية سميكة ، تعطيك الانطباع بأنه لا ينظر إليك مباشرة ، بل ينظر إلى شيء آخر أبعد من ذلك بكثير.

وبدأنا الاتفاق على بنود الزيارة التي كالعادة اشتملت على لقاءات بين الرئيسين وبين كبار المسؤولين ، وعقد اجتماع بين الجانبين ، وزيارات للأماكن السياحية الهامة بتنزانيا، وإجراءات الاستقبال والوداع.. وفجأة تذكرت تبادل الأوسمة والنياشين فقلت له : يجب أن تدخل ذلك في البرنامج ، فسألني عن طبيعة

الأوسمة والنياشين ومستوياتها والشخصيات التي تمنح لها.. وردد بامتعاض : هل هذا ضروري ، فقلت : نعم ، وقال : يا أخي نحن في إفريقيا ولسنا من " الموزنقو " والموزنقو كما ذكرت تعني باللغة السواحلية : الرجل الأبيض.. وأوسمة الرجل الأفريقي هي الرماح و " البانقا " والبانقا بالسواحلي هي الفأس.

ونظرت له بإعجاب شديد وشدتني صراحته وأصالته واعتزازه بتقاليد وعادات إفريقيا ، ولكنني أكدت إصرار الجانب السوداني على أن يتضمن البرنامج ذلك البند.. وأمام إصراري وافق أخيراً على ذلك ، شريطة أن ندرك بأن تنزانيا لن تقدم أوسمة أو نياشين للجانب السوداني.. وقد كان.

لقد ظلت شخصية ذلك الرجل عالقة بذهني حتى هذا اليوم ، وما زلت أعيد تفاصيل ذلك الاجتماع في مخيلتي من حين لآخر.. وقد أوردت هذا الحادث دليلاً على أن تنزانيا في أيام الرئيس الراحل نيريري ، قد غمرتها صحوة أفريقية على الرغم من أنها تأثرت بالعرب من ناحية ، وبالحكم الألماني والإنجليزي من ناحية أخرى ولكن التنزاني دوماً دون بقية شعوب ودول المنطقة يتمتع بثقة واعتزاز بالنفس تفرد بها دون غيره ، وفي اعتقادي ، أن القيادة السياسية المتميزة لتنزانيا في عهد الرئيس الراحل نيريري ، قد لعبت دوراً كبيراً في خلق وإحياء تلك الشخصية.



مندوب جزر الكناري



تضمن ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية بنداً يؤكد مسئولية المنظمة في تحرير المستعمرات في إفريقيا ، ولقد أنشأت المنظمة جهازاً خاصاً ليتولى هذه المسئولية وهي لجنة التحرير الأفريقية والتي اتخذت من دار السلام عاصمة تنزانيا مقراً لها نسبة لما تتميز به تنزانيا من موقع جغرافي في وسط شرق إفريقيا ، بجوار معظم المستعمرات الأفريقية آنذاك ، مثل : روديسيا - ناميبيا - أنجولا - موزمبيق - جزر السيشليز -جزر القمر وجنوب إفريقيا التي كانت تخضع لحكم الأقلية البيضاء.

وكانت مسئولية تلك اللجنة هي الأشراف على حركات التحرر الأفريقية التي تعترف بها المنظمة ، وقد وضعت المنظمة شروطاً محددة للاعتراف بتلك الحركات حتى تتمتع بصفة مراقب في اجتماعات وزراء الخارجية ومؤتمرات القمة الأفريقية، وكانت ميزانية لجنة التحرير تتكون من مساهمات كل الدول الأفريقية المستقلة حسب نسبة مساهمتها في الميزانية العامة لمنظمة الوحدة الأفريقية، إلى جانب المعونات من الدول الصديقة والمنظمات الدولية الأخرى.. ولذلك فإن حق العضوية في تلك اللجنة كان مفتوحاً لكل الدول المستقلة (الأعضاء في المنظمة).

ولقد اشتملت مسئولية لجنة التحرير على كل ما يتعلق بقضايا تحرير المستعمرات الأفريقية : السياسية والعسكرية والإدارية ، ويتضمن ذلك الاعتراف بحركات التحرير وتنظيم شئونها وتوفير متطلباتها المختلفة من تسليح وتدريب ، وتوفير كل متطلباتها القتالية ، ورفع تقرير منتظم إلى مؤتمر وزراء الخارجية ومؤتمرات القمة الأفريقية.

وقد أدى ذلك إلى أن تكون مسئولية تحرير المستعمرات الأفريقية مسئولية جماعية ، ساهمت فيها كل الدول الأفريقية المستقلة وعلى الرغم من أنه كان هناك تفاوت في مساهمات تلك الدول ، إلا أنها لعبت دوراً هاماً ومباشراً في تأسيس ودعم حركات التحرير الأفريقية.

ولذلك فإن إفريقيا قد تميزت عن القارات الأخرى في هذا الاتجاه ، مما اعتبر تجربة رائدة في هذا المجال ، ولقد واجهت الدول الأفريقية المستقلة هذا الدور بجداره ومسئولية تضامنية ، وبتجرد تام من محاولة السيطرة أو التأثير على حرية تلك الحركات في السعي لنيل الاستقلال عن طريق الكفاح المسلح ، إذ كان هدف تلك الدول هو دعم حركات التحرير الأفريقية حتى تتمكن من نيل الاستقلال.

وفي هذا الاتجاه لعبت الدول العربية وفي مقدمتها مصر (جمال عبد الناصر) والجزائر (بن بيلا وبومدين) ، ومنظمة التحرير الفلسطينية دوراً هاماً ومؤثراً.. أوجد رصيداً إفريقيا ما زال فاعلاً في تأييد القضية العربية في نزاع الشرق الأوسط على الرغم من اختلاف الظروف والمعطيات وفي وضع أسس التعاون العربي الأفريقي الذي وصل ذروته في مؤتمر القمة العربي - الأفريقي الأول (والأخير) في القاهرة عام ١٩٧٦م.

وكانت لجنة التحرير الأفريقية تجتمع كل ستة أشهر ، إما في مقر اللجنة بدار السلام ، أو في إحدى العواصم الأفريقية إذا وجهت الدعوة لاستضافة اجتماعات تلك اللجنة ، ولقد كان سفراء كل الدول الأفريقية بدار السلام معتمدين كممثلين دائمين لدولهم في اجتماعات اللجنة ، وبذلك كنت أمثل السودان في اجتماعات لجنة التحرير إذا عقدت بمقر اللجنة بدار السلام ، كما شاركت في الاجتماعات التي عقدت في العواصم الأفريقية الأخرى كمقديشيو ونيروبي وكمبالا والخرطوم ودوالا في الكاميرون خلال الفترة من ١٩٧١م ، وحتى عام ١٩٧٥م.

لقد حرصت منذ التحاقي للعمل بوزارة الخارجية على أن ارتدي الزي السوداني (الجلابية والعباءة) أثناء تأدية واجباتي الدبلوماسية في كل الدول ، وفي اختلاف أنواع الطقس.. ولقد سبب لي الزي السوداني بعض المضايقات أحياناً وبعض الامتيازات أحياناً أخرى وبعض الإحراجات في حالات أخرى.. ولكني ما زلت أرى أهمية التمسك بالزي السوداني للدبلوماسيين بصفة خاصة، فهو يفتح الباب لتمييز السوداني بصورة مباشرة ولتأكيد سماته الخاصة منذ الوهلة الأولى ، ويؤكد استقلالية الشخصية السودانية وتفردها عن غيرها ، على الأقل في المظهر..

وعند مشاركتي في اجتماع لجنة التحرير الأفريقية الذي عقد بمدينة دوالا بالكاميرون عام ١٩٧٣م ، كنت كعادتي أرتدي الجلابية والعباءة ، وقد اعتاد زملائي الذين جاءوا من دار السلام إلى مدينة دوالا أن يروني بذلك الزي وأصبح لا يثير دهشتهم بقدر استغرابهم عندما يروني أرتدي " البدلة " أو الزي الأوروبي.

وفي اليوم الأخير لذلك الاجتماع نقاشت اللجنة الاعتراف بمنظمة تحرير " جزر الكناري " التي تقع في الشاطئ الغربي الشمالي من إفريقيا على المحيط الأطلنطي وكانت لجنة التحرير الأفريقية قد وضعت قواعداً وأسساً لاعتراف اللجنة بمنظمات التحرير الأفريقية.. ودار نقاش طويل حوله السماح لمندوب جزر الكناري بمخاطبة اللجنة، وعرض قضية تلك الجزر.. واستمر النقاش لفترة طويلة بين مؤيد ومعارض لطلب ممثل جزر الكناري للسماح له بمخاطبة اللجنة.

وقد كان وزير خارجية الكاميرون يترأس تلك الاجتماعات (كما جرت العادة على أن تترأس الدولة المضيفة الاجتماعات) ويبدو أنه كان يجهل تماماً ليس قضية جزر الكناري فقط ، بل إنه كان يجهل أيضاً كيف كان يبدو ممثل تلك الجزر ، وكيف شكله ومنظره والزي الذي يرتديه.. وأثناء ذلك النقاش تركت مقعدي

المخصص للسودان وذهبت إلى البوفيه لتناول كوب من الشاي ، لكي أعود لمتابعة ذلك النقاش.

وفي أثناء غيابي عن القاعة قرر الاجتماع أخيراً الموافقة على الاستماع لمندوب جزر الكناري لمخاطبة اللجنة ، فطلب رئيس الاجتماع وزير خارجية الكاميرون من سكرتارية اللجنة استدعاء مندوب جزر الكناري من خارج القاعة لمخاطبة اللجنة.. وتصادف في هذه اللحظة أنني كنت عائداً لتوي من البوفيه لاحتلال مقعدي في الاجتماع.. وعندما رآني رئيس الاجتماع وكان يتحدث باللغة الفرنسية وبقية الحضور كانوا يتابعون مداولات الاجتماع عن طريق الترجمة الفورية بكل اللغات بما فيها اللغة العربية ، وكما ذكرت أنه كان يود إنهاء ذلك النقاش الذي دار فترة طويلة.. فعندما رآني قال بارتياح كبير إنني أرى مندوب جزر الكناري يدخل القاعة.. فضجت القاعة بالضحك.. لأن معظم الحضور كانوا يعلمون بأنني مندوب السودان.. وبما أنني كنت لا أضع سماعة الترجمة في أذني كانت دهشتي تفوق دهشة من كانوا يسمعون ، وعندما جلست على مقعدي ووضعت سماعة الترجمة في أذني استطعت أن أدرك سبب تلك الضجة ودواعي ذلك الضحك فشاركت الجميع في الضحك.. وعندما دخل إلى القاعة ممثل جزر الكناري الحقيقي شعر وزير خارجية الكاميرون بالحرج ، فما كان منه إلا أن قدم اعتذاره لشخصي.. وأضاف بأن ذلك يؤكد أن إفريقيا قارة متعددة الألوان والأجناس والعادات والتقاليد ، ولكن برغم ذلك فإنها عازمة وقادرة على توحيد صفوفها وتحرير أراضيها والنهوض بشعوبها.

وقد زاد ذلك الموقف من إصراري على ارتداء الزي السوداني ، لأن ذلك الموقف على الرغم من طرافته ، فإن الجميع قد خرجوا بانطباع واحد عن الشخصية السودانية وعلى ملامحها المميزة على الأقل من ناحية المظهر ، وذلك ليس بإنجاز بسيط.



تدشين دورات المياه



لقد سمع وعرف الكثيرون من الناس عن جزيرة "زنجبار" ، تلك الجزيرة الساحرة التي تنام في أحضان المحيط الهندي بمياهه الزرقاء، ولقد ارتبط اسم زنجبار - والتي عرفت بحديقة "القرنفل" - لدى الشعوب العربية بثورة "عبيد كرومي" التي قامت بإنهاء حكم الأرستقراطية العربية فى تلك الجزيرة عندما كانت تتبع حكم سلطان عُمان.

ولقد كتب العديد من الباحثين عدة دراسات عن أسباب ودوافع تلك الثورة.. هل هي ثورة ضد العرب؟ أم هي انتقام لتجارة الرقيق التي عرفتها إفريقيا؟ أم هي امتداد لحركة التحرير التي عمت معظم المستعمرات الأفريقية في ذلك الوقت؟.

ولقد تعرفت أثناء عملي بتنزانيا بالعديد من رموز تلك الثورة ، وكانت دهشتي كبيرة حين أدركت أن معظمهم من أصول عربية ، وفي مقدمتهم السياسي والمفكر الكبير المرحوم "عبد الرحمن بابو" و"على محفوظ" و"محمد علي فوم" الذي صار وزيراً ، ثم سفيراً لتنزانيا في عدة دول بعد الاتحاد بين زنجبار وتنجانيقا في جمهورية تنزانيا.

وقد تبين لي أن العقول المفكرة وراء تلك الثورة كانوا من الشباب العربي من الجزيرة الذين كانت لهم ميول يسارية ، ومعظمهم درس في الدول الاشتراكية وفي كوبا بصفة خاصة ، وأن تجربة ثورة كوبا بزعامة "فيدل كاسترو" كانت المثل الأعلى

لأولئك الشباب الذين رأوا في حكم السلطان العُماني في زنجبار مظهراً من مظاهر الظلم والطغيان الأرستقراطي الرأسمالي ضد الكادحين من العمال والمزارعين.

ولعل القلائل قد سمعوا ، أو عرفوا عن الجزيرة الأخرى التوأم لزنجبار ، وهى جزيرة "بمبا".. وهى أيضاً تقع في المحيط الهندي ، ولا تبعد كثيراً عن جزيرة زنجبار ، وكانت تتبع أيضاً الحكم العُماني ، ولكنها تختلف عن زنجبار في أن أغلبية سكانها كانوا من العرب ، وتبلغ نسبة المسلمين في الجزيرتين مائة بالمائة.

وفي عام ١٩٧٢م ، احتفلت زنجبار بعيد استقلالها.. وكالعادة كل عام ، فقد قامت وزارة خارجية زنجبار بدعوة رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة لدى الجزيرة والتي تقيم بدار السلام لحضور تلك المناسبة.

وغادرت ضمن المدعوين بطائرة خاصة من دار السلام إلى زنجبار ، ولا تستغرق الرحلة اكثر من خمس عشرة دقيقة ، كما تستغرق حوالي ثماني ساعات بالباخرة وبعد حضور افتتاح الاحتفال بزنجبار تقرر نقلنا بطائرة أخرى إلى جزيرة "بمبا" ، حيث نرافق نائب رئيس تنزانيا ورئيس زنجبار الشيخ "عبود جومبي" في افتتاح ثلاثة فنادق بتلك الجزيرة من أجل الترويج للسياحة.

وعندما وصلنا إلى "بمبا" ، وبدأنا مراسم افتتاح الفندق الأول ، اقترب مني المستر "اتساري" وكان سفير فنلندا في تنزانيا ، وهو رجل بدين قصير القامة ذو وجه محمر تكاد ترى الدم يجري في أنحائه ، وهمس لي بصوت خافض بأنه يعاني من الآلام في معدته ، ويحتاج أن يذهب إلى "التوليت" ، وطلب مني أن أتحدث مع المرافقين وكانوا لا يتحدثون غير "السواحلية" لأنني أستطيع أن أتفاهم بها إلى الحد المطلوب في مثل هذه الحالات.

وفعلاً رافقنا أحد العاملين بالفندق الجديد ، وذهبنا إلى "دورات المياه" الذي ما زالت رائحة الطلاء الحديث تفوح منه ، وكان واضحاً أنه لم يستعمل من قبل ،

وعندما غادر السفير التوليت كان واضحاً إن حالته قد تحسنت فشكرني وقمنا بالانضمام إلى بقية المدعوين وأكملنا الاحتفال بتدشين الفندق الجديد.

وبعد ذلك غادرنا إلى الفندق الثاني وفجأة ظهر أمامي سفير فنلندا مرة أخرى وطلب مني أن يزور "دورات المياه" مرة ثانية وتكرر نفس المشهد في الفندق الأول، ثم ذهبنا للفندق الثالث وتكرر نفس المشهد للمرة الثالثة.

وبعد أن قمنا "بتدشين" الفنادق الثلاثة تحرك الركب إلى المطار لكي نعود مرة أخرى إلى زنجبار، ونحن في انتظار الصعود إلى الطائرة تقدم نحوي السفير وهو يبتسم.. فخشيت أن يطلب مني أن يزور "دورات المياه" مرة أخرى، ونحن في مهبط الطائرة ولكنه التفت يميناً ويساراً وهمس في أذني قائلاً :"أود أن أشكرك يا صديقي على إنقاذي ثلاثة مرات باستعمالك المفيد للغة السواحلية، وأعدك بأنني سأقوم بدراستها فور عودتنا إلى" دار السلام"، كما إنني سأحاول أن أتعلم ما قد ينقذني في مثل هذه الموقف من لغة أي بلد قد اعمل فيها في المستقبل". فسألته إن كان قد اعجب بزيارة الجزيرة، وبالفنادق التي قمنا بتدشينها.. فابتسم مرة أخرى وقال: " نعم يا صديقي، لقد قام الرئيس جومبي بتدشين الفنادق الثلاثة وقمت أنا بتدشين "دورات المياه" في تلك الفنادق وأن هذا اليوم لن أنساه أبداً ".

وفنلندا كانت من الدول الأوروبية الناشطة في إفريقيا، لأنها لم تكن من الدول التي شاركت في استعمار إفريقيا.. ولذلك فقد وجدت قبولاً لدى تلك الدول الأفريقية، وقامت بتقديم العديد من المساعدات للدول الأفريقية ولحركات التحرير الأفريقية بصفة خاصة، وهذا مما ساعد فنلندا في أن يختار سفيرها في دار السلام - وهو صديقي المستر "اتساري" الذي دشن "دورات المياه" في فنادق جزيرة بمبا الثلاث - ليكون رئيساً للجنة الأمم المتحدة لناميبيا، والتي

انتهت بتأهيل تلك الدولة الأفريقية للاستقلال. وفي فترة لاحقة أصبح رئيساً لجمهورية فنلندا واختاره الأمين العام للأمم المتحدة الحالي كوفي عنان ، لكي يترأس لجنة التحقيق في أحداث " جنين " في الأراضي الفلسطينية المحتلة ، والتي نجحت إسرائيل بتأييد الولايات المتحدة الأمريكية في إلغاء مهمتها.



الشيخ الراقص



كانت إحدى أمنياتي في الحياة أن أزور جزيرة زنجبار ، تلك الجزيرة الساحرة التي تقع في شرق دار السلام في أحضان المحيط الهندي بمياهه الزرقاء الصافية ، ويعبق سماؤها وأرضها رائحة القرنفل التي اشتهرت به تلك الجزيرة ، والتي جعلت العرب يقصدونها من الجزيرة العربية للحصول على القرنفل.. هذا البهار الساحر الذي يطيب موائد العرب المختلفة منذ قديم الزمان وحتى الآن.



مع رئيس زنجبار الشيخ عبود جومبي ١٩٧٣

وقد استطاع سلطان عُمان أن يغزو تلك الجزيرة وبعض مناطق ساحل إفريقيا الشرقي مثل بمبا - ممباسا - وأروشا.. ويضمها إلى سلطنته وقد نتج عن هذا المزج العربي الأفريقي شعب ساحل إفريقيا الشرقي الذي امتزج فيه الدم العربي بالدم الأفريقي.. واستوطن الإسلام ديناً في تلك المنطقة ، وولدت اللغة السواحلية التي أصبحت الآن لغة رسمية للعديد من الدول الأفريقية.

وفي عام ١٩٦٤م ، أدى قيام الثورة في زنجبار ، والتي تزعمها " أوكلو " إلى إنهاء ارتباط زنجبار بسلطنة عُمان ، وعندما استطاع عبيد كرومي من حزب الأفروشيرازي السيطرة على الوضع في زنجبار ، أقام اتحاداً مع تنجانيقا

(المستعمرة البريطانية السابقة والتي نالت الاستقلال عام ١٩٦١م) ، وأصبحت زنجبار وتنجانيقا دولة واحدة أطلق عليها اسم تنزانيا. ومن ذلك الحين صار رئيس تنزانيا يختار من تنجانيقا ونائبه من زنجبار ، مع احتفاظ زنجبار ببعض الصلاحيات في إدارة شئونها الخاصة ولم تخلُ العلاقة بين الطرفين من بعض الخلافات التي تطرأ من حين إلى آخر.

وقد كتب الكثير عن أسباب ثورة زنجبار ودوافعها ، ولأنها أدت إلى إنهاء الحكم العربي على الجزيرة ، فقد ذهب الأغلبية إلى وصفها بأنها ثورة عنصرية (الأفارقة ضد العرب).. وعلى الرغم من أن هناك بعضاً من ذلك - نسبة لممارسات العرب أثناء سيطرتهم على الجزيرة - إلا أن هناك أسباباً أخرى أدت إلى تلك الثورة ، فلقد شهدت فترة الستينيات بداية استقلال معظم الدول الأفريقية ، وبداية حرب التحرير الأفريقية ، والتي تأثرت بالحرب الباردة حينما استطاع الفكر الماركسي اليساري استقطاب توجهات القيادات الشابة في تلك الدول. وفي هذا المجال فقد سبقت زنجبار تنجانيقا في ذلك التوجه نسبة لأن زنجبار كانت لا تزال تحت سيطرة الحكم العربي ، فتوجهت أعداد كبيرة من الشباب الزنجباري إلى الاتحاد السوفيتي وكوبا وتشبعوا بالفكر الماركسي ، إلى جانب دراسة حرب العصابات ، ومن أبرز هؤلاء الشباب السياسي والاقتصادي الكبير المرحوم عبد الرحمن بابو وسالم أحمد سالم الأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الأفريقية ، والسفير محمد على فوم.

وبما أن معظم هؤلاء من جذور عربية إلا أنهم كانوا من قيادات الثورة على الحكم العربي بصفته كان ممثلاً للرجعية والاستعمار في الجزيرة ، وبذلك نستطيع أن نقول "إن الحركة الثورية التقدمية في زنجبار نجحت في إعطاء تنزانيا لاحقاً شكلاً سياسياً مميزاً في القارة الأفريقية ، وقد بدأت هذه الحركة

أساساً من زنجبار ، كما أن معظم رموز ثورة زنجبار من العناصر العربية.. وقد لعبت دوراً هاماً ومؤثراً في تشكيل التوجه السياسي في تنزانيا.

وقد تطابق ذلك مع فكر وتوجهات الزعيم الأفريقي " معلمو يوليوس نيريري " خاصة في قضية التحرير الأفريقية التي كانت بالنسبة لنيريري تنبع من قناعات دينية مسيحية وليست من منطلق فكري سياسي ، مخالفاً لتوجهات أولئك الشباب من زنجبار.. ولعل ذلك يفسر الخلافات التي نشأت بين هؤلاء الشباب والرئيس نيريري بعد اتحاد الطرفين.

وعندما تقرر نقلي عام ١٩٧١م ، للعمل بتنزانيا ، غمرتني الفرحة لأنني بذلك سوف أتمكن من زيارة زنجبار.. تلك الجزيرة التي سحرتني قبل أن أراها ، وبعد أن وصلت إلى دار السلام ، ظللت أترقب فرصة للذهاب إلى زنجبار.

وجاءت الفرصة ، حينما قامت زنجبار بدعوة رؤساء البعثات الدبلوماسية لحضور احتفالات عيد استقلال زنجبار.. ولقد قامت وزارة الخارجية بإجراء كل الترتيبات التي تتعلق بذلك ، فذهبنا بالطائرة من دار السلام إلى مطار زنجبار ، وكانت إقامتنا بفندق حديث تم بناؤه لاستضافتنا في تلك المناسبة.

تستغرق الرحلة بالطائرة من دار السلام إلى زنجبار خمس عشرة دقيقة تماماً ، أي لا تكاد تربط حزام المقعد حتى تهبط بك الطائرة. وظللت أراقب الجزيرة من الطائرة فرأيت أشجار القرنفل تغطيها كلها ، إلى جانب أشجار جوز الهند والموز.. ولا أبالغ إن ذكرت أنك تشتم رائحة القرنفل قبل أن تهبط الطائرة إلى مدرج المطار.

وكان الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة يبدأ الساعة الثامنة مساءً بنادي ضباط الشرطة، وهو نادٍ كبير مهيأ بكل أنواع الرياضة والترفيه ، وكانت موسيقى الشرطة تعزف مختلف الألحان.. وبدأ الحفل الراقص وقام بافتتاحه وزير الخارجية الذي كانت ترافقه زوجته.

لقد حضرت إلى الحفل وأنا أرتدي الزي السوداني " الجلابية والعباءة " والعصا ومركوب النمر " الما خمج "(١) ولاحظت فور خروجي من الفندق إلى أن جلست في مكاني بالحفل أنني أصبحت قبلة أنظار أبناء وبنات زنجبار ، وكان تفسيري لذلك هو أنه الإعجاب أو الاستغراب من الزي السوداني ، ولكن سرعان ما عرفت التفسير الحقيقي.

إن سكان زنجبار الوطنيين من ذوي الأصول العربية أو الأفريقية هم مسلمون وزنجبار تعتبر جزيرة مسلمة مائة بالمائة ، بخلاف تنجانيقا التي تتفاوت فيها النسب بين المسلمين والمسيحيين والوثنيين. ويرتدي أهل زنجبار زياً يقترب من الزي العُماني العربي ، ولكن يميزهم لبس طاقية الرأس التي تصنع في زنجبار ، وكان الرئيس نيريري يرتديها بصورة دائمة.

وفي غمرة سعادتي بوجودي في زنجبار.. وفي ذلك الحفل الجميل ، ونحن نجلس في باحة واسعة وأصوات أمواج المحيط الهندي تعلو ثم تخفت من بعيد ، وعندما رأيت وزير الخارجية يبدأ الرقص قررت في تلك اللحظة أن أقوم بلفتة مجاملة للسيد الوزير وكانت تجلس بجانبي القنصل الأمريكي بزنجبار ، وكانت قبل أن تنتقل إلى زنجبار تعمل بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية في الخرطوم ، وقد أحبت السودان وأحبها أهل السودان ولقد تقابلنا للمرة الأولى بدار السلام.

فنهضت من مكاني وطلبت منها الرقص فوافقت على الفور.. ولدهشتي رأيت أنني أصبحت قبلة الأنظار ، وأزداد ارتباكي ، ولاحظت أن حركاتي صارت مرصودة من الناظرين ، خاصةً من أبناء وبنات زنجبار الذين كانوا بالحفل ، وحتى العازفين بالفرقة الموسيقية.. فاقتربت من الوزير وسألته عن السبب.. فقال لي

(١) الما خمج : غير الفاسد أو رخيص الثمن (تفاخراً بلبسه).

إنك اليوم تصنع التاريخ في هذه الجزيرة ، فسألته لماذا؟ فقال إن هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها أهل الجزيرة شيخاً راقصاً.

فكاد يغمى عليّ من هول المفاجأة ، ومن التفسير الذي لم يخطر على بالي إطلاقاً .. وعلمت أن أهل زنجبار كانوا يعتقدون أنني شيخ إسلامي (بمعنى الكلمة) نسبة للزي الذي كنت أرتديه ، ولذلك أصيبوا بالحيرة والدهشة عندما رأوني أراقص سيدة على مرأى منهم في تلك الليلة .. ولا أدري هل كانت نظراتهم تلك نظرات إعجاب ، أم نظرات استغراب أم نظرات استهجان؟!! والله أعلم.

لم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي يتسبب فيها إصراري على ارتداء الزي السوداني أثناء عملي في الخارج من مواقف مماثلة.



الضيف الحرامي



الأخ والصديق "خوجلي محمد خوجلي" من الشخصيات التي لا يستطيع المرء أن يتخطاها بعد أن يلتقي بها ، لأنه يتمتع بصفات عديدة.. حميدة وأبرزها : المحافظة على حبل الود موصولاً مع من يلتقي بهم في دروب الحياة المختلفة ، مهما طال الزمن وتفرعت تلك الدروب.

وخوجلي أو "أبو الجاز" كما يطلق عليه معظم أصدقائه من أبناء "دنقلا" بالشمالية ، التحق للعمل بوزارة الخارجية في وظيفة محاسب ، وعندما أنشئت منظمة الوحدة الأفريقية في عام ١٩٦٣م ، كان يعمل محاسباً بسفارة السودان "بلاغوس" ، وتقدم للعمل بالمنظمة ، وهى في طور التكوين ، وتم استيعابه في وظيفة محاسب بمقر المنظمة بأديس أبابا ، ومنذ ذلك الحين صارت أديس أبابا جزءاً من "أبو الجاز" وصار "أبو الجاز" جزءاً من أديس أبابا.

وظل أبو الجاز يتدرج في مجال المحاسبة بالمنظمة إلى أن اصبح رئيس المراجعين حينما تقاعد عن العمل في ١٩٩٣م ، وقد استطاع في هذه الفترة أن يكسب احترام وتقدير المسئولين في المنظمة ، وأن يخلق علاقات وصداقات مع مختلف أبناء الدول الأفريقية الأخرى من الذين كان يعملون بالمنظمة ، ولقد أتاح له منصبه أن يقوم بجولات سنوية إلى مكاتب المنظمة الإقليمية داخل وخارج القارة الأفريقية.

وعلى الرغم من أن مجال أبو الجاز كان في الحسابات والمراجعة ، لكنه كان يحرص على متابعة كل انشطة المنظمة ، وبصفة خاصة حضور الاجتماعات

الوزارية ومؤتمرات القمة ، والاطلاع والاحتفاظ بالوثائق المختلفة عن تلك الاجتماعات ، ومتابعة ما يدور من خلف الكواليس - خاصة تلك التي تتعلق بالخلافات بين الدول وانعكاساتها على قرارات المنظمة.

وفي اعتقادي أن كل من زار أديس أبابا قد التقى بالأخ أبو الجاز بطريقة أو بأخرى ، لأنه كان يحرص على القيام بدور المضيف لمثل أولئك الزوار والاهتمام بهم أثناء وجودهم في العاصمة الأثيوبية ، وكان منزله دائماً عامراً إما بمن يتخذون منه مكان إقامة مؤقتة من "أمثالي" ، أو الذين كانوا يلبون لفتاته الكريمة في الدعوات لتناول الغداء أو العشاء ، أو السهرات التي عرف بإجادة تنظيمها من آن لآخر.

وكأحد هؤلاء فقد تعرفت بالأخ "أبو الجاز" معرفة مباشرة بأديس أبابا ، ونمت بيننا عبر السنين علاقات إخاء وصداقة.. امتدت إلى أن شملت أفراد أسرتينا وأصدقائنا المشتركين ، ومازال الود موصولا بيننا على الرغم من أن ظروف الحياة قد باعدت بيننا. جمعتني بالأخ خوجلي ذكريات مختلفة.. بعضها لا يزال سرا بيننا ، والبعض الآخر يعرفه من جمعتنا بهم الظروف سوياً.

وأثناء فترة خدمتي بتنزانيا - والتي امتدت من ١٩٧١م حتى ١٩٧٥م - كانت طبيعة عمل الأخ خوجلي تتطلب أن يزور دار السلام عدة مرات ، وذلك للمراجعة المالية لمكتب لجنة التحرير الأفريقية بدار السلام ومكاتبها الأخرى في الدول المجاورة.. وكنت اسعد دائماً باستضافته في منزلي أثناء تلك الزيارات ، لأنني كنت ما أزال "أعزب" ولأن أبو الجاز ضيف خفيف الظل قليل الطلبات يتمتع بقصص ونوادر مختلفة.. لأنه كان قارئاً من الطراز الأول من صحف ومجلات وكتب ، ويتابع التطورات السياسية والاجتماعية في السودان وفي غيره من الدول الأخرى.

وفي تلك الفترة كنت قد بدأت تجاربي الأولى في إحدى هواياتي التي كادت تصبح مهنة "مؤخراً" ، وهى "طهي الطعام" ولقد دفعني إلى ذلك حبي لتلك الهواية

من ناحية.. وعدم وجود من يجيدون تلك المهنة بين أبناء تنزانيا والدول الأخرى ، واعتقد أنني قد حققت نجاحاً ملحوظاً في فترة قصيرة ، حيث بدأت كلمات الإطراء على ما أعده من أطباق تتوالى من مختلف الأطراف ، مما دفعني وشجعني للاستمرار في ممارسة تلك الهواية.

وفي إحدى زيارات الأخ خوجلي إلى دار السلام أعددت له " صينية مصقع " باللحمة المفرومة ، فأعجب بها أبو الجاز أيّما إعجاب ، والتهمها بشراسة واضحة.. حتى كدت أخشى عليه من العين الحاسدة. وبالمناسبة أبو الجاز يتمتع بشهية طيبة للطعام.. ومنذ ذلك الحين صار أبو الجاز يربط بين دار السلام وصينية المصقع وبيني وأصبح الطبق المفضل الذي يحرص على تناوله بصورة مستمرة أثناء الزيارة ، وكان يتصل بي عندما يكون قادماً لإخطاري بموعد وصوله ، وليذكرني بأن تكون صينية المصقع في مقدمة مستقبليه عندما يحل بالمنزل.

وفي إحدى تلك الزيارات أعددت له كالعادة صينية المصقع ، ويبدو أنها كانت "فوق العادة" ومسبكة جداً ، فأطرى عليها "أبو الجاز" بصورة "خاصة" وطلب مني أن احتفظ بالباقي في "الثلاجة" لكي نتناولها في اليوم الثاني.. وعندما انتهت سهرتنا ذهبنا.. كل إلى غرفته لينام.

وكنت أقيم في منزل من طابقين، الطابق الأرضي : يحتوي على غرفة خاصة للضيوف والصالون والمطبخ ، والطابق الثاني به غرفتان كنت اخترت إحداهما لاستعمالي الشخصي.. وفي تلك الليلة بعد أن خلّصنا على ما لذ وطاب من الأكل والشراب ، وجدت صعوبة في النوم العميق ، وكنت استيقظ على الأصوات المختلفة التي كانت تصل إلى سمعي ، وفجأة سمعت حركة في الطابق الأرضي.

وعندئذ نهضت من سريري.. وحملت "البانقا" وهى "آلة تصنع من الحديد المصقول كسلاح للدفاع عن النفس" وبدأت أتابع الصوت بهدوء وأنا حافي القدمين

، فنزلت إلى الطابق الأرضي واستمررت في المتابعة ، فوجدت أن الصوت قادم من المطبخ.. وتابعت التصنت إلى أن وصلت باب المطبخ ، فرأيت أن الثلاجة مفتوحة وشخص نصفه داخل الثلاجة ونصفه خارجها ، وكانت تخرج منه أصوات غريبة.

ورفعت "البانقا" لأضرب بها ذلك الشخص اعتقاداً مني بأنه حرامي.. وفجأة اكتشفت انه يلبس "جلابية" ، وفجأة تذكرت أن صديقي أبو الجاز يقيم في الغرفة التي بالطابق الأرضي ، وانه يقيم بالمنزل منذ الأمس.. وأثناء تلك اللحظات الحرجة التفت الشخص عندما سمع حركتي ورأيت الأخ أبو الجاز وفمه ممتلئ "بالمصقعة" وبيده قطعة الخبز كان يهم أن يدخلها في الصينية مرة أخرى.

كان موقفاً روائياً رائعاً.. فقد نسيت أن ضيفي بالمنزل.. وتوقعت أنه "مويزي" أي: حرامي باللغة السواحلية ، وكدنا الاثنين أن يغمى علينا من الضحك وفكاهة المنظر.. أنا أحمل البانقا أتوجس شراً بصديقي الذي ينزل ضيفاً بمنزلي.

وتوقع أبو الجاز أن اسأله : كيف انه شعر بالجوع بعد أن تناولنا "المصقعة" على العشاء قبل ساعات قليلة ، فقال لي وهو يضحك بأنه لم يستطع مقاومة "المصقعة" بعد أن لجأ إلى السرير ، وقرر أن يلتهمها اليوم قبل الغد.. لأنه قد لا يتمكن من العودة إلى المنزل في موعد الغداء.. أو قد تطرأ له ظروف تمنعه من العودة إطلاقاً.. فسألته لماذا لم يخرجها من الثلاجة ويضعها في السخان ويأكل باطمئنان؟ فكان رده " إنه بعد أن ذاقها وهى باردة اكتشف أنها "اكثر لذة وهى باردة".

ومما يؤكد أن الأخ أبو الجاز مازال يختزن تلك الحادثة . ومازال يتذكر صينية المصقعة.. أنه قبل أيام وصلني منه مكتوب ارفق به قصاص من إحدى الصحف السودانية تتحدث عن الباذنجان والمصقعة كما يلي :

يعتقد أن الباذنجان مجلوب أصلاً من شمال بلاد الهند ، وهو صنف رئيسي في وجبات أهل منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وانتقل إلينا وأصبح صنفاً شائعاً

مطبوخاً أو مصقعاً أو محشواً أو سلطة. ومن الناس شريحة عريضة تبغض الباذنجان بغضاً شديداً ، ويسميه الطلبة "البراطيش" وكراهيته قديمة : لأنه قارص أحياناً ولاذع الطعم أحياناً أخرى، وقد يسبب الحموضة والحرقان.. وقال أعرابي عنه (لونه لون بطون العقارب ، وأذنابه كأذناب المحاجم ، وطعمه كطعم الزقوم ، فقيل له : إنه يحشى باللحم والصنوبر ، ويقلى بالزيت ، فقال : لو حشي بالتقوى ، وقلي بالمغفرة ، وطبخته الحور العين وحملته الملائكة.. ما كان إلا بغيضاً).

فقرأت باهتمام وحرص ما أرسله لي الأخ أبو الجاز عن الباذنجان ، ولكنني حتى الآن لا أدرى إن كان سبب إرساله هذه القصاصة كان بدافع الحنين إلى ما كنت أعده له من المصقع ، أو انه قد غير رأيه وصار الباذنجان يسبب له الحموضة والحرقان؟ خاصة وأننا في هذه المرحلة من العمر - وفي الظروف الصعبة التي اصحبنا نواجهها في الحياة - صار كل شئ - مهما كان طاعماً ولذيذاً إن وجد - يسبب لنا الحرقان والغثيان أيضاً.



عرب... وأفارقة



بدأ مصطلح التعاون العربي الأفريقي في الاستعمال والتداول في الساحة السياسية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، بين العرب وإسرائيل ، فقد أدى الانتصار العربي "المنقوص " في تلك الحرب إلى تغيير صورة المقاتل العربي في الأوساط الرسمية والشعبية في الدول الأفريقية ، خاصة تلك التي كانت تحتضن أقليات عربية أو إسلامية : كتنزانيا وكينيا ويوغندا والسنغال والكاميرون ، وازداد الإعجاب الأفريقي بالدول العربية عند ما قام العرب باستعمال سلاح البترول بكفاءة بعد تلك الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية ، فإلى جانب الانتصار العسكري فقد حقق العرب باستعمال سلاح البترول في قضيتهم السياسية انتصاراً اقتصادياً ، جعل منهم قوة تحرك اقتصاديات الدول الكبرى.

وقد كانت إسرائيل قبل حرب ١٩٧٣م ، تتمتع باعتراف أغلبية الدول الأفريقية وتبادلت معها التمثيل الدبلوماسي ، ولذلك ظلت الساحة الأفريقية - في ظل غياب إستراتيجية عربية محددة نحو الدول الأفريقية - مرتعاً خصباً لإسرائيل ، استطاعت أن تحقق فيه مكاسب إستراتيجية ، جعلت إفريقيا منطقة إن لم تكن معادية للدول العربية ، فإنها كانت منطقة نفوذ مقفولة للدولة اليهودية ، وكانت سفارات إسرائيل في معظم العواصم الأفريقية الهامة ، مثل : نيروبي وكمبالا ودار السلام ولوساكا وبانقي وأديس أبابا وكنشاسا وأبيدجان من أهم مراكز النفوذ الدبلوماسية في خدمة الدعاية اليهودية المعادية للعرب في القارة الأفريقية.

ومن ناحية أخرى فقد نجحت إسرائيل في استغلال ذلك النفوذ في مختلف المجالات، فقد أغدقت على رؤساء الدول ، مثل : موبوتو وأبوتي وجومو كينياتا وبوكاسا بالإغراءات المختلفة ، وتغلل ما يسمى بالخبراء الإسرائيليين في كل الوزارات ومؤسسات الدول ، وفي القوات المسلحة ، وأجهزة المخابرات ، والمؤسسات الاقتصادية ، وفي تدريب القوات الخاصة لحماية رؤساء تلك الدول بصفة خاصة ، مما أدى إلى صعوبة أو فشل الجهود العربية التي قامت ببذلها عدد من الدول العربية ، مثل : مصر والجزائر وليبيا في اختراق الطوق المحكم الذي فرضته إسرائيل على الموقف الأفريقي تجاه القضايا العربية ، وعلى الصراع العربي الإسرائيلي بصفة خاصة.

ولذلك ، فإن في مقدمة نتائج حرب أكتوبر والانتصار العسكري العربي على إسرائيل.. أن تلك الحرب قد نجحت في كسر الحاجز النفسي بين العرب والدول الأفريقية ، وفي اختراق ذلك الطوق الذي فرضته إسرائيل على القرار الأفريقي عندما قامت معظم الدول الأفريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل ، وبذلك - ولأول مرة - بدأت تلوح في الأفق إمكانية فتح صفحة جديدة بين العرب والأفارقة لإزالة رواسب الماضي ، وما قامت به إسرائيل من تشويه للشخصية العربية في الأوساط الأفريقية.. ولبناء جسور من التعاون بين الطرفين.

وقد كان الموقف الأفريقي ينسجم مع مبادئ ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية ، والذي يعتبر تحرير القارة الأفريقية مسؤولية جميع الدول الأعضاء في المنظمة ، ولذلك اعتبرت الدول الأفريقية استمرار احتلال إسرائيل لصحراء سيناء.. بمثابة اعتداء على أرض أفريقية، وبذلك أصبحت إسرائيل في مرتبة واحدة مع الدول التي كانت تحتل أجزاء من إفريقيا ، مثل بريطانيا وفرنسا والبرتغال وبلجيكا ، وكذلك اعتبرت الدول العربية هذا الموقف بأنه انحيازاً للقضية العربية ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار الموقف المتميز لأغلبية تلك الدول في مساندة منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك.

ومن ناحية أخرى ، فإن الدول العربية ، خاصة تلك التي تنتمي إلى منظمة الوحدة الأفريقية رأت في هذا الموقف الأفريقي إلى جانب مكاسبه السياسية ، بالنسبة للدول العربية ، إلا أنه من ناحية أخرى قد ينعكس سلباً على الدول الأفريقية ، وعلى اقتصادياتها وظروفها المعيشية في ضوء ارتفاع أسعار البترول الكبيرة التي أعقبت حرب أكتوبر ٧٣، واستعمال الدول العربية لسلاح البترول في الصراع العربي الإسرائيلي.. ومن هنا برزت الدعوة لرفع هذا العبء عن كاهل تلك الدول ، إذ هكذا كانت الرؤية الأولية للعلاقات العربية الأفريقية في بداية الأمر ، خاصة من الجانب العربي.

ولكن بعض الدول ، وخاصة الدول الأفريقية التي كانت تعارض الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية ودورها في استعمار إفريقيا ، والتي كانت تعرف بالدول "التقدمية" ، رأت في ذلك التقارب العربي الأفريقي فرصة مواتية لخلق تعاون حقيقي بين الشمال والجنوب ، أي بين الدول الأفريقية والدول العربية لكي يصبح استراتيجية سياسية اقتصادية تخدم مصالح تلك الدول ، وتوفر لها حرية أكبر في الساحات السياسية والاقتصادية وغيرها.

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت بعض القيادات الناشطة في الدوائر العربية والأفريقية في ذلك الوقت - وفي مقدمتهم د. منصور خالد وزير خارجية السودان ، الذي ترأس لجنة السبعة التي كانت النواة المؤسسية الأولى لما عرف لاحقاً بالتعاون العربي الأفريقي، والسيد عبد العزيز بوتفليقة ، رئيس جمهورية الجزائر (حاليا)، والذي كان وزيراً للخارجية في ذلك الوقت ، وجون مالاشيلا ، وزير خارجية تنزانيا - رأت أن هنالك فرصة لإقامة تعاون مثمر للطاقات العربية والأفريقية ، وكانوا يعتقدون بإمكانية استغلال عائدات البترول في الدول العربية في مشاريع إنمائية في القارة الأفريقية التي تزخر بالثروات الزراعية والمعدنية والحيوانية والسياحية.

ولذلك ، فقد أفرزت تلك الأجواء والدفء الذي طرأ على العلاقات بين إفريقيا والعالم العربي حمى من التفاؤل بين الطرفين ، فتعددت المنابر والندوات واللقاءات من أجل استثمار هذا المناخ الجديد بصورة أو بأخرى ، وظل كل من الأطراف يرسم صورة وردية لمستقبل تلك العلاقات ، ويؤمن بإمكانية تحقيق ذلك الحلم الذي كاد يصبح حقيقة.

وفي ضوء ذلك ، نشطت المؤسستين العربية والأفريقية : الجامعة العربية ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، فتوسعت لجنة السبعة إلى لجنة الأربعة وعشرين للتعاون العربي الأفريقي ، حيث أصبحت تضم أثني عشر وزيرا من الطرفين ، وأنشئت إدارة للتعاون العربي الأفريقي في المنظمتين ، وبدأت الاجتماعات بين الطرفين تنتقل من عاصمة عربية إلى عاصمة أفريقية في تناغم وانسجام ، حتى نجحت في عام ١٩٧٦م ، في عقد أول اجتماع مشترك لوزراء الخارجية العرب والأفارقة بداكار عاصمة السنغال وأول مؤتمر قمة عربي إفريقي مشترك بالقاهرة في نفس العام.

وبعد عودتي من دار السلام منقولاً إلى رئاسة الوزارة بالخرطوم ، تم تعييني مديراً للإدارة الأفريقية ، وبحكم ذلك الموقع وعملي بسفارة السودان بتنزانيا التي كانت مقر لجنة التحرير الأفريقية التي تبنت شخصية الرئيس الراحل يوليس نيريري وأفكاره عن الدور الأفريقي.. مما جعلها من أهم وأنشط العواصم الأفريقية.

وإن تلك الفترة عرفتني وخلقت لي صداقات عمل وفكر مع عدد من الكوادر الأفريقية ، كما أنها أتاحت لي الفرصة للمشاركة باسم السودان في عدد من الندوات والاجتماعات التي كانت تتعلق بالتعاون العربي الأفريقي ، ولذلك ، تم اختياري عضواً في وفد السودان الذي شارك برئاسة وزير الخارجية في أول

اجتماع مشترك لوزراء خارجية العرب والأفارقة ، والذي عقد بدكار قبل اجتماع القمة بالقاهرة في مارس ١٩٧٦م ، وقد كانت مهمة ذلك الاجتماع التداول والتشاور والاتفاق على جدول أعمال القمة العربية الأفريقية القادمة.

لقد كان الاجتماع الوزاري ناجحاً إلى حد كبير وسادته روح من التضامن والإخاء والتفاؤل ، وكان الجميع يتوقعون أن تسود اجتماع القمة تلك الروح والخروج بقرارات تاريخية تضع اللبنة الأولى في بناء صرح التعاون العربي الأفريقي ، لتحقيق مصلحة الشعوب العربية والأفريقية ، وبداية عهد جديد للطرفين بعد حصول تلك الدول على استقلالها وممارستها لحرية قرارها . وخلق تكتل جديد في إفريقيا والدول العربية.. يضم ٦٣ دولة مستقلة في ذلك الوقت.

وفور انتهاء الاجتماع الوزاري غادرنا دكار على متن إحدى رحلات الخطوط الفرنسية التي توجهت من دكار إلى جيبوتي ، ثم إلى جدة ، ومنها إلى القاهرة وكانت مقصورة الدرجة الأولى بتلك الطائرة تسع ستة عشر راكباً شغل منها أربعة عشر كرسياً عدد من الأصدقاء الأفارقة الذين كانوا في طريقهم إلى القاهرة للمشاركة في مؤتمر القمة وكنت من بينهم ، وكنا جميعاً نعرف بعضنا البعض من أيام دار السلام ، والمشاركة في المؤتمرات الأفريقية المختلفة.

وقد كان الحديث بيننا في تلك الرحلة يدور حول أفكارنا وتطلعاتنا المختلفة للقمة القادمة ، وذلك الحدث الذي أصبح يجسد آمال وطموحات الدول الأفريقية التي اعتقدت أنها وجدت حليفاً هاماً وقادراً في الظروف والأوضاع الدولية في ذلك الوقت ، بعد أن كانت إفريقيا حليفاً ضعيفاً لأي من القوتين الأعظم إبان الحرب الباردة.. مما أعاق تقدمها وحيادها واقتصادياتها. وظللنا كأسرة واحدة نتداول بعض دعابات ، وبعض تساؤلات.. خاصة من الجانب الأفريقي عن الشخصية العربية وطريقة التعامل معها.

وقبل أن تهبط الطائرة في مطار " جدة " أعلن أحد طاقمها ، بأنه لن تقدم مشروبات روحية عند الهبوط والمغادرة من مطار " جدة " وكان ذلك مفاجأة لبعض الأفارقة الذين كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً في تناول تلك المشروبات منذ بداية الرحلة ، ولذلك فقد أصاب بعضهم الذهول والاستغراب ، مما صدر عن طاقم الخدمة بالطائرة.

وأثناء توقف الطائرة بمطار " جدة " انضم إلى ركاب الدرجة الأولى اثنان من واطني دول الخليج بلباس الخليج التقليدي القطرة والثوب أو " الدشداش " ، وكانا يحملان حقائب صغيرة ، وجلسا جنباً إلى جنب في المقعدين الشاغرين بالدرجة الأولى فانحبست الأنفاس وصار البعض يهمس همساً لجاره خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى أزمة سياسية بين أحد الركاب ومواطن إحدى الدول العربية الهامة التي ستشارك في مؤتمر القمة المرتقب.

وعندما أقلعت الطائرة من مطار جدة متوجهة إلى قبلتها النهائية القاهرة نهض الخليجيان فجأة وهما يحملان حقائبهما الصغيرة وتوجها إلى " التوليت " بالطائرة وعندما خرجا من التوليت.. كادت عيون الركاب الأفارقة تخرج من مكانها ، بل كاد بعضهم أن يصاب بالإغماء ، عندما شاهدوا الراكبين وقد اختفت الملابس الخليجية وخرجا وهما يرتديان الملابس الغربية البدلة الكاملة وربطة العنق ، وهما في منتهى " الشياكة " كما يقول أهل مصر.

ولم تنته المفاجأة عند ذلك الحد ، بل كلاهما أخرج سيجاراً كوبياً فاخراً ، وبدآ يدخنان ، وعندما جاءت المضيفة بالشمبانيا تناول كلاهما كأسه بلهفة وشوق وبدآ يرشفانها بتلذذ وارتياح.. الشيء الذي أثار اندهاش واستغراب وتعجب أصدقائي الأفارقة.

وكان يجلس بجواري الأخ والصديق والسفير " بول روبيا " مدير الإدارة الأفريقية بوزارة خارجية تنزانيا آنذاك ، فالتفت إلى وسألني بكل سذاجة : أي من

هؤلاء العرب سوف نتعامل معهم في القاهرة الذين رأيناهم عند دخولهم الطائرة في مطار جدة ، أم الذين رأيناهم عندما غادرا التوليت بالطائرة؟.

وكان سؤالاً تصعب الإجابة عليه بالنسبة لي.. ولعل عدم معرفة الدول الأفريقية الإجابة على ذلك السؤال ، هو الذي أوصل التعاون العربي الأفريقي إلى ما هو عليه الآن، فأن مؤتمر القمة العربي الأفريقي الذي عقد في القاهرة في مارس ١٩٧٦م، كان هو مؤتمر القمة الأول والأخير بين الطرفين في مسيرة ذلك التعاون إلى اليوم.

وانطلاقاً من هذا السؤال ، تحضرني خاطرة تروى عن الأستاذ المرحوم جمال محمد أحمد ، عندما كان وزيراً للخارجية بعد أن قام الرئيس السابق جعفر نميري بإعادة كل من اللواء خالد حسن عباس ,والرائد مأمون عوض أبو زيد إلى دائرة الأوساط الرسمية فعيّن اللواء "خالد" مستشاراً لرئيس الجمهورية للشؤون الأفريقية والرائد مأمون مستشاراً للشؤون العربية ، فسأل أحدهم الأستاذ جمال عن طبيعة هذا القرار ودوافعه فرد الأستاذ جمال بخفة ظله وسخريته وعفويته المعهودة ، بأنه ليس متأكداً من صحة إجابته ولكنه يعتقد لأن اللواء "خالد" من أبناء الموردة فرأى النميري تعيينه في منصب المستشار للشؤون الأفريقية ، و الرائد مأمون من أبناء حي العرب فرأى نميري تعيينه مستشاراً للشؤون العربية.

ولعل هذه الإجابة لا تزال تبحث عن تفسير غير الذي ذهب إليه المرحوم جمال محمد أحمد ، كما لا يزال سؤال الصديق " بول روبيا " عن نوعية العرب الذين سوف تتعاون معهم إفريقيا يبحث عن إجابة أيضاً.



حمير.. وخيول




مع الجنرال هاشم امبيتا سكرتير لجنة التحرير الأفريقية - دار السلام ١٩٧٣

في اعتقادي كشاهد عيان إبّان فترة الخمس سنوات التي قضيتها في دار السلام ممثلاُ للسودان في لجنة التحرير الأفريقية ، وحلقة الوصل بين حكومة السودان والمساعدات التي كانت تقدمها في صمت إلى حركات التحرير الأفريقية ، فأن ما قدمه السودان لحركات التحرير لا يقل عن ما قدمته بعض الدول العربية الأخرى : كمصر والجزائر ، ولكن ما أضاع كل ذلك في حق السودان ، هو : عدم وضوح الرؤيا والاستمرارية في سياسة واضحة المعالم نحو دور السودان في إفريقيا ، والتجاوب مع ردود الفعل وليس الأفعال في حد ذاتها ، وعدم النجاح في إيجاد الصيغة التي تؤصل دور السودان في إفريقيا بمنأى عن ارتباطاته والتزاماته بموقف الدول العربية نحو تلك القارة.

في الوقت الذي كانت فيه العديد من الدول الأفريقية تنظر إلى السودان كقدوة ودولة رائدة في إفريقيا ، ظل السودان متردداً في لعب ذلك الدور ، وفضّل أن يكون تابعاً وذيلاً للدول العربية في نظرتها نحو إفريقيا .. وبذلك فقد السودان دوره القيادي في إفريقيا ، وأصبح ظلاً لسياسة الدول العربية في إفريقيا ، فاقداً حرية القرار والحركة.

ومن ناحية أخرى فقد نجحت الدول العربية في أن تفرض سيطرتها على رؤية السودان الذاتية بالنسبة لقضيته الداخلية التي تتعلق بجنوب السودان ، فقد كانت تلك القضية ولا تزال خلافاً بين شقي السودان حول هوية وأسلوب حكم السودان ، فقد وقع شمال السودان فريسة المفهوم العربي لذلك الصراع : بأن موقف أبناء جنوب السودان ما هو إلا مؤامرة ضد العرب تحركها أيادي إسرائيل والكنيسة الكاثوليكية والدول الغربية.

وبذلك فقد أهدر السودان فرصة ذهبية لنفسه ولارتباطه العربي والإسلامي ، بأن ينجح في لعب دور متفرد يحقق له ولبعده العربي والإسلامي ، والأفريقي والمسيحي مكاسب ، تجعل منه حلقة وصل وتعاون وامتزاج بين العربية والزنجية وبين الإسلام والمسيحية في القارة الأفريقية ، مما أدى إلى أن يصبح السودان فاقداً للمصداقية وللقبول ولأي دور في كل تلك الأبعاد ، وأصبح دولة لا طعم ولا رائحة لها في المحيطين العربي والأفريقي.. يلهث لكي يجد مكاناً له بين المحيطين.

نعود إلى السبعينيات وحركة التحرير الأفريقية في مقتبل شبابها ، وإفريقيا تزحف لاحتلال موقعها في خارطة السياسة الدولية حتى أطلق على تلك الفترة "بعقد أفريقيا" حينما بدأت الدول الأفريقية تنال استقلالها الواحدة تلو الأخرى عن طريق الكفاح المسلح ، وحرب التحرير التي أشعلتها الدول الأفريقية ببنيها وقدراتها.

في تلك الفترة كانت الدول الأفريقية التي ما زالت تحت تأثير الاستعمار ، تنظر إلى السودان برؤية عجز أبناؤه عن الإحساس بها والوصول إلى أبعادها ، فلجأت إليه تطلب الدعم والمساندة في حربها من أجل التحرير والخلاص من ربقة الاستعمار.

ولا زلت أذكر حينما طلب مني ممثل حركة " أمبيلا" "Mpla" في أنجولا في أن يقوم السودان بتوفير ٣٠٠ حمار للحركة ، للاستعانة بها في حرب التحرير ضد البرتغال ، وعندما نقلت ذلك الطلب إلى الخرطوم أثار عدم المصداقية والتهكم ، وطلبوا مني محاولة تأكيد المعلومة وإبلاغهم بالعلاقة بين الحمير والتحرير ، فاتصلت بممثل أمبيلا الذي أفادني بكل بساطة بأن الحمير حيوانات تتحمل الجوع والعطش وطبيعة أنجولا القاسية ، لاستعمالها في نقل الأسلحة والذخيرة والمؤن من مكان إلى آخر في حرب العصابات التي كانت تقودها ضد الاستعمار البرتغالي . وعندما قمت بنقل تلك المعلومة ، قامت الخرطوم بإرسال العدد المطلوب من الحمير ، بالإضافة إلى كميات من الأسلحة الخفيفة والذخيرة إلى دار السلام عن طريق البواخر التي كانت تتبع لشركة الملاحة البحرية السودانية ، وكانت تلك العملية تتم في سرية تامة بالتعاون مع أجهزة الأمن التنزانية عن طريق ميناء دار السلام.

وفي مناسبة أخرى طلب مني ممثل حركة " إسوابو" "Swapo" بناميبيا أن يمدهم السودان بعدد من الخيول للاستعانة بها في حرب التحرير ، وقامت السفارة بمخاطبة الجهات المختصة بالخرطوم التي سارعت بالموافقة على ذلك الطلب ، وقامت بإرسال بعض المساعدات العسكرية إلى جانب عدد من الخيول بباخرة سودانية أخرى ، وقد رافق تلك الخيول عدد من المدربين على رأسهم الجوكي الشهير " زقبير " .

وفي سرية تامة رست الباخرة في ميناء دار السلام ، وفي ساعة متقدمة من الليل ذهبنا في معية ممثل حركة إسوابو بدار السلام ، وجهات الأمن التنزانية ، للإشراف على تفريغ الباخرة من حمولتها لصالح حركة إسوابو ، وعندما انتهينا من تفريغ المساعدات العسكرية بدأنا في إنزال الخيول من الباخرة ، ولكن لدهشة الجميع فقد رفضت الخيول المحاولات المختلفة لجعلها تخرج من الباخرة ، وتأزم الموقف إلى أن طلب كابتن الباخرة استدعاء الجوكي " زقبير " للقيام بتلك العملية.

وازدادت دهشتنا عندما لم نجد زقبير على متن الباخرة ، وعلمنا أنه مع بقية المدربين تحصلوا على أذن خاص للتعرف على مدينة دار السلام.. وكان الوقت قد قارب منتصف الليل ، فقمنا نحن أعضاء السفارة باستعمال سياراتنا في اتجاهات مختلفة للبحث عن " زقبير " ورفاقه ، وبعد جهد جهيد وجدنا المجموعة وهي مسترخية في أحد المطاعم الشعبية بدار السلام ، فشرحنا لهم الموقف وغادرنا جميعاً مرة أخرى إلى الميناء ، فوجدنا الموقف كما تركناه ، سيارات القوات المسلحة التنزانية مازالت تنتظر الضيوف.. السادة الخيول لترحيلهم إلى وطنهم الجديد.. فأسرع " زقبير " فور وصوله إلى الباخرة واقترب من الخيول التي كانت في المقدمة ، وبدأ يهمس في آذانها بصوت خافت لم يستطع أحد أن يتبين بأي لغة كان يتحدث إليهم وماذا كان يقول..

ولدهشة الجميع لم تمض دقائق إلا وبدأت الخيول جميعاً في النزول من ظهر الباخرة إلى أرض الميناء ، وبسهولة أكثر تمكن الجانب التنزاني من رفعها إلى داخل الشاحنات التي أعدت لذلك الغرض.. وتنفس الجميع الصعداء ، خاصة كابتن الباخرة الذي كان يخشى أن ينكشف أمر الباخرة نسبة للسرية التي أُحيطت بها من جميع الأطراف.

وبعد فترة من تلك الحادثة قابلني بعض أفراد الأمن التنزاني الذين كانوا مكلفين بالإشراف على تلك العملية ، وطلبوا مني باهتمام كبير أن أشرح لهم.. ماذا قال الجوكي زقبير للخيول في تلك الليلة حتى وافقت على النزول من الباخرة.. وعندما أجبتهم بأنني لا أدري ماذا قال ، ازدادت دهشتهم أكثر ورماني أحدهم بسؤال اكثر دهشة عندما قال : في أي دولة تدرب زقبير على المهام الأمنية بذلك المستوى؟ وبسرعة خاطر أجبته بأن ذلك من أسرار الدولة.



نائب الرئيس الوهابي



بعد عودة العلاقات بين السودان وتنزانيا إلى طبيعتها بعد أحداث ١٩٧١م ، قام نميري بزيارتين إلى تنزانيا ، كما قام الرئيس نيريري بزيارة للسودان ، وكذلك نائباً الرئيس في البلدين بزيارة للبلد الآخر.

وفي عام ١٩٧٣م ، وجه الشيخ " عبود جومبي " رئيس زنجبار ونائب رئيس تنزانيا الدعوة للمرحوم اللواء الباقر نائب رئيس الجمهورية للقيام بزيارة إلى تنزانيا ، وقد تولى الشيخ عبود ذلك المنصب بعد اغتيال الشيخ عبيد كرومي في عام ١٩٧٢م.

وأعد الجانبان برنامج الزيارة.. ولكننا فوجئنا بأن البرنامج الذي أعده الجانب التنزاني يتضمن قيام نائب الرئيس السوداني عند زيارته زنجبار زيارة قبر نائب الرئيس السابق عبيد كرومي الذي ترتبط ذكراه بإنهاء حكم وسيطرة سلطنة عمان على تلك الجزيرة.. عندما قام بالقضاء على الأسرة الحاكمة ، وكل الرموز العربية في تلك الجزيرة عام ١٩٦٣م ، وتمكن حزبه الأفروشيرازي من الاستيلاء على الحكم على أشلاء مئات الآلاف الذين ينتمون إلى العرق العربي، والذين ظلوا يعيشون في تلك الجزيرة جنباً إلى جنب مع مواطنيها الأصليين ذوي الجذور الأفريقية طيلة تلك الفترة.

وقد أحدثت ثورة كرومي على الحكم العربي في زنجبار رد فعل غاضبة أواسط الدول العربية ، واعتبرها البعض أندلس العرب الثانية ، وأبدت العديد من الدول

العربية – وخاصة الجامعة العربية – استياءها لمعاملة السكان العرب بالجزيرة ، ولكن كرومي سرعان ما تنبه إلى أن ذلك قد يؤدي إلى تهديد سلطته في الجزيرة ، خاصة وأن ذوي الجذور العربية مازالوا يشكلون النخبة المثقفة والمسيسة من أبناء زنجبار ، كالسياسي الأفريقي الكبير عبد الرحمن بابو ، ومحمد على فوم ، وعلى محفوظ ، وسالم أحمد سالم الأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الأفريقية.

فاتجه إلى الاتحاد مع تنجانيقا التي تقرب من شاطئ الجزيرة العربية في الساحل الشرقي للقارة الأفريقية ، والتي نالت استقلالها عام ١٩٦٠م ، بقيادة حزب تانو الذي كان يترأسه الزعيم الأفريقي الكبير يوليوس نيريري الذي وجد في انضمام زنجبار في اتحاد مع بلاده فرصة ذهبية لتقوية الدولة الوليدة ، والاستفادة من العناصر السياسية المتميزة في زنجبار ، إلى جانب وضعها الاقتصادي المتقدم نسبياً : إذ تعتبر في مقدمة الدول المنتجة للقرنفل والهيل والبهارات المختلفة في العالم.

وفي عام ١٩٦٤م ، أُعلن عن قيام الدولة الاتحادية بين زنجبار وتنجانيقا ، والتي أطلق عليها اسم جمهورية تنزانيا المتحدة ، والتي تمكنت من توفير غطاء دفاع وحماية للوضع الجديد في جزيرة زنجبار ، وبذلك اطمأن عبيد كرومي على استمراره في الحكم بتلك الجزيرة.

ولكن ذلك الاتحاد – وإن يكن قد وفر الحماية للجزيرة – لكنه لم يستطع حماية كرومي من غضب الجهات السياسية ذات الأصول العربية التي تمكنت من اغتياله عام ١٩٧٢م ، واختير الشيخ عبود جومبي خلفاً له في رئاسة الحزب الأفروشيرازي ، ونائب لرئيس جمهورية تنزانيا.

وأثناء عملي بسفارة السودان في تنزانيا ، نشأت بيني وبين الشيخ عبود جومبي علاقة خاصة ، وقد تعرفت عن قرب على شخصيته ، ولقد كان رجلاً

متفتحاً ذا ميول إسلامية ذات جذور أصيلة ، ولا يحمل عداءً للعرب مثل سلفة الشيخ عبيد كرومي.. وعندما قام بزيارة للسودان كان في مقدمة اهتماماته أن يقوم السودان بتوفير مدرسين للغة العربية والعلوم الإسلامية في جزيرة زنجبار. وقد وافق السودان في صمت على الالتزام بتوفير أولئك المدرسين الذين توجهوا إلى زنجبار فور انتهاء زيارته للسودان.

لقد قمت بسرد هذه الخلفية لكي أوضح مدى الحرج الذي أوقعنا فيه الجانب التنزاني عندما أصر على أن يتضمن برنامج زيارة اللواء الباقر إلى زنجبار زيارة قبر الشيخ كرومي ، وكنا بين الحرص على إنجاح الزيارة لدعم توجهات خلفه الشيخ جومبي ، وبين تفادي أن يقوم نائب رئيس دولة عربية بزيارة قبر الشيخ كرومي الذي سطر التاريخ قيامه بإنهاء وإبادة العرق العربي في تلك الجزيرة.

وبذلك وجدنا أنفسنا في موقف لا يحسد عليه.. خاصة وقد أخطرنا رئاسة الوزارة بأنها قد تضطر لإلغاء الزيارة إذا أصر الجانب التنزاني على ضرورة أن يقوم نائب الرئيس السوداني بزيارة قبر الشيخ كرومي.

وكنت آنذاك قائماً بالأعمال بدرجة مستشار ، يعاونني الأخ والزميل أحمد عبد الوهاب ، الذي يعمل الآن بمكتب المفوض السامي لشؤون للاجئين ، كسكرتير ثان وكنا الاثنان نعمل كفريق واحد ، وقد جمع بيننا إعجابنا بتجربة تنزانيا الاشتراكية، ورؤيتنا للبعد الأفريقي في توجهات السودان نحو القارة الأفريقية.

وجلسنا معاً نتدارس كيفية الخروج من ذلك المأزق ، حرصاً مناً على إنجاح الزيارة وتفادي أن يقوم نائب رئيس الجمهورية بزيارة قبر الشيخ كرومي.. تضامناً مع موقف بقية الدول العربية ، ومراعاة لشعور من جمعتنا بهم صداقة من أبناء زنجبار ذوي الأصول العربية ، وفجأة صاح الأخ أحمد عبد الوهاب قائلاً : وجدتها.. فاندهشت والتفت إليه سائلاً ماذا يقصد؟

فـرد على تسـاؤلي قـائلاً : بأن المخـرج من هذا المأزق هو أن ننقل إلى الجـانب التنزاني بأن نائب الرئيس السوداني من أتباع المذهب الوهابي.. وعلى الرغم من ذلك فإنني اعترف بأني لم أستطع أن أتفهم علاقة المذهب الوهابي بزيارة نائب الرئيس إلى زنجبار ، وعندما رأى تعجبي وعدم التقاطي للعلاقة.. استطرد قائلاً : بأن أتباع المذهب الوهابي لا يزورون القبور ، عند ذلك كدت أطير من الفرح وأبديت له إعجابي وتقديري لتلك الفكرة ، وكانت الساعة قد قاربت منتصف النهار ، وكانت الخرطوم ووزارة الخارجية التنزانية في انتظار الموافقة على البرنامج النهائي للزيارة.

وطلبت من السكرتيرة تحديد موعد عاجل مع السيد أمفينانقا مدير المراسم ، ولم تمض إلا دقائق حتى كنت في وزارة خارجية تنزانيا ، فقلت بجدية لا تخلو من الخبث لمدير المراسم : بأنني أطلب إلغاء الفقرة الخاصة بزيارة نائب الرئيس لقبر الشيخ كرومي ، لأن نائب الرئيس من اتباع الطريقة الوهابية التي تحرم زيارة القبور ، مع إضافة بعض العبارات التي تتضمن الأسف والاعتذار عن ذلك نسبة لحساسية الموقف.

ولدهشتي فقد أعرب مدير المراسم عن أسفه الشديد لعدم علمه بذلك ، وأبدى موافقته الفورية على إلغاء ذلك البند من برنامج الزيارة ، وكدت لا أصدق بأننا قد نجحنا – وفي اللحظات الأخيرة – من إزالة تلك العقبة لإنجاح الزيارة ، وأبرقنا الخرطوم.. وفي اليوم التالي ، وصل نائب الرئيس اللواء الباقر في زيارة كانت من أنجح الزيارات بين السودان وتنزانيا.



يوليو الأسود



بعد انقلاب يوليو ١٩٧١م ،عندما تمت الإعدامات الشهيرة لقادة الانقلاب ، والتي شملت زعماء الحزب الشيوعي السوداني ، كانت تنزانيا في ذلك الوقت مقراً لحركات التحرر الأفريقية ، وحركات التحرر العالمي ومركز الحركة اليسارية في إفريقيا.. لذلك استقبلت تنزانيا تلك الإعدامات بهجوم عنيف على السودان وعلى النميري شخصياً وقد قادت صحيفة " ديلي نيوز " هذه الحملة وكانت رئيسة تحريرها " مدام جنوالا " وهي بريطانية من جنوب إفريقيا ، ماركسية التوجه ، وقد كان " بنجامين مكابا" الرئيس الحالي لجمهورية تنزانيا سكرتيراً لتحريرها.

كان سفير السودان آنذاك مولانا القاضي ويلسون أريامبا وهو من أبناء الإقليم الجنوبي تخرج من ألمانيا الشرقية وكان يساري التوجه ، وتربطه علاقة خاصة مع "جوزيف قرنق " القطب الشيوعي المعروف آنذاك ، وقد تم تعينه سفيراً بالخارجية من ضمن مجموعة من السفراء السياسيين الذين قررت ثورة مايو احتلالهم لبعض المواقع في سفارات السودان بالخارج ، وكنت آنذاك سكرتيراً أولاً بالسفارة كان زميلي المرحوم الصديق السفير عمر شونه سكرتيراً ثانياً.

تعاطف ثلاثتنا مع انقلاب يوليو ١٩٧١م ، لعدة أسباب.. وقد قوى من ذلك التعاطف الأسلوب الذي به تم القضاء على ذلك الانقلاب ، والطريقة التي تمت به تصفية قادته.. وأهم من ذلك كله موقف تنزانيا من ثورة مايو ورئيسها الذي كانت له مكانة متقدمة في بداية الثورة في مختلف الأوساط في تنزانيا. وقد توقع

السفير أن لا يطول بقاؤه في منصبه بعد ذلك طويلاً.. أما أنا وزميلي المرحوم عمر شونه فقد راودتنا عدة أفكار.. مع ملاحظة أن كلينا لم يكن شيوعياً في يوم من الأيام ، وكان من ضمن تلك الأفكار اللجوء السياسي لتنزانيا.

ولكن بالطريقة السودانية ومبدأ " عفا الله عما سلف " ، وعدم التزامي والمرحوم شونه بحزب معين واحترامنا لقوانين الخدمة المدنية آنذاك.. ولأن همنا كان السودان عدلنا عن رأينا ، وبدأنا نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة السودان لدى تنزانيا خاصة وقد بدأ السودان حملة سياسية لتحسين صورته بعد أن تلطخت بالدماء في أعقاب ذلك الانقلاب ، ومن جانبنا فقد قمنا أن وزميلي المرحوم شونه بإقناع عدد من المثقفين اليساريين في دار السلام ، بأن ما حدث كان صراعاً داخلياً بين العسكر والمدنيين داخل الحزب الشيوعي السوداني ، وإن التقارب بين السودان وتنزانيا في هذه المرحلة قد يؤدي إلى تهدئة الوضع في السودان.

وقد صدق ظن السفير " أريامبا " فقد صدر بعد الأحداث مباشرة قرار بنقله من دار السلام وإعادته للعمل مرة أخرى بالسلك القضائي ، كما شملت التنقلات في الوزارة نقل المرحوم شونه ، وأصبحت القائم بالأعمال لفترة طويلة ، وقد أتاح لي ذلك الموقع مساحة من الحركة ، وبعد أن عادت الأوضاع إلى طبيعتها في السودان وقناعة مني بأهمية استمرارية ما تبقى من شعارات مايو " التقدمية " في دعم ومساندة حركة التحرير الأفريقية ولأن تنزانيا تحت قيادة الرئيس الراحل نيريري احتلت موقعاً قياديا في التصدي لقضية التحرير ، فقد رأيت إن إعادة العلاقات بين السودان وتنزانيا إلى طبيعتها بعد أحداث يوليو أصبح أمراً ضرورياً يعود بالمنفعة على السودان.

ومن هذا المنطلق رأيت أن يبادر الرئيس نميري بالقيام بزيارة إلى تنزانيا ، ومما شجعني على الاستمرار في تحقيق تلك الزيارة القبول الذي وجدته من

الجانب التنزاني في مناسبات مختلفة مما دفع بي إلى تقديم الاقتراح لرئاسة الوزارة بالخرطوم، وبذلك خرجت الزيارة إلى حيز التنفيذ بموافقة الطرفين وجاء نميري إلى دار السلام للمشاركة في احتفالات تنزانيا بعيد " سبعة سبعة " أي السابع من شهر يوليو وهو ذكرى تأسيس حزب "تانو " "Tano" الحاكم.

وكانت تلك الزيارة من أنجح زيارات رئيس سوداني لدولة إفريقية ، ونجحت في إذابة الجليد بين البلدين ، ومهدت الطريق لتبادل الزيارات على مستوى رئيس الجمهورية ونائبه ، والوزراء والوفود بين البلدين ، ووضعت اللبنة الأولى في إقامة علاقات ثنائية متطورة تشمل جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومع حكومة زينجبار بصفة خاصة ، وبعدها قام الرئيس نيريري بزيارة للسودان . كما قام نميري بزيارة أخرى لتنزانيا.

وقد أبدى البعض الاستغراب من الأسباب التي دفعت بنيريري إلى دعوة نميري لزيارة تنزانيا وهو في قمة تألقه في القارة الأفريقية ، ويتقدم القادة الأفارقة في العمل لتحرير المستعمرات الأفريقية ، ويعمل من أجل بناء اشتراكية تنبع من تقاليد وقيم الشعوب الأفريقية اعتماداً على الذات وعلى ثروات القارة الطبيعية.

إن نظام مايو بعد أحداث يوليو والقضاء على الحزب الشيوعي كان لا يزال يبحث عن هوية جديدة للنظام ، وأن هوية تنزانيا في ذلك الوقت كانت هوية لا شرقية ولا غربية تسعى لابعاد أفريقيا عن الصراع الدولي بين القوتين الأعظم . وتتبنى الاشتراكية الأفريقية (النظرية الثالثة) كمعادلة للصراع بين الشيوعية والرأسمالية وقد تتلاءم مع ظروف السودان السياسية بعد تلك الأحداث وتملأ الفراغ الذي أحدثه خلافه مع الحزب الشيوعي ، ولعل ذلك ما يبرر قيام نميري بزيارتين لتنزانيا في عامي ١٩٧٢م و١٩٧٤م.

ومن ناحية أخرى فإن ترحيب نيريري بالتقارب مع السودان قد يكون لنفس الدوافع والأسباب خاصة الموقع والثقل الذي كان يتمتع به السودان آنذاك بالمقارنة

مع عدد كبير من الدول الأفريقية الأخرى ، مما قد يجعل من نميري حليفاً ومسانداً له في توجهاته السياسية ، خاصة وأن كل الدول المستقلة وحركات التحرير في جنوب القارة التي تحيط بتنزانيا كانت تتحالف مع إحدى الدولتين الأعظم وتتبنى شعاراتها السياسية ونظام الحكم فيها ، إلا أن نظام مايو حتى بعد أحداث يوليو وقضائه على الحزب الشيوعي كان يعتبر في تلك الفترة نظاماً يسارياً لم يتحالف بعد مع الدول الغربية.



من يلجأ إلى من؟!!



في النصف الأول من السبعينات عندما كنت قائماً بالأعمال بسفارة السودان بتنزانيا وكانت حرب أكتوبر بين العرب وإسرائيل قد أحدثت بعض المتغيرات السياسية في المنطقة خاصة فيما يتعلق بنظرة الدول الإفريقية إلى الدول العربية ، وعلاقاتها مع إسرائيل وصلنا إخطار من رئاسة وزارة الخارجية بأن وفداً من منظمة التحرير الفلسطينية سوف يقوم بزيارة إلى تنزانيا ، لم يكن ذلك الخبر مفاجئاً لنا ، ولكن المفاجأة كانت في أن الوزارة طلبت منا بذل كل المساعي لإنجاح زيارة الوفد وتوفير كل الإمكانيات لذلك الغرض وأن تكون سفارة السودان بدار السلام هي مقر نشاط وتحركات الوفد.


الصديق د. امين مكي مدني

كان مرد تلك المفاجأة يعود ليس للعلاقات بين تنزانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية ولكن لعلاقة السودان بالمنظمة فقد تعرضت العلاقات بين الطرفين إلى توتر وتصعيد في أعقاب قيام بعض عناصر المنظمة في عام ١٩٧٣م ، باغتيال قنصل السفارة الأمريكية بالخرطوم في إحدى حفلات الاستقبال الدبلوماسية وقد تسبب ذلك الحادث في التأثير على علاقة السودان بالولايات المتحدة الأمريكية التي كانت في بداية تحسنها بعد أن قام نظام مايو بإعدام قيادات الحزب الشيوعي السوداني في أعقاب فشل إنقلاب الرائد هاشم العطا في عام

١٩٧١م ، ويبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية رأت عدم تصعيد ذلك الحادث حتى لا يؤثر على نظام مايو الذي كان يعتبر الحليف الرئيسي لنظام السادات في القاهرة الذي أدار ظهره للاتحاد السوفيتي السابق أبان الحرب الباردة.

إن الانتصار العربي العسكري في حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، قد اعتبرته معظم الدول الأفريقية بأنه انتصار لإحدى دول العالم الثالث ضد الدول الاستعمارية وهذا الشعور كان يعود إلى رصيد بعض الدول العربية كمصر والجزائر في دعم وتأييد حركات التحرير في الدول الإفريقية قد دفع بمد التأييد لقضية فلسطين في الدوائر الإفريقية وفتح لها آفاق التعاون مع حركات التحرير في إفريقيا.

وبما أن تنزانيا كانت في تلك الفترة تعتبر دولة رائدة في قيادة المد التقدمي اليساري في إفريقيا تحت قيادة الرئيس الراحل يوليوس نيريري وكان ذلك من الأسباب التي قررت بها منظمة الوحدة الإفريقية (الاتحاد الأفريقي حالياً) اختيار مدينة دار السلام لتكون مقراً للجنة التحرير الإفريقية التابعة للمنظمة ومنذ ذلك الحين قامت كل حركات التحرير التي تعترف بها المنظمة بفتح مكاتب وإقامة معسكرات لتدريب وتسليح كوادرها في مدينة دار السلام كما أصبحت دار السلام " ملاذاً آمناً " لعدد من الشخصيات والرموز " الثورية " من مختلف أنحاء العالم.

ولذلك فقد كان المسرح معداً لكي تحقق زيارة وفد منظمة التحرير نجاحاً كبيراً وتجد قبولاً من كل الأطراف وكان أصدق دليل على ذلك أنه عند وصول وفد المنظمة إلى مطار دار السلام برئاسة السيد/ فاروق القدومي " أبو اللطف " يرافقه السيد/ جمال الصوراني وعدد أخر من الكوادر الشابة في المنظمة كان الجميع في استقباله من المسئولين التنزانيين ولجنة التحرير الإفريقية وحركات التحرير والسفراء المعتمدين لدى تنزانيا.

ومن جانبنا فقد قامت السفارة بتنظيم ذلك الاستقبال وكان بحق استقبالاً رائعاً يعكس مدى التأييد والاحترام الذي كانت تتمتع به المنظمة في الأوساط

الإفريقية وقامت كل أجهزة الإعلام بتغطية ذلك الحدث خاصة المؤتمر الصحفي الذي عقده الوفد بدار السفارة السودانية فور وصوله وحظي الوفد بمقابلة الرئيس/ نيريري وزار مقر الحزب الحاكم " تانو " ومقر لجنة التحرير الإفريقية ومكاتب حركات التحرير المختلفة وجامعة دار السلام ودور النقابات المختلفة وكذلك الصحف المحلية.

وبعد انتهاء الزيارة أصبحت على السفارة مسئولية متابعة نتائجها وكان في مقدمتها وأهمها موافقة حكومة تنزانيا على فتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية بدار السلام أسوة بحركات التحرير الإفريقية الأخرى كما التزمت حكومة تنزانيا بتوفير المكاتب والسكن لأعضاء المكتب وتوفير المساعدات الأخرى التي تمكن المكتب من ممارسة نشاطه ، وكان ذلك يعتبر بكل المقاييس نجاحاً باهراً واعترافاً كاملاً بالمنظمة واحتراماً لمنظمة التحرير الفلسطينية داخل إفريقيا.

ولم يدر بخلدنا آنذاك أن كل ذلك النجاح سوف يصطدم بقضية جانبية لم تكن في الحسبان ولكنها صارت قضية ملحة بالنسبة لي وبالنسبة لبعثة المنظمة وللأخ الصديق د. أمين مكي مدني ، الذي كان يعمل آنذاك بمكتب المندوب السامي للاجئين بدار السلام التابع للأمم المتحدة.

فبعد مرور أيام من مغادرة الوفد الفلسطيني تنزانيا بعد أن حققت زيارته نجاحاً منقطع النظير وصلنا إخطار من وزارة الخارجية بأن أعضاء البعثة الفلسطينية بتنزانيا في طريقهم إلى دار السلام ووجهت الوزارة بتقديم كل المساعدات لأعضاء البعثة فطلبنا من وزارة خارجية تنزانيا تنفيذ الاتفاق مع وفد المنظمة خاصة ما يتعلق بتوفير مقر للبعثة ومنازل لسكن أعضاء البعثة.

وعند استقبالنا للبعثة بالمطار فاجأنا المسئولين التنزانيين بأنه نسبة لوصول أعضاء البعثة المفاجئ فإنها لم تتمكن من تخصيص دار لتكون مقر البعثة ومساكن

لأعضائها إلا أنني لم أفاجأ بهذا الموقف كما فوجئ بهذا الموقف أعضاء البعثة لأن حكومة تنزانيا بعد أن قامت بتأميم المنازل الخاصة في عام ١٩٧١م ، وكان أغلبها ملكاً للهنود والباكستانيين فقد بدأت تواجه مشكلة حقيقية في أعقاب تأميم المساكن والدور المختلفة.

وامتثالاً لتوجيهات وزارة الخارجية ونتائج زيارة وفد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تنزانيا وانطلاقاً من قناعتي بالقضية الفلسطينية وأهمية حشد التأييد الأفريقي لها فقد قررت استضافة أعضاء البعثة التي كانت تتكون من الأخ/فؤاد البيطار كممثل لمنظمة بتنزانيا وشرق أفريقيا وزوجته ، واثنان من معاونيه وأبدى المسئولين التنزانيين ارتياحاً لهذه المبادرة ووعدوا بأن يوفروا مقر البعثة ودور الإقامة لأعضائه في أقرب فرصة.

من المطار توجهنا مع أعضاء بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى منزلي بأحد ضواحي مدينة دار السلام ، وكان المنزل الذي خصصته لي حكومة تنزانيا بعد تأميم المنازل يتسع لي ولأعضاء الوفد خاصة وأنني لم أكن متزوجاً حينذاك ، ووجدت في الأخ فؤاد وزوجته ومعاونيه رفقة حسنة في تبادل الرأي والحوار حول القضية الفلسطينية والقضايا الإفريقية وأهمية وضرورة إقامة قاعدة عربية أفريقية مشتركة في مواجهة الدول الكبرى من أجل التحرير وقد كان يشاركنا في تلك الحوارات الأخ الصديق د. أمين مكي مدني الذي كان لصيقاً حسب مهنته بقضايا التحرير الإفريقية وأهمية أن يلعب السودان دوراً على الصعيدين العربي والإفريقي بحكم انتماءه المشترك للمنطقتين.

ومرت الأيام والأسابيع والشهور وثلاثتنا يومياً في طاولات الحوار وطاولات الطعام السوداني والفلسطيني والأفريقي وظلت البعثة تمارس نشاطها من سفارة السودان بدار السلام وظللت من جانبي و د. أمين مكي مدني من جانبه في

اتصالات متواصلة مع الجهات التنزانية لتوفير دار البعثة وسكن أعضاءها دون جدوى بالرغم من ثقتنا الكاملة بجدية تلك السلطات في ذلك المسعى وإلمامنا بالمصاعب الإدارية التي كانت تقف في طريق تحقيق ذلك.

وفي أثناء ما نحن في انتظار نجاح تلك المساعي اتصل بي الأخ/د. أمين وأفادني بأنه سوف يغادر في إجازته السنوية إلى السودان لمدة شهرين ومراعاة لظروفي وظروف البعثة الفلسطينية فإنه رأى أن ينتقل أعضاء البعثة الفلسطينية إلى منزله إلى حين أن تتمكن السلطات التنزانية من توفير السكن لهم ، فوجد هذا الاقتراح قبولاً من طرفي ومن الأخ فؤاد وزوجته ومعاونيه وقمنا بتنفيذه فور مغادرة د.أمين إلى السودان إيماناً منا بأن هذا سوف يعطي السلطات التنزانية وقتاً كافياً للوفاء بوعدهم بشأن مقر سكن أعضاء البعثة الفلسطينية.

ومر الشهر الأول والشهر الثاني دون أن تتمكن السلطات التنزانية من الوفاء بوعدها وبدأ أعضاء البعثة وشخصي بالشعور بنوع من عدم الارتياح للوضع الذي نعيش فيه.

وفجأة وبعد مرور شهرين وصلني إخطار من الأخ د. أمين مكي مدني بأنه سوف يصل إلى دار السلام وبرفقته زوجته وابنته ووجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه فقررت في ضوء تعثر السلطات التنزانية في توفير مقار إقامة أعضاء البعثة الفلسطينية من أن أطلب من الأخ فؤاد أسرته ومعاونيه إخلاء منزل د. أمين والعودة مرة أخرى للإقامة معي في منزلي مرة أخرى.

وهنا كانت المفاجأة التي لم نتوقعها فقد شكرني الأخ فؤاد على دعوته للإقامة بمنزلي وشكر الأخ أمين مكي على مبادرته لمنحهم داره للإقامة فيها لمدة شهرين ولكنه أضاف بأنه لن يغادر هذا المنزل الذي يتبع للمندوب السامي لشؤون اللاجئين التابع للأمم المتحدة ومع مراعاته لشعور الأخ أمين إلا أنه يود بهذا

الموقف أن يحث السلطات التنزانية والمندوب السامي لشؤون اللاجئين بصفة خاصة بمأساة الفلسطينيين اللاجئين وكان هذا الموقف بالنسبة لي صدمة كبيرة ليس فقط لأنه سبب لي وللأخ أمين إحراجاً ولكن لأنه فجر موقفاً سياسياً لا أنا ولا د. أمين طرفاً فيه وقد يصيب العلاقة الحديثة بين المنظمة وحكومة تنزانيا بتوتر لا داعي له.

وفي ضوء هذه التطورات اتصلت فوراً بالأخ أمين بالسودان وطلبت منه تأخير عودته إلى تنزانيا لمدة أسبوع ولم أفيده بأكثر من ذلك وعلى الفور طلبت موعداً عاجلاً مع وزير الخارجية التنزاني ولحسن الحظ فقد قامت إدارة المراسم بتحديد ذلك الموعد في ظرف قصير.

عند لقائي بوزير الخارجية الراحل " جون مارا شيلا " وهو من رواد الحركة الوطنية الإفريقية شرحت له الموقف بكل تفاصيله وأبعاده فأبدى الرجل تفهماً كاملاً لكل أبعاد الموقف ووعد بأنه في ظرف أربعة وعشرين ساعة سوف يجد حلاً له.

ولقد كان وبعد يومين من مقابلتي لوزير الخارجية اتصلت بي وزارة الإسكان وأفادتني بأنها قد خصصت داراً لمقر بعثة منظمة التحرير الفلسطينية ومنزلاً لسكن أعضاء البعثة وقبل عودة الأخ د. أمين كان الأخ فؤاد ومعاونيه قد استقروا في الأماكن التي خصصتها لهم السلطات التنزانية وبذلك انتهت معاناة جميع الأطراف وبدأت بعثة المنظمة في ممارسة مهامها.

والآن وبعد مرور قرابة الثلاثين عاماً على تلك الحادثة وأكثر من نصف قرن على احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية والتجارب المختلفة التي عاشتها منظمة التحرير الفلسطينية مؤخراً من " مدريد " إلى " أوسلو " إلى الانتفاضة الأولى والثانية وما آلت إليه السلطة الوطنية الفلسطينية على أيدي " شارون "

بدعم وتأييد " بوش " فإنني بدأت أنظر إلى تلك الحادثة من زاوية أخرى وأتساءل عن ما كان يكون عليه الموقف في الأراضي الفلسطينية اليوم إذا استطاع الشعب الفلسطيني عند بداية احتلال اليهود للأراضي الفلسطينية أن يتعامل مع قضية الأرض والأبعاد والهجرة بنفس الأسلوب الذي تعامل به الأخ فؤاد البيطار مع قضية مقر وسكن بعثة المنظمة في دار السلام مع الأطراف المختلفة قبل ثلاثين عاماً.



السفير.. الإنسان



التقيت بالمرحوم السفير النور على سليمان مرات قليلة قبل أن نعمل معاً في سفارة واحدة ، عندما وصل إلى دار السلام سفيراً للسودان لدى تنزانيا في عام ١٩٧٣م منقولاً من سفارة السودان بلاغوس بنيجيريا ، إلا أنني كنت أسمع اسمه يتردد من حين إلى آخر في " الونسة " الخاصة مع الصديق السفير المرحوم عبد الكريم ميرغني ، وكان يحتفظ له بنوادر طيبة.

وبما أنني كنت قد توليت مسئولية الأشراف على السفارة لفترة طويلة منذ أن تم نقل السفير السابق مولانا ولسن أريامبا بعد أحداث ١٩٧١م ، فقد كنت أخشى أن اصطدم بالسفير الجديد في إدارة السفارة ، وفي الخط السياسي الذي سرنا عليه في الفترة الماضية، ولكن سرعان ما تبددت مخاوفي ، ووجدت الرجل زاهداً في كل شيء إلا في محبة الناس والوفاء لأهله ولأصدقائه.

وتوثقت علاقتي به وبأسرته الكريمة ، وبدأنا نعمل كفريق واحد وتمكنا من إنجاز العديد في مجال تقوية وتطوير العلاقات بين السودان وتنزانيا ، كان في مقدمتها زيارة نميري الثانية لدار السلام ، والتي أحدثت نقلة نوعية في تلك العلاقات ، وصار السودان من حلفاء تلك الدول الأقوياء في القارة الأفريقية ، مما دفع بالرئيس نيريري للقيام بأول زيارة لرئيس تنزاني إلى السودان.

ولعل أكثر ما شدني لشخصية المرحوم النور.. علمه الغزير وسعة إطلاعه وتواضعه الجم ، وبساطته الفطرية ، ومجالس أنسه التي لا تمل.. الغنية بالفكر

والأصالة والموضوعية ، وقبل كل ذلك ، سودانيته المتأصلة وارتباطه بتراب الوطن حتى النخاع وهذه الصورة قد لا يراها من يشاهده يرتدي زي الجولف ، تلك الرياضة التي يمارسها بانتظام ويجيدها إجادة تامة ، وتعني بالنسبة له راحة يغسل فيها هموم العمل والمسئولية.

وأثناء تلك الفترة تصادف أن تزامنت إجازة عيد الأضحى المبارك مع إجازة نهاية الأسبوع ، فقررت أن أقضيها في مدينة ممباسا بكينيا التي تبعد ساعات بالطريق البري من مدينة دار السلام ، وبما أن تعليمات الوزارة كانت تتطلب الحصول على موافقة رئاسة الوزارة المسبقة قبل السفر إلى خارج منطقة التمثيل ، إلا أن الرجل وافق أن يتقاضى عن ذلك نسبة لضيق الوقت ، كما أنه سمح لي باستعمال سيارة " الخدمة " التابعة للسفارة في هذه الرحلة ، لأني لم أكن أمتلك سيارة خاصة بي.

وذهبت إلى ممباسا تلك المدينة الساحرة التي يمتزج فيها الدم الأفريقي بالدم العربي وتشم فيها عبير تاريخ الحضارة العربية في ذلك الجزء من العالم ، وتجولت داخل المدينة وزرت منطقة " ماليندي " على ساحل المحيط الهندي التي تمتاز بوجود أطلال من فن العمارة العربي ، وقد أضفت على الميناء والسفن من جميع أنحاء العالم بعداً آخر يجعلها محببة لكل طيف وكل لون.

وبعد أن أمضيت عطلة لا تزال ذكراها وصورها ورائحتها باقية حتى الآن ، قررت العودة إلى دار السلام.. وأنا في طريق عودتي بعد أن تراءت لي دار السلام من البعد وقد بدأت ثرياتها تضيء وتتوهج مع دخول الليل.. ولم تتبقى إلا دقائق معدودة لندخل المدينة ، إذ بي أرى أمامي فجأة شاحنة متعطلة في منتصف الطريق ، دون إشارات ضوئية ، وهي تحمل ألواحاً من النحاس في طريقها من زامبيا إلى ميناء دار السلام ، وكان أمامي خياران : أما الاصطدام بمؤخرة

الشاحنة ، وقد يتسبب ذلك في إلحاق الأذى بشخصي أو بالسيارة ، أو أن أنحرف بها عن الطريق مما قد يؤدي إلى خروجها عن مجرى الشارع.. وفي تلك اللحظة الحاسمة قررت أن أنحرف بها عن الطريق ، وحاولت بقدر الإمكان السيطرة على القيادة حتى لا تخرج السيارة من يدي..

ولكن على الرغم من المجهود الخارق الذي بذلته لم أتمكن من السيطرة التامة على سرعة السيارة ، مما أدى إلى اصطدامها بالإطارات الخلفية للشاحنة ، وجعلها تحيد عن الطريق العام فتراقصت السيارة يميناً ويساراً مما أبطأ سرعتها واصطدمت بحواجز الطريق ، وانقلبت على واجهتها وتحطم الزجاج الأمامي وبعض جوانبها.

وعندما أفقت من الصدمة وجدت أنه قد أصابتني خدوش طفيفة في ساعدي الأيمن وكان ذلك كل حصيلة تلك اللحظات السوداء التي لولا لُطفُ الله بنا لكنّا ومن معي بالسيارة جميعاً في أعداد الموتى وقد اخترقت ألواح النحاس أحشائي كما حدث لدبلوماسي أفريقي قبل فترة في نفس الظروف.

وفجأة تذكرت ما قد يكون عاقبة هذا الحادث ، خاصة وإنني لم أتحصل على إذن بمغادرة تنزانيا ، وأن السيارة التي تهشمت تابعة للسفارة ، فانتابني ندم عظيم.. لأنني قد أتسبب في ضرر لا يلحق بشخصي فقط ، بل بالرجل الكريم الذي غمرني بعطفه ولطفه وأريحيته.. وأصبح ذلك مصدر همي وقلقي ، إلى أن وصلت منزلي بدار السلام بعد تكملة الإجراءات مع الشرطة حول الحادث.

وفور وصولي إلى المنزل قررت أن أتصل بسعادة السفير ، وأذهب إلى منزله لأشرح له ما حدث وأتحمل المسئولية كاملة حيال ذلك ، وعندما أجابني على الهاتف طلبت الموافقة على حضوري إلى منزله لأمر هام - وكانت الساعة العاشرة والنصف مساءً - فأخبرني بهدوء بأن هنالك بعض السفراء في دعوة للعشاء

بمنزله ، وقد اقترب الحفل من النهاية.. وأنه سوف يحضر إلى منزلي فور مغادرتهم.

وبدأ الوقت يمر ببطء قاتل ، واللحظات تبدو ثقيلة كالدهر وأنا أقلب الأمور من أعلى إلى أسفل فلا أجد لنفسي غير اللوم والتقصير والإصرار على تحمل المسئولية الكاملة ، ومواجهة الموقف بشجاعة : على أنه قدر محتوم ، وألا أتسبب في أي ضرر أو مسئولية قد تلحق بذلك الرجل الذي لم يرغب إلا في مساعدتي في قضاء إجازة سعيدة.

ولم تمض إلا نصف ساعة إلا وسعادة السفير في باب داري ، وهو يبتسم.. وكان لا يزال يرتدي بذلة العشاء الرسمية.. فرأي ملابسي مغّيرة وبقعاً من الدم على ملابسي ، واعتقد أن وجهي كان أسود من ذلك الليل الكالح في سماء دار السلام ، فسألني بطريقة أبوية محببة ماذا هناك يا ابني؟ أتمنى أن تكون بخير؟

فعالجت ما علق في حلقي من عبرات ، وكادت دموعي تفضحني.. وباختصار شديد شرحت له كل ما حدث ، وعمدت في النهاية أن أؤكد له بأنني أتحمل كل المسئولية ، ولم يلتفت الرجل الكبير إلى ما قلت ، وقال : طيب أنت شايل هم ليه؟؟ وفي شنو؟؟ الحكاية بسيطة جداً ، والسيارة حديد ممكن تصليحها ، أو شراء غيرها ، المهم أنت بخير ومن معك بخير ألف حمد لله على السلامة ، وأحسن تنوم طوالي لأن شكلك تعبان ، إلى أن نلتقي في الصباح وغادر المنزل مباشرة.

وكدت لا أصدق أن ذلك الكابوس قد انقشع ، وأن ذلك الليل الكالح قد انبلج عن صبح أغر ، ونسيت كل ما حدث في مساء ذلك اليوم ، وتوثقت أمامي صورة ذلك الرجل وتساءلت كم من أمثاله في هذه الحياة ، وكم من أمثالي حالفهم الحظ في اللقاء والتعرف على طيب معدنه ورقة شعوره وإنسانيته التي تتدفق على جميع من حوله.

ومرت شهور بعد ذلك الحادث.. وقامت شركة التأمين بشراء سيارة جديدة للسفارة بدلاً من التي تحطمت في الحادث ، وغادر السفير إلى الخرطوم في مهمة رسمية وعندما عاد أخبرني بأن شخصاً خبيثاً قد نقل لرئاسة الوزارة ذلك الحادث بصورة مشوهة.. فقد قام المسئولون في الوزارة باستجوابه عن الحادث وظروفه ، ولماذا سمح لي باستعمال السيارة الرسمية ومغادرة منطقة التمثيل؟.

وعندها انتابني شعور بالذنب وتأنيب الضمير فسارعت بمقاطعته قائلاً : لماذا لم تخبرهم بأنني أنا الذي أخطأت وأتحمل المسئولية ، فرد على ببساطة قائلاً: لقد أخبرتهم بأنك كنت في مهمة رسمية داخل تنزانيا ، ولذلك قمت باستعمال السيارة الرسمية ، كما أن الحادث قد تم داخل منطقة التمثيل. وكانت تلك اللحظات من أنبل وأجمل اللحظات التي اختلطت فيها مشاعري بين الإعجاب والاحترام والتقدير لذلك الكبير الذي أحببت.تجدر الاشارة هنا إلى أن العلاقات بين السفراء والدبلوماسيين والإداريين في بعض السفارات تشهد صراعاً وخلافات تؤدي إلى الاضرار بالعلاقات الإنسانية بينهم من جانب وإلى خلق وضع داخل السفارة تكون له آثار سلبية على أداء السفارة ولاتعكس حقيقة العادات والتقاليد السودانية التي يتميز بها أبناء السودان من غيرهم.

أعتبر أنني كنت محظوظاً لأن كل السفراء الذين عملت معهم في السفارات بالخارج الأحياء منهم والأموات غمروني بعطف ورعاية، وتعلمت منهم الكثير وأفادوني في مسيرة العمل الدبلوماسي وسأظل أعترف لهم بالعرفان ماحييت.



حتى لو تكون نميري




السفير جمال محمد احمد

أصبحت وزارة الخارجية في السبعينات مؤسسة لها وضع خاص في هيكل الدولة ، لا يقل عن رئاسة الجمهورية وجهاز الأمن القومي والقوات المسلحة، ولقد لعب الدكتور "منصور خالد" عندما تولى منصب وزير الخارجية في بداية العهد "المايوي" دوراً هاماً في انتزاع ذلك الوضع لوزارة الخارجية ، وفي نفس الوقت أصبح لوزير الخارجية أو لمنصور خالد وضع خاص بين بقية الوزراء في ذلك الوقت ، ولا أحد ينكر ان د. منصور خالد بكفاءته ومؤهلاته وأدائه المميز في المواقع المختلفة التي احتلها في ذلك العهد.. استطاع أن يؤكد أحقية ذلك الوضع لشخصه ولوزارة الخارجية.

وفي عام ١٩٧٦م كنت أتولى منصب مدير الشئون السياسية برئاسة الوزارة.. وكان وزير الخارجية آنذاك المرحوم العم "جمال محمد احمد" ، وفي ذلك الوقت كان هنالك تقليد بأن يعود الوزير والوكيل ومديرو الإدارات إلى العمل في المساء خاصة أعضاء المكتب التنفيذي لوزير الخارجية لإعداد "التقرير اليومي" الذي كان يوقعه وزير الخارجية ، أو وكيل الوزارة عند غياب الوزير ، ويرسل للرئيس "نميري" أينما كان.

وكان ذلك التقرير من التقاليد التي استحدثها د. منصور خالد ضمن مهام وزارة الخارجية الأخرى.. وأصبح ذلك التقرير محبباً ومفيداً ، لأنه أثار نوعاً من التنافس وشحذ هِمم السفراء بالخارج للحصول على المعلومات "الطازة" التي يمكن ان يتضمنها تقرير الرئيس ، ولقد تردد أن الرئيس نميري قد "أدمن" قراءة التقرير قبل ان يذهب إلى فراشه في الليل ، وصار يسأل عنه إذا تأخر بسبب او لآخر حتى أصبح يعرف "بالحبة" المنومة للرئيس.

وأصبحت العودة إلى الوزارة لفترة قصيرة في المساء جزءاً من النشاط اليومي لمديري الإدارات المختلفة ، خاصة وأن الجو يكون عادة معتدلاً في المساء وتنقطع الزيارات "والونسة" التي كانت ظاهرة أغلب الدواوين الحكومية ، ويستطيع الشخص ان يؤدي العديد من الأعمال الرسمية والشخصية في جو هادئ يمكّن من التركيز في المواضيع الهامة ، كما كانت فرصة لمناقشة بعض القضايا مع الوكيل ، أو الوزير التي تتعلق بأداء الوزارة والعاملين وقضاياهم.

في أحد الأمسيات طلب الوزير "جمال " من عامل التلفون وكان يدعي "المصري" -رحمه الله - ويبدو أنه قد حاز على هذا الاسم لأنه كان يتكلم باللهجة المصرية دائماً فرد عامل التليفون على الوزير بأنني لم احضر المكتب بعد ، فطلب منه أن يتصل بالمنزل ويطلب مني الحضور.

وكنت أسكن بمنزل الأسرة بأم درمان ، وكانت والدتي الحاجة "فاطمة عبد الرحمن" -رحمها الله - تحبني كثيراً ككل الأمهات ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك ، كانت تعتقد أن النوم - وخاصة نوم أحد أبنائها - "عبادة" ، لا تريد أن توقظهم منه ، أو تدع أحداً يقوم بذلك.

وعندما اتصل عامل التليفون بالمنزل ردت عليه والدتي ، وعندما سأل عني أخبرته بأنني نائم ، فطلب منها أن توقظني فردت عليه بأنها لا تريد أن توقظني..

فنقل ذلك إلى العم جمال.. فطلب العم جمال منه أن يوصله بمنزلنا.. فردت عليه الوالدة أيضا.. وسأل عني فردت عليه بأنني نائم.. فطلب منها أن توقظني فرفضت.. فقال له "أنا جمال محمد احمد وزير الخارجية " أريد أحمد في شغل هام.. فردت عليه بأنها لن توقظني حتى ولو كان المتحدث نميري شخصياً.

وعندما استيقظت متأخراً قليلاً ، أخبرتني الوالدة بأن ناس الوزارة اتصلوا عندما كنت نائماً وطلب الوزير إيقاظي من النوم ، لكنها رفضت فعاتبتها برقة وذكرت لها أنها كان يجب أن توقظني لأن هذا عملي ، ولكنها أبدت عدم موافقتها على ذلك.. وبسرعة ارتديت ملابسي وهممت بمغادرة المنزل إلى الوزارة.. وفجأة سمعت طرقاً على الباب فأسرعت أرى من الطارق ، فإذا به السيد جمال محمد احمد - الوزير شخصياً.

وعند ذلك أدركت فداحة الموقف الذي اتخذته والدتي بعدم إيقاظي ، وتيقنت أن الوزير جاء ليعاتبني على التأخير وعدم الرد على مكالماته ، وبدأت في إبداء الاعتذار والأسف عما بدر من والدتي ورفضها إيقاظي من النوم ، وذكرت له بأنني على استعداد للذهاب للوزارة إذا كان هناك ما يتطلب ذلك ، خاصة وأن الوقت لم يتجاوز بعد الساعة التاسعة مساءً.

وكنت أتحدث إلى العم جمال ، ولكنه كان يبدو عليه عدم الاهتمام بما كنت أقوله وعندما توقفت عن الكلام التفت إليّ وقال لي "أريد أن أهنئك بهذه الأم العظيمة.. وأنا حضرت خصيصاً إلى المنزل لأقدم لك التهنئة بهذه الأم التي لا يهمها في هذا العالم خلاف أن تطمئن على راحة ابنها ، ولا يهمها بعد ذلك وزير أو رئيس.. ولذلك حضرت لأتشرف بمقابلتها وأن أشرب معها فنجان قهوة.."

في البداية اعتقدت أن "العم جمال" كان يمزح أو يمارس أسلوبه المعروف في الكتابة التصويرية لإخراج هذه "الكوميديا" بالصورة التي تليق "بالحبكة" الروائية

التي كان العم جمال يجيدها ، ولكن بعد فترة بدا لي واضحاً انه كان جاداً ، وفعلاً عدت إلى داخل المنزل وطلبت من الوالدة أن تحضر للسلام على العم جمال ، وأن تبدأ في تحضير قهوة "أم درمانية" لكي نشربها معاً.

وهذه القصة في اعتقادي لوحة تعبيرية تركز على شخصية العم جمال وتقديره للأم ودورها في إسعاد أبنائها ، وإلى مقدرته في الفصل بين العمل "والعلاقات الإنسانية".. وإلى أسلوبه الواقعي في التعامل مع الأشياء والوصول إلى غاياتها وأبعادها المختلفة ، وإلى روح المودة والدعابة التي كانت جزءاً هاماً من شخصيته ، تجعله قريباً من القلب كما كانت كتاباته ، والجمل القصيرة التي اشتهر بها ، تجعل تلك الكتابات سهلة الهضم والاستيعاب.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الحادثة تعكس العلاقات بين العاملين في العمل العام في تلك الفترة.. التي تقوم على الإقدام والفهم المتبادل للأبعاد المختلفة في العلاقات الإنسانية دون "بكش" او "مسح جوخ" كما يقولون.. كما أنها تعكس حرية الرأي بالنسبة للحاجة الوالدة واطمئنانها بأن لا هي ولا ابنها لن يكونا فريسة للمساءلة من المسئولين في الدولة ، أو أجهزة الأمن كما صار لاحقاً.. ولذلك كانت الخدمة المدنية معافاة من كل الشوائب.. وسترشد فقط بمصلحة العمل ومصلحة الوطن دون خوف أو خشية من مسئول أو عقاب، واكتسب بذلك السودان تلك السمعة الحسنة في هذا المجال ، وفتحت لأبنائه الأبواب لكي يحتلوا المناصب الإدارية في الدول الأخرى ،وفي المنظمات الدولية.



تريزا السودانية



إذا عاشت في الدول الغربية كان قد أطلق عليها لقب "الناسكة" أو "القديسة" ولكننا منذ الصغر نناديها بالحاجة "جواهر". وهى (رحمها الله) خالة والدتي ولدت وترعرعت في مدينة "بربر" (١) من سلالة أسرة محمود رأفت (رحمه الله).

وقامت الحاجة جواهر بأول زيارة لها خارج مدينة بربر.. عندما زارت الخرطوم في بداية الستينيات ، ولقد أدهشها ونال إعجابها التلفون وسيارات الأجرة "التاكسي" ولونها الأصفر وكثرة عددها ، ولبساطتها فإنها كانت تعتقد أن شخصاً واحداً كان يمتلك كل تلك السيارات وكانت تدعو قائلة "اريتو سيد التاكسيات ده ولدى ألداه من بطني" ، كما أعجبت أيضا بإشارات المرور الضوئية التي تعمل بالعين السحرية والتي تستطيع أن تجعل أي شخص يحترم قرارها ويتبع أوامرها..

والحاجة "جواهر" لم تتزوج في حياتها ، وعندما انتقلت إلى رحاب ربها لم تترك شيئاً خلفها غير الذكرى الحسنة والدعوات الصالحات لها بدخول الجنة ، ولم تمتلك في حياتها إلا رداءً وثوباً من " الدمورية " و" شبشباً " متواضعاً يغطى رجليها كانت تنتقل به من منزل إلى آخر ، تتفقد أهلها وجيرانها ، ولا شئ غير ذلك.

وكانت عندما تزور إلى الخرطوم.. تقيم مع ابن أختها الخال العزيز محمد عبد الرحمن محمد صالح الذي كان يعمل مديراً بشركة شل في الخرطوم ، ويمتلك

---

(١) بربر : مدينة مشهورة بمحافظة النيل شمال عطبرة بشمال السودان.

سيارة "هيلمان" فاخرة يقودها سائق له زي خاص ، كما أن بمنزله أحد الأشياء المحببة للحاجة "جواهر" ، وهو جهاز التلفون الذي تستطيع أن تتحدث به مع أهلها في مدينة بربر عندما تكون بالخرطوم ، وكان ذلك بالنسبة لها يمثل سحراً خاصاً ومصدر سعادة فائقة.

وللحاجة "جواهر" نوادر لا تحصى.. كلها تعكس بساطتها وطيبتها وسذاجتها وقلبها الطيب الأبيض الكبير الذي لا يحمل إلا الخير لكل الناس ، ومن أشهر نوادرها والتي صارت حقيقة علمية بعد وفاتها.. أنه بعد انتهاء أول زيارة لها للخرطوم -وكانت عائدة إلى بربر - سألها الخال محمد عبد الرحمن ما تحتاج إليه لكي تأخذه معها إلى بربر فقالت له : (يا محمد وياود سيدة أختي ما عاوزة إلا تلفون زي بتاعكم ده أخته في قفتي دي ، وكلما أتذكركم أتكلم بيه معاكم).

وقد اشتهرت هذه النادرة.. وكلنا كنا نضحك من جهلها بأن التلفون لا يعمل إلا عن طريق الأسلاك والبطاريات.. ولكن ما هي إلا سنوات وقد تحققت أمنية الحاجة جواهر وظهر التلفون "النقال".. الذي كانت إذا مد الله في عمرها.. تستطيع أن تضعه في "قفتها" أو تحمله في يدها..

اشتهرت الحاجة "جواهر" في أوساط العائلة ، بأن لديها مهارة فائقة في معرفة ما يمكن أن يحدث في المستقبل عن طريق "رمي الودع" ، وكانت كلما ذهبت إلى أحد المنازل طلبوا منها أن تقرأ لهم المستقبل ، وكان البعض يعتقد أنها فعلا "موهوبة" في هذا المجال وأن نجاحها في هذا المجال عوضها الكثير عن جهلها ببقية أمور الدنيا.

وأذكر جيداً أن كل أفراد الأسرة قد تجمعوا في غداء عائلي بمنزل الخال محمد عبد الرحمن في يوم الاثنين ١٩٧٦/٧/١٥م ، وفي العصر ونحن نجلس في "الحوش" الرجال بجانب يتحدثون عن السياسة ، والنساء بجانب آخر يتبادلن

"الخبارات" و"القطيعة" وقد تجمعوا حول الحاجة "جواهر" وطلبوا منها أن ترمي الودع لكي يعرفوا من سيسافر ، ومن سوف يترقى.. ومن سوف تتزوج ، ومن سوف تضع بنتاً او ولداً ، وفعلاً استجابت لرغبتهم.. وصرنا من حين إلى آخر نسمع صيحات الإعجاب من تجمع النساء.

وفجأة نادت حاجة جواهر بأعلى صوتها "يا أحمد ود فاطنة" هكذا كانت تناديني باسم والدتي(الحق الحق حكومة نميري طارت! والدم سال في الشوارع والرصاص).. وفي تلك الأثناء كنت أعمل مديراً للإدارة الأفريقية برئاسة الوازرة.. وكانت الحاجة جواهر تشاهدني في الصحف أو في التلفزيون ، وتعتقد بأنني الشخصية الثانية في الدولة بعد الرئيس نميري.. ولذلك وجهت حديثها إلى شخصي ، فأبديت نوعاً من الانزعاج لكي أرضيها وعدت إلى مكاني مع مجموعة الرجال واستمر الحديث..

ومرة أخرى نادت حاجة جواهر بأعلى صوتها (يا أحمد ود فاطنة الحمد لله نميري حيرجع بعد ثلاثة أيام..) ، فشكرتها هذه المرة وحمدت الله أن الموضوع قد انتهى وواصلت جلستي إلى أن أنفض الجميع.

كما ذكرت سابقاً ، أن تلك الجلسة مع حاجة جواهر كانت يوم الاثنين ١٥ يوليو ١٩٧٦م ، وفي مساء الخميس ١٨ يوليو ذهبت إلى الخرطوم ، وكنت قد تعودت أن أسهر هناك لقضاء ليلة الخميس بمنزل شقيقي المرحوم "عبد العزيز دياب" بالمنطقة العسكرية برئاسة القوات المسلحة.. ولكنني ذلك اليوم قررت أن أعود مبكراً إلى أم درمان اتعشى "فول" وأنام مع الحاجة الوالدة بمنزل الأسرة بحي الملازمين بأم درمان وقد كان.

وقبل أن يشرق الصباح - وأنا نائم بالحوش - سمعت صوت انفجار مدو كاد يرمى بي من السرير.. فنهضت منزعجاً ، وبعد ذلك بدأت اسمع تراشقاً بالبنادق

والمدافع ينبعث من اتجاه الإذاعة ، فأسرعت إلى الشارع.. وعلى الرغم من أن الشمس لم تشرق بعد إلا أنه لم تمض لحظات إلا واكتظت منطقة الإذاعة والتلفزيون بالآلاف من الناس التي كانت تريد أن تعرف ماذا يجري.

وبعد ساعات بدأت الصورة تتضح : بأن هنالك محاولة انقلابية تسندها قوات من الخارج.. وهى كما بدأ يعرف في أدب السودان السياسي لاحقاً "الغزو الأجنبي" أو حركة "محمد نور سعد" رحمه الله، وكعادة أهل السودان.. بسرعة بدأت الاتجاهات والمواقف تعلن من تلك الحركة.. وكانت الأغلبية تعتقد بأن "نميري" لن يفعلها هذه المرة أي انه لن يستطيع الصمود هذه المرة ، كما صمد في "انقلاب هاشم العطا" في يوليو ١٩٧١م.

وفجأة وأنا في الشارع استمع إلى مختلف الآراء والتمنيات والسيناريوهات تذكرت جلسة يوم الاثنين بمنزل الخال "محمد عبد الرحمن" وقراءة "الودع" للحاجة جواهر وتذكرت بوضوح ما قالته : بأن حكومة نميري سوف تسقط.. وأنها أعادت مرة أخرى "بأن نميري سيعود بعد ثلاثة أيام".

وظللت لفترة طويلة بين مصدق لما بدأت أراه بعيني في الشوارع ، وفي منطقة التلفزيون من سيطرة "القوات الأجنبية" والإمكانيات المتوفرة لها ، وما سمعناه من أخبار في منطقة وادي سيدنا والشجرة ورئاسة القوات المسلحة بالخرطوم ، وبين ما قالته الحاجة "جواهر".. وأخيراً قررت "الانحياز" للحاجة جواهر.. وبدأت أتحدث بصوت مرتفع بأن هذه الحركة سوف تفشل ، وأن نميري سوف يعود إلى السلطة.

وقد وجد هذا الرأي الترحاب والتأييد من أنصار" مايو" ، والاستنكار والرفض من أنصار "التغيير".. بل تعجب البعض من الثقة التي كنت أتحدث بها على الرغم من أن ما كنا نراه أمامنا وما سمعناه من انتصارات القوات الأجنبية.. يؤكد بأنني

في الاتجاه الخاسر.. ولكنني بدوافع لم أدرِ لها معنى.. كنت موقناً ومطمئناً بأن نميري سيعود.. وفعلاً تحققت نبوة "الحاجة جواهر" وأطل نميري منتصراً من أجهزة الإعلام بعد ثلاثة أيام و"إندحر" الغزو الأجنبي ، وهلّ يوم العودة العظيم.

وبعد شهر تقريبا من هذه الأحداث ، كنا في حفل غداء تقليدي أقامه وزير الخارجية بفندق "مريديان" وداعاً لأحد السفراء بمناسبة انتهاء فترة عمله بالسودان.. ولقد جمعتني طاولة الغداء التي كنت أجلس عليها مع عدد من السفراء ، كان من بينهم سعادة "عباس سايكس" سفير تنزانيا بالسودان . وكانت هذه الدعوات تشمل كل المديرين العاملين ، ومديري الإدارات المختلفة بالوزارة ، والسفراء الأجانب المعتمدين بالخرطوم.

وكانت الخرطوم في تلك الفترة من أحسن المواقع الدبلوماسية للدبلوماسيين الأجانب محطة غنية للعمل الدبلوماسي إذ كان الدبلوماسي يعمل في بيئة تساهم في نجاح عمله ، فقد كان مجتمع الخرطوم مجتمعاً مفتوحاً ، والأجانب يتمتعون بحرية تامة في الحركة ، والاجتماعات مع كافة المسئولين وفي مختلف المناصب . ولقد التقيت بالعديد من الدبلوماسيين الذين عملوا بسفاراتهم بالخرطوم ، وكانت انطباعاتهم عن السودان والسودانيين تفوق الوصف.. من حيث التواضع والكرم والكفاءة والثقافة واتساع الأفق.

ولقد تعرفت على السفير "عباس سايكس" سفير تنزانيا بالسودان في ذلك الوقت عندما كنت أعمل بسفارة السودان بدار السلام في بداية السبعينات . وهو من أسرة عريقة مسلمة ، وقد شغل عدد من أخوته وأقرباؤه مناصب مختلفة في الدولة ، وقد لاحظت من خبرة عملي بكينيا وتنزانيا أن المسلمين في هذه المناطق بشرق إفريقيا.. يؤمنون بالسحر والعمل والشياطين ، ويمارسون هذه الاعتقادات بصورة كبيرة ويسمون هذا الضرب من الاعتقادات "الجوجو".

وأثناء الغداء - ونحن نجلس على الطاولة - كان معظم الحديث يدور عن أحداث الغزو الأجنبي.. والسفراء كعادتهم كانوا يحاولون الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن تلك الأحداث لنقلها إلى حكوماتهم ، وقد انتهزت هذه الفرصة وتجرأت وبدأت أحكي لهم قصة هذا الغزو ، وكيف تنبأت به الحاجة "جواهر" قبل حدوثه بأيام أصغى الجميع باهتمام وتعجب.. البعض من موهبة الحاجة "جواهر" ولم يصدق آخرون ذلك.

وفي اليوم التالي لذلك الغداء ، اتصلت بي إدارة المراسم بالوزارة وأخطرتني بأن سفير تنزانيا يطلب مقابلة عاجلة معي في الساعة العاشرة ، ووافقت على ذلك وبدأت أدرس ملف تنزانيا استعداداً للمقابلة. وفي العاشرة تماماً ، وصل سعادة السفير.. وبعد التحية قال لي وهو يبتسم : بأن هذه المقابلة لأمر شخصي ، ولا تتعلق بموضوع العلاقات بين البلدين ، وأضاف إنني بصراحة أود مقابلة "حبوبتك" الحاجة "جواهر" فاندهشت لذلك ، وقلت له وأنا ابتسم "يا سعادة السفير ماذا تريد من هذه "الحبوبة" التي لا حول لها ولا قوة في هذه الدنيا؟ فإذا صدق حدسها مرة فلن يصدق مرة أخرى لكنه أعاد الطلب بإصرار. فاتصلت مباشرة بالهاتف وهو جالس أمامي مع خالي محمد عبد الرحمن وسردت له الموضوع ، فأبدى دهشته ، ولكنه أضاف بأنه سوف يتصل بخالته حاجة جواهر بالمنزل ويفيدني فوراً.

ولم تمض عشر دقائق - ونحن نحتسي القهوة - حتى اتصل الخال محمد ، وأفادني بأن الحاجة جواهر سألت أولاً أن كان "مسلم" أو "نصراني" ، وعندما أخبرها بأنه "مسلم" وافقت أن تلتقي به.. وحدد للقاء يوم الجمعة الساعة العاشرة صباحاً بمنزل الأسرة بحي الملازمين ، أبدى سعادة السفير سعادته وشكره لذلك ، ووعد بأنه سوف يكون بمنزلنا بالملازمين يوم الجمعة الساعة العاشرة صباحاً.

وفي تمام العاشرة من يوم الجمعة حضر سعادة السفير ، وحضر كذلك الخال محمد وبرفقته الحاجة "جواهر" وهى ترتعش من الاضطراب لهذا الحدث الفريد في حياتها وهى لا تكاد تعرف معنى كلمة "سفير".

وبعد أن شربنا القهوة وقبل أن تبدأ الحاجة جواهر "عرضها الفني" أمام السفير طلبت منه أن يدفع "شلن" خمسة قروش من حر ماله "بياض" للودع ، ولحسن الحظ كان في محفظة السفير شلن أبيض. وبدأ العرض.. وحاجة جواهر ترمى الودع وتتحدث بالعربية وكان الخال محمد يقوم بمهمة الترجمة.. وفي البداية لم أكن مركزاً في الحديث ولكنني من نظرات حاجة جواهر واهتمام السفير.. شعرت أن هناك تجاوباً بين الواقع وما بين ما كانت تتنبأ به الحاجة.. عندما تنظر إلى الودع على الأرض.

ودار الحديث عن الخلاف بين السفير والسكرتير الأول والتقرير الذي بعث به السفير عنه إلى "دار السلام" والظلم الذي ألحق به.. وعن المرأة التي تسكن معه بالمنزل وهى ليست بزوجته.. وعن الخطاب الذي سوف يصله في الأسبوع القادم والذي لن يحمل أخباراً سارة.

وبعد نهاية "العرض" لاحظت أن سعادته بدأ مهموماً ومضطرباً.. خاصة ، وقد تعرضت الحاجة إلى تفاصيل عن بعض المخالفات الإدارية والمالية ، بالسفارة والى "المرأة العشيقة" التي تسكن معه بالمنزل ، والتي كنت اعتقد طيلة تلك الفترة أنها زوجته.. وفي النهاية شكر سعادة السفير الحاجة "جواهر" والخال محمد ، وودعنا وهو لا يبدو سعيداً.

أما بالنسبة لي وبمعرفتي بشرق إفريقيا وأسلوب الحياة والعلاقات ، فلم أتوقف كثيراً فيما ذكرته حاجة جواهر.. ولكن بعد أسبوع فقط جاءني سعادة السفير إلى المكتب مرة أخرى ، وأفادني بأنه قد تسلم خطاباً وصله بالحقيبة يفيد

بنقله نهائياً من السودان إلى رئاسة الوزارة بدار السلام ، وأنه قد تقرر إعادة السكرتير الأول الذي اختلف معه ليكون القائم بالأعمال إلى أن يعين سفير جديد من تنزانيا في السودان.

صراحةً لقد ذهلت من هذه الأخبار ، وذهلت أكثر لأن كل ما تنبأت به الحاجة "جواهر" منذ أسبوع قد حدث، أبديت دهشتي للسفير الذي لم يكن أقل اندهاشاً مني ولكنه لم يفقد وقاره.. واعترف بأنه فعلاً قد أخطأ في حق السكرتير الأول ، وأضاف انه نادم لعدم مقابلة الحاجة "جواهر" منذ حضوره إلى السودان ، وكان ذلك سيساعده في كثير من تصرفاته.. وفي الختام تمنى لو أن حاجة جواهر توافق للذهاب معه إلى دار السلام لممارسة مهارتها في التنبؤ بما سوف يحدث في المستقبل ، وانه واثق بأنها سوف تجني ثروة طائلة من ذلك ، إلى جانب أنها سوف تصبح شخصية مرموقة في شرق أفريقيا. وعندما نقلت هذه الأخبار للحاجة "جواهر" كانت سعيدة بما حدث ولم تبد أسفاً لذلك ، ورفضت العرض الذي قدمه السفير ودعت له بالتوفيق وحسن معاملة الآخرين في المستقبل.



لقاء مع الموت



عدت إلى السودان منقولاً من دار السلام للعمل برئاسة الوزارة في الخرطوم في مارس ١٩٧٥م ، وتم تعييني مديراً للإدارة الأفريقية ، ولقد سعدت بذلك الموقع



في مستشفى هارلي إستريت كلينك
لندن ١٩٧٥

لأنه أتاح لي فرصة لمواصلة ومتابعة عملية التحرير في إفريقيا ، والعمل على مساندة حركات التحرير من موقعي الجديد ، والتأكد من استمرارية دعم السودان لتلك الحركات.

وكنت سعيداً من ناحية أخرى بعودتي للسودان بعد غياب خمس سنوات في تنزانيا لأن ذلك أتاح لي فرصة الاستقرار بين أهلي وعشيرتي وأصدقائي.. فبدأت في محاولة تجديد وتنشيط تلك العلاقات بعد ذلك الانقطاع.

لقد جمعتني صداقة طويلة وقديمة بالصديق المرحوم حسن شريف حسين ، حيث تزاملنا في المدرسة الأولية بوداي حلفا[١] ، حين كان والدانا يعملان في الخدمة المدنية.. واستمرت تلك الصداقة وتوطدت أكثر ، حينما انتقل والدانا للعمل بالخرطوم.. وتشاء الأقدار أن تقيم الأسرتان في حي الملازمين بأم درمان

(١) وادي حلفا : مدينة مشهورة في أقصى شمال السودان على الحدود السودانية المصرية.

إلى أن التحقنا معاً بمدرسة وادي سيدنا في أواخر الخمسينيات ، ونمت تلك الصداقة ونضجت مع نضوجنا وتقدمنا في العمر والتجربة ، وصرنا لاحقاً أكثر من أخوة.

وعلى الرغم من إننا افترقنا في مرحلة الدراسة الجامعية ، حيث التحق حسن بجامعة القاهرة فرع الخرطوم آنذاك ، والتحقت أنا بجامعة الخرطوم ، إلا أن ذلك لم يؤثر على علاقاتنا وصداقتنا ، فكنا نلتقي يومياً ، حيث توسعت دائرة تلك الصداقة فجمعتنا مع أصدقاء آخرين.. أذكر منهم المرحوم سيد المبارك ، والمرحوم محمد عبد الرحمن المهدي ، وحسن راشد ، والمرحوم مصطفي حامد ، ومحمد سعيد ، وفؤاد عوض ، وحسن زين العابدين ، وعبد الحليم الطاهر ، وصديق مولي ، وصلاح مرحوم وآخرون.

لذلك فقد أسرعت مباشرة بعد وصولي وبعد غيابي الطويل إلى منزل الأسرة بحي الملازمين إلى لقاء الصديق حسن شريف ، وكان قد التحق بعد التخرج بالسلك القضائي ، وكان قد أصابه ما أصاب الكثيرين غيره من ظلم وإجحاف في عهد مايو.. وتقرر إحالته للتقاعد وهو لا يزال في عمر العطاء.. ويبدو أن ذلك الإجراء كان صدمة عنيفة لذلك الشاب الذي كان يتطلع إلى غايات أكبر في المستقبل.

ولقد أصابني الحزن عندما التقيت بحسن.. فقد رأيته رحمه الله شخصاً آخر غير حسن الذي عرفته وأحببته ، وعرفه وأحبه كل من التقى به.. فلقد كان حسن شاباً دمث الخلق ، باسماً باشاً رقيقاً يمتلئ حيوية وحبوراً يتدفق من حوله ، فكان يدخل البهجة والارتياح لكل من يلتقي به.. بل كان الزهرة التي نرتشف منها جميعاً رحيق الصداقة والمحبة والإخاء..

ولاحظت أن تلك الزهرة قد أصابها الذبول وصارت مصفرة اللون ، فقدت الكثير من رائحتها ومنظرها ورونقها ، فأدخل ذلك الكآبة على نفسي ، وأشفقت

على حسن من تلك الصدمة.. وبذلت كما بذل غيري من جهد لإعادته إلى ما عرفناه وعهدناه فيه من ثقة وإقدام وحيوية ، ولكن يبدو أن تلك الصدمة إلى جانب أشياء أخرى قد أجهزت على نفسيته ، وحطمت من كبريائه ، وأفقدته الرغبة في الحياة.. وصار يتهرب من لقاء أصدقائه ويبدو واهماً ساهماً معظم الأوقات.

تكررت لقاءاتي به كثيراً دون أن أنجح في اختراق ذلك الحاجز الذي صار يفصل بينه وبين الآخرين ، ودون أن أنجح في إعادة البسمة إلى ذلك الوجه الوضاح. وفي مساء يوم كالح جاءني شقيقه الأكبر المرحوم حسين شريف يسأل عنه ، لأنه اختفى منذ مساء اليوم السابق عن المنزل ، كما أخبرني بأنه بحث عنه في كل مكان ولكنه لم يجده.. فأسرعنا إلى مكاتب الشرطة والسجون والمستشفيات ، ولكن لم نتمكن من العثور عليه.

وعندما كاد الليل أن ينتصف أشار إليّ شقيقه حسين أن نذهب إلى المشرحة بمستشفى الخرطوم ، ظناً منه أنه كان ضحية حادث مرور أو خلافه ، وكدت أرفض تلك الفكرة.. ولكنني ذهبت معه بعد إلحاح شديد من جانبه ، وكانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أزور فيها المشرحة ، وقد انتابني شعور بالكآبة والاضطراب ، وازدادت ضربات قلبي عندما بدأنا نتنقل في أرجاء المشرحة ، ونحن نلتفت من جثة لأخرى حتى وقع نظرنا على منظر لن أنساه ما حييت ، إذ رأيت صديقي ورفيق دربي جثة هامدة داخل ثلاجة في المشرحة..

وكدت أجن وأنا بين مكذب ومصدق لما أرى.. ولكن كان حسن وبقايا ابتسامة لا تزال عالقة بشفتيه.. وكأنه كان يردد ما كان يقوله دائماً : "ما في فائدة "..

وعلمنا فيما بعد أن حسن ذهب بمحض إرادته التامة ، وألقى بنفسه في النيل بالقرب من كبري شمبات ، ولم يترك وراءه غير ملابسه التي كان يرتديها ولكنها

لم تحتوي على أي إجابة عن الأسباب التي دفعته إلى الانتحار ، وبتلك الصورة المأسوية.. خاصة وقد كان أبعد الناس احتمالاً بأن يقدم على ذلك.

وكانت تلك التجربة الأولى لي في حياتي التي التقي فيها بالموت وجهاً لوجه ولكنها لم تكن الأخيرة ، وعرفت أنه الحقيقة الوحيدة في الحياة.

وبذلك اختفى حسن الجسد من حياتي.. ولكن حسن الصديق والإنسان لا يزال يحتل مكانه في قلبي... ولعل هذه يفسر لقائي الثاني بالموت بعد وفاته بعدة أسابيع.

لقد ظلت صورة حسن داخل ثلاجة المشرحة لا تفارقني أبداً ، وكنت أراها امامي كلما خلوت إلى نفسي فينتابني شعور بالحزن واليأس والهزيمة إلى أن كان يوم ٢٤ يونيو ١٩٧٥م ، ذهبت فيه إلى الوزارة في السابعة صباحاً.. وعدت إلى المنزل حوالي التاسعة والنصف مساءً.. وكان المرحوم السفير جعفر أبو حاج يترأس دار الصحافة ، وطلب مني أن أكتب مقالاً عن موزمبيق الذي يصادف إعلان استقلالها صبيحة اليوم التالي ، وقد أعددت المقال وسلمته للزميل المرحوم أبو حاج قبل عودتي إلى المنزل بأم درمان.

وقد كنت في حالة شديدة من التعب والإرهاق ، فقررت أن أخلد إلى النوم مباشرة.. ولكن والدتي رحمها الله أصرت على أن أتناول طعام العشاء قبل النوم.. وقد كان فأحضرت لي طبقاً من الفول بزيت السمسم ، وهو من الأطباق المفضلة لدي.. وما كدت أبدأ في تناول الطعام حتى بدأت صورة المرحوم حسن في المشرحة تطل من الطبق ، وهو يقول " ما في فائدة يا أبو دياب " وعلى وجهه ابتسامته الساخرة المعهودة.

عند ذلك تركت الطعام واستلقيت على الفراش أملاً في أن الخلود إلى النوم ربما يبعد تلك الصورة عن مخيلتي.. وما أن بدأت أعصابي في الاسترخاء حتى

شعرت بدم أحمر ينسال من أنفي ، ثم بدأ ينهمر انهماراً حتى تدفق على جلبابي وعلى الفراش.. وبدأت أشعر بضعف حتى كاد يغمى عليّ.. فأسرعت لطلب النجدة من والدي وأخوتي بالمنزل ، الذين هرعوا إلى نجدتي وقد هالهم منظر الدماء وهي تتدفق من أنفي بصورة مزعجة.. فأسرعوا بنقلي إلى مستشفى أم درمان ، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً وبعد وصولي المستشفى فقدت الوعي الذي استمر لمدة ثلاثة أيام.

وبعد تلك الأيام عدت إلى الوعي مرة أخرى ، وإذا بي طريح أحد الأسرة بمستشفى أم درمان... وآثار الدماء لا تزال حولي.. وفي اللحظات الأولى كنت اعتقد أنني في عداد الموتى إلى أن رأيت حولي الأهل والأصدقاء ، وأعينهم تمتلئ بدموع الحزن الممزوجة بالأمل والرجاء.. فأيقنت بأنني ما زلت على قيد الحياة.. ولكن الشعور بأنني على موعد مع الموت لم يفارقني.

ولكن على الرغم من ذلك ، شعرت بسعادة لا توصف لم أحس بها عندما كنت في كامل صحتي وعافيتي ، بعد أن رأيت تلك الوجوه المحببة إلى نفسي ، وقد أجهدها السهر على صحتي طيلة تلك الأيام ولياليها.. وفي مقدمتهم والدي ووالدتي رحمهما الله وأخوتي وأخواني والطبيب الإنسان الصديق د. جعفر بن عوف سليمان الذي لم تغمض له عين إلى أن تأكد أنني لا زلت على قيد الحياة ، والأهل والجيران ، وفي مقدمتهم صديقي وصهري المرحوم كمال بر سيد أحمد.

وبعد أيام تم تحويلي للقسم الجنوبي بمستشفى الخرطوم ، ولكن النزيف ظل يراودني من حين إلى آخر مما استدعى إجراء عمليات نقل دم متواصلة.. وأخيراً بجهود أبوية كريمة من الوزير الإنسان جمال محمد أحمد ، وزير الخارجية آنذاك ، والصديق محمد ميرغني مبارك أطال الله عمره وكيل وزارة الخارجية آنذاك صدرت الموافقة على إرسالي إلى لندن على نفقة الدولة للعلاج.

وغادرت السودان إلى لندن بمرافقة أخي وصديقي د. جعفر بن عوف وزوجته الفاضلة د. حياة عثمان عبد الله حامد ، وهناك شملني الأخ والصديق د. رياض بيومي وزوجته نجوى سكر بالرعاية والاهتمام ، وأدخلت إلى مستشفى " هارلي إستريت كلينيك ".. وبعد إجراء الفحوصات تم تشخيص حالتي الصحية بأنني كنت أعاني من ارتفاع حاد في ضغط الدم ، ولحسن الحظ كان النزيف هو الذي أنقذ حياتي..

والآن وبعد مرور سنوات عديدة على تلك الحادثة فإنني أشعر بأني مدان لكل الذين شملوني بالرعاية ، و لكل أبناء السودان الذين كانت تكاليف علاجي على نفقتهم.. ومنذ ذلك الوقت تلاشى شعوري بالموت الذي انتابني بعد وفاة صديقي ورفيق دربي حسن شريف ، وأصبحت علاقاتنا ذكرى جميلة محببة إلى النفس احتلت مكاناً كبيراً في قلبي الذي يعمر له ولغيره من رفاق الدرب بالحب والوفاء... ولكن يبقى السؤال لماذا انتحر صديقي حسن؟... ولماذا عدت أنا للحياة؟...

أما المقال الذي أعددته في مساء تلك الليلة ١٩٧٥/٥/٢٤م ، عن استقلال موزمبيق والذي صدر صبيحة اليوم التالي ، فقد قرأه الجميع ما عدا شخصي إلا بعد عودتي إلى السودان بعد ذلك بثلاثة أشهر عندما أكملت العلاج.



أين نصيبي؟؟



درج التقليد في وزارة الخارجية أن يقوم السفير الذي وافقت الدولة التي رشح لأن يعمل بها بمقابلة رئيس الدولة " لتزويده بالنصائح " قبل أن يغادر إلى تلك الدولة وفي يوليو ١٩٧٨م ، أعلن عن قبول ترشيحي أن أكون سفيراً للسودان في المملكة الأردنية الهاشمية.

وأثناء استعدادي لمغادرة السودان اتصل بي الأخ والصديق هاشم عثمان الذي كان وكيلاً للخارجية في ذلك الوقت ، وطلب مني الحضور إلى مكتبه فوراً وعند الذهاب إليه - وكان في ذلك في نهاية اليوم - طلب مني الذهاب فوراً للقصر الجمهوري لوداع السيد الرئيس ، لأنه سوف يغادر إلى الولايات المتحدة ، ومنها سيقوم بزيارة الأردن ولذلك يريدني أن أغادر بسرعة حتى أتمكن من تقديم أوراق اعتمادي قبل وصوله إلى هناك.

فتوجهت فوراً راجلاً من وزارة الخارجية إلى بوابة القصر ، وفعلاً وجدت اسمي في مكتب الاستقبال ، وكان الحر شديداً وبدأ العرق يتساقط من جسمي وانتظرت على باب مكتبه في الطابق الأول ، وطال انتظاري حتى قاربت الساعة ٢:٣٠ ظهراً ، وقد تملكني الجوع والتعب.

وفجأة فتح باب مكتب الرئيس على مصراعيه وبدأت أعداد كبيرة من الصحفيين والمصورين ورجال الأمن في الاندفاع نحو الباب ، وبدأ الضغط على شخصي.. وصرت أتراجع أمام هذا الزحف الهائل أمامي إلى أن وجدت نفسي

ملقى على الأرض في سلالم الطابق الأول ، حيث تم اغتيال غردون باشا ، وكان الجميع يصرخون الرئيس.. الرئيس.. فنهضت بصعوبة واقفاً وقلت بأعلى صوتي " هلَّ الرئيس دبابة؟ " لماذا تتدفعون هكذا.. وفجأة رأيت الرئيس نميري أمامي ، وقد سمع ما تفوهت به فابتسم ضاحكاً وقال : والله كلامك صاح يا دياب.. إن شاء الله خير مالك؟ فشرحت له ما كان من أمر قدومي للقصر لوداعه قبل المغادرة ، فمد يده مصافحاً ، وقال لي : اذهب مع تمنياتي لك بالتوفيق وسوف نلتقي قريباً بعمّان..

وغادرت إلى عمّان وقدمت أوراق اعتمادي ولم يمض أكثر من أسبوعين على قدومي حتى وصل نميري إلى الأردن في زيارة رسمية ، وفي اليوم الثاني من قدومه طلب مني دعوة أعضاء السفارة السودانية المقيمين بعمّان للاجتماع معه في منزل الضيافة.

اتصلت بعدد من السودانيين الذين كانوا يعملون بالمنظمات الإقليمية والدولية بعمّان ، وبعض الأساتذة بالجامعة الأردنية ، وممثلين عن الجالية السودانية بالأردن ولا زلت أذكر ذلك اللقاء..

وجلس نميري في وسط ذلك التجمع وكان مزاجه معتدلاً ، وفي أحسن حالاته خاصة ولقد أتيحت لي فرصة الالتقاء به من قبل في تنزانيا.. وكانت الأنباء تختلف عن قصة اكتشاف البترول في السودان بين مصدق ومكذب.. وكأن نميري قد قرأ أفكار بعض الموجودين عن ذلك الاكتشاف.

وجاء حديثه الذي استمر أكثر من ثلاث ساعات عن البترول أنواعه وكمياته وطريقة استخراجه وتكاليف تكريره وتسويقه ، ومع أنه كان يتحدث دون تحضير أو يقرأ من شيء مكتوب ، فلقد أدهش البعض من الكم الهائل من المعلومات التي استطاع أن يطلعنا عليها في ذلك اللقاء عن بترول السودان الواعد.

وأذكر أن أحد السودانيين من الذين كانوا يعملون في الجيش البريطاني أثناء حرب فلسطين - وقد استقريه المقام في الأردن منذ ذلك التاريخ - حضر إلى مقابلتي بالسفارة في اليوم التالي ، وكان بمقام والدي وهو من مواطني الشمالية ولا زال يتحدث كأحد أبناء تلك المنطقة.

وعند استقبالي له اعتذر عن عدم تمكنه من حضور اللقاء مع الرئيس بالأمس وعندما سألته عن دوافع زيارته.. رد بكل عفوية وبساطة : أنه علم أن الرئيس قد أكد اكتشاف البترول في السودان وبكميات هائلة ، ولذلك قرر العودة إلى السودان ولكن قبل أن يغادر يود معرفة نصيبه ونصيب أسرته التي تتكون من زوجتين وثلاثة عشر من الأبناء والبنات من ذلك البترول.

وبقدر اندهاشي من طلبه الذي يدل على بساطته وسذاجته ، فقد أيقنت أن هذا البترول إذا ما تحقق وجوده واستخراجه قد يشكل قضية صراع جديد حول ملكيته وعائده ، تضاف إلى القضايا والصراعات الأخرى التي يختلف حولها أهل السودان حتى اليوم.



أيـــن الملايين...؟



لقد تعرفت أثناء فترة عملي بالأردن على أحد كبار رجال الأعمال ويدعى "عبد الغني أبو قورة " رحمه الله ، وكان يمتلك شركة لها عدة فروع في الدول العربية وبعض العواصم الأوروبية ، ولقد جمعتني به صداقة حقيقية وعلاقات عائلية حميمة ، وكان ثالثنا الأخ الصديق "مهنا الدره" وهو فنان تشكيلي عالمي كان مديراً لدائرة الثقافة بوزارة الإعلام بالأردن ، وعمل مؤخراً سفيراً للجامعة العربية بموسكو.

في أحد الأيام اتصل بي السيد " ابوقوره " وأخبرني بأن المستر "مارك تاتشر النجل الأكبر للسيدة "مارجيت تاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا آنذاك موجود بفندق "الهوليدي إن" بعمّان وقد وصل قبل أيام من الإمارات العربية المتحدة ، وله صلة عمل مع سمو الشيخ زايد بن سلطان رئيس الإمارات العربية المتحدة.. وأضاف بأن المستر "مارك" أخبره بأن سمو الشيخ زايد قد خصص مبلغ "٢٠٠" مليون دولار معونة للسودان ، ولكنه لا يريد هذه المعونة أن تستعمل في أغراض وأهداف تساعد النظام في السودان بقدر ما يريدها أن تستغل لمصلحة الشعب السوداني في مشاريع تنموية أو مدارس أو مستشفيات تفيد الجميع وأنه لا يدرى كيف يتم ذلك.. وأضاف السيد ابوقوره بأنه أخبر المستر مارك بأنه يعرفني معرفة شخصية ، ويثق في شخصي للقيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل والذي يلبي رغبة سمو الشيخ زايد.. وأضاف بأنه إذا لم يكن لي اعتراض على ذلك فإنه سوف يحدد موعداً لي لمقابلة "المستر مارك تاتشر" قبل مغادرته الأردن.

في البداية انتابني بعض الشك في هذه الرواية ، وتعجبت من تفاصيلها وتساءلت بحذر عن علاقة سمو الشيخ زايد بمستر مارك تاتشر ، ولماذا يقوم هو بهذه المهمة وأبواب السودان مفتوحة للشيخ زايد، خاصة أنني كنت أعلم أن هناك علاقات شخصية تربط بينه وبين الرئيس نميري.. ولكن لمعرفتي الشخصية بالسيد أبوقوره - وهو رجل يوثق فيه - أبلغته موافقتي بمقابلة المستر مارك تاتشر.

وفعلاً تم تحديد المقابلة وذهبت إليه في الفندق ، وكان يستعمل طابقاً كاملاً بالفندق مجهزاً بأجهزة الاتصال المختلفة والسكرتيرات والطابعات من الجنس البريطاني اللطيف إلى جانب حرسه الخاص وسكرتيره الخاص.

فاستقبلني استقبالاً حسناً ، وتحدث لي عن أعماله ومشاريعه في الدول العربية واهتماماته الشخصية بسباق السيارات وعلاقته الخاصة بالشيخ زايد ، وذكر لي ما ذكره السيد ابوقوره عن المعونة التي خصصها الشيخ زايد للسودان.. وسألني عن إمكانيات مساعدتي في توجيه هذه المعونة كما يرغب ويريد الشيخ زايد.. لأنه لا يريد أن تقع في أيدي أجهزة الدولة ، وتنفق في مجالات دعائية تخدم مصلحة النظام.

فأكدت له بأنني سوف أبذل قصارى جهدي في هذا المجال ، وشكرته على مبادرته واهتماماته بشؤون السودان ، وذكرت له بأنني سوف اذهب شخصياً للسودان من أجل هذه المهمة ، وفي ختام المقابلة أعطاني ورقة تحمل كل تلفوناته الشخصية في عدة أماكن ، ووعدته بأنني سوف اتصل به فور عودتي من السودان.

وفي صبيحة اليوم التالي أرسلت رسالة "بالشفرة" إلى وزارة الخارجية أطلب فيها الموافقة على حضوري للسودان لمناقشة موضوع هام دون الإفصاح عن الموضوع ولدهشتي كانت الموافقة إيجابية وفورية.

وغادرت إلى الخرطوم أحلم بأنني سوف أؤدي خدمة وطنية لبلادي ، وأساعد في إنجاح استغلال هذه المعونة بصورة ترضى المانح أولاً ، وتخدم الشعب السوداني ثانياً.

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى وزارة الخارجية واجتمعت مع السيد هاشم عثمان الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية آنذاك.. والأخ هاشم تربطني به علاقة شخصية قوية وأثق في قدراته المهنية وفي اهتماماته الوطنية ، وكنا معاً نعمل على مسايرة الواقع في السودان دون التفريط في الثوابت، ولي مع الأخ هاشم "حكايات ونوادر" لا أستطيع الإفصاح عنها إلا بموافقته لمعرفتي التامة بدواخله وأبعاد شخصيته.

وعندما بدأت أتحدث له عن الموضوع الذي أتيت من أجله ، اندهش كعادته وفجأة نهض من مكتبه.. وتأكد بأن كل الأبواب موصدة بالمفتاح ، وعدم إمكانية التقاط ما كان يدور بيننا.. وأبدى سروره وسعادته بالموضوع خاصة وأن السودان في تلك الفترة بدأ يحس بجفاء الدول العربية نحوه ، بعد أن تردد أن كل المساعدات والمعونات الأجنبية تذهب إلى مصلحة بعض الأشخاص في النظام.

واتفقنا معاً في البداية أن هذا الموضوع يجب ألا يصل القصر وإلى د. بهاء الدين محمد إدريس بصفة خاصة ، وكانت الأقاويل والشائعات عن د.بهاء الدين تملأ الساحة السياسية في الخرطوم ، خاصة بعد أن استطاع أن يقضي على مجموعة د. منصور خالد بالضربة القاضية ، وتردد أنه يتمتع بثقة الرئيس نميري الذي لم تكن تخفى عليه ممارسات د.بهاء الدين ، وكان يغض الطرف عنها ، أما عن رغبة أو عن ثقة عمياء بدكتور بهاء الدين أو لذكاء ومهارة د.بهاء الدين في الاستيلاء على عقل وقلب الرئيس نميري في تلك الفترة.

وأخيراً اقترح السيد هاشم أن اذهب لمقابلة المرحوم د. نصر الدين مصطفى الذي كان وزيراً للتخطيط في تلك الفترة، وذكر السيد هاشم أن بوزارة التخطيط

مشاريع جاهزة ومعدة تحتاج فقط للتمويل وأن د. نصر الدين وزير يثق به وبوطنيته.. واتصل مباشرة بالتلفون السري بدكتور نصر الدين ، وأخطره بأنني سوف أحضر لمقابلته في موضوع هام يعود بفائدة على وزارته وعلى البلد ، ووافق د.نصر الدين على حضوري مباشرة.

وذهبت إلى وزارة التخطيط واستقبلني الأخ نصر الدين بترحاب وشرحت له مباشرة الموضوع الذي حضرت من أجله بكل تفاصيله، فأبدى ارتياحه وترحيبه وسروره ، ثم التفت إلى التلفون السري وقال لي عن إذنك دقيقة ، وبعد ذلك أصابني الغثيان وأنا استمع إليه وهو ينقل كل ما دار بيننا إلى من؟.. إلى د.بهاء الدين.

وبعد انتهاء المكالمة التلفونية بينه وبين د.بهاء الدين قال لي - وهو سعيد بذلك الإنجاز - إن د.بهاء الدين في انتظاري ، ويطلب حضوري فوراً لمقابلته. فأسقط في يدي، ولكنني أكدت لدكتور نصر الدين أن ما فعله هو الشيء الوحيد الذي كنت أريد أن أتجنبه فانزعج قليلاً وبعد لحظة تفكير.. قال لي : لقد فات الأوان وأن د.بهاء في انتظاري.

فغادرت مكتبه وبدأت أرى أمامي مصير مهمتي التي بذلت الجهد لكي تنجح وقمت بكل الاحتياطات الممكنة.. وأتاني ما لم يكن في الحسبان.. وجررت أرجلي وكأنني مساق إلى "ساحة المشنقة" متوجهاً إلى مكتب د.بهاء الدين بالقصر الجمهوري ، والذي اصبح يلقب بالمكتب الخاص لكل من د.بهاء الدين وخضر الشريف والزبير رجب.

ولم اندهش إطلاقاً عندما رايت د.بهاء ينتظرني في بهو القصر بترحاب وإعجاب وكال لي من الأوصاف والألقاب ما أخجل تواضعي وقادني إلى مكتبه بسرعة فائقة وأخرج ورقة صغيرة وقلماً اصفر كأنه قلم سحري ، وطلب مني أن

أخبره بكل المعلومات عن ذلك الموضوع ، ففعلت بميكانيكية فائقة دون حماس أو إحساس ، وكان يسطر كل شيء على تلك الورقة ، وركز بطريقة خاصة على عناوين مستر "تاتشر" وشكرني.. وفي النهاية أفادني بأن مهمتي قد انتهت وأنه على أن أعود إلى مقر عملي مباشرة بالأردن ، وأنه سيفيدني بالخطوات القادمة.

وخرجت وأنا مدرك بأنني صرت مرة أخرى "شاهد ماشافش حاجة" في ذلك المسلسل الذي لسوء الحظ لم أتمتع بمشاهدته بالصورة التي كنت أتمناها عند محاكمة د.بهاء بعد الانتفاضة مباشرة.. وضاعت الحقيقة عن المحكمة ، كما ضاعت مني ومن شيخ زايد ومن الشعب السوداني ، حينما رفع د.نصر الدين الهاتف السري واتصل بدكتور بهاء الدين. "ولا حول ولا قوة إلا بالله"



السفارات..
بأي ذنب أغلقت؟!





تقديم أوراق اعتماد للأمير الحسن بن طلال
سفيرا للسودان لدى الأردن - عمان ١٩٧٨

في عـــام ١٩٨٣م ودون مــقــدمـــات خـــرجت رســـائل عـــاجلة من وزارة الخـارجـيـة إلـى ثلاث وعـشـرين سـفـارة للسـودان بالخـارج تطلب تصفـيـة أعـمـال تلك السـفـارات ، والقيـام بإجراءات قفلها في فـتـرة أقـصـاهـا أول مـــايو ، ١٩٨٣ ويعـتـبـر ذلك القــرار من أخطر وأهم القـرارات التي تتـعلق بوزارة الخـارجـيـة منذ إنشائها في عـام ١٩٥٦م، بعد القرار الذي كـان قد قـام باتخاذه السيد بابكر عـوض الله عندمـا كان وزيراً للخـارجـيـة في عـام ١٩٦٩م ، أي بعـد اندلاع ثورة مـايو مـبـاشـرة بتـقليص العـاملين في بعض السفـارات ، وذلك بسحب شاغلي الوظائف الإدارية والمالية بتلك السفـارات.

ولم تنتظر وزارة الخـارجـيـة طويـلاً لكي تقـتنع تلك الجـهـة التـي اتخـذت ذلك القـرار بخطأ القـرار وتحـاول وقف تنفيـذه.. وإذا افـتـرضنا أن قـرار ١٩٦٩م ، كـان اقرب إلى الصـواب في التقليل من تكاليف نفـقات السفـارات ، إلا أن قـرار ١٩٨٣م ، تمّ بصـورة عـشـوائيـة دون دراسـة أو تفكيـر في نتـائجه السيـاسـيـة والاقـتـصـادية، ورفـضـت الـوزارة الاقـتـراحـات البـديلة لتـعديله بحيث لا تتـضـرر عـلاقـة السـودان السـيـاسـيـة والدبلومـاسـيـة ببـعض الـدول التي تقـرر قـفل سـفـارات السـودان في

عواصمها ، ولا يزال موضوع قفل السفارات يبحث عن إجابة مقنعة ، وعن الجهة أو الشخص الذي يتحمل مسئولية الخسائر والأضرار المختلفة التي لحقت بالسودان من جهة ، والعاملين بتلك السفارات من جهة أخرى.

إن الهدف من التمثيل الدبلوماسي هو تقوية وتطوير العلاقات بين الدول المختلفة لذلك فإن البعثات الدبلوماسية : مقراً وعنصراً بشرياً وسلوكاً ومظهراً تقع عليها مسئولية ذلك التمثيل سلبا أم إيجاباً ، ولذا فإن معظم الدول تعمل على أن يكون ذلك التمثيل عنصراً إيجابياً في الخارج ، فتقوم بتوفير كل الإمكانيات المطلوبة لإنجاحه والتي ليست متوفرة بوزارات وأجهزة الدولة في الداخل ، لأنها لا تقع عليها نفس المسئولية. وعليه فطبيعة ذلك العمل تقتضي الصرف بسخاء وفي حدود إمكانيات كل دولة.. وان الدولة التي تعجز عن توفير المستوى المطلوب لتمثيلها في الخارج بصورة لائقة فإنه من مصلحتها ألا يكون لها تمثيل في الخارج إطلاقاً.

لقد ظلت سفارات السودان في الخارج منذ الاستقلال تحتفظ بمظهر لائق – على الرغم من تجاوزات بعض السفراء في بعض المناطق – كما أن كفاءة الدبلوماسية السودانية في الماضي استطاعت أن تحقق التوازن المطلوب بين الشكل والمضمون ، مما أدى إلى أن تكتسب الوازرة قدراً من المصداقية والإقدام في الداخل والخارج بسبب قناعة الحكومات في مختلف الأنظمة بتوفير الدعم والإمكانيات لتلك الوزارة.

وفي الوقت الذي حقق فيه قرار السيد بابكر عوض الله في عام ١٩٦٩م ، بعض النتائج الإيجابية – خاصة التي تتعلق بأنها فرضت على الدبلوماسيين أهمية الإلمام بالعمل الإداري المكتبي والحسابي والقنصلي – الا أن قرار ١٩٨٣م ، بقفل ثلاث وعشرين سفارة دون مقدمات أو دراسة.. قد أدى إلى العديد من النتائج السلبية ما زالت تعاني منها وزارة الخارجية حتى اليوم.

لقد قامت بعض الدول كالصين وألمانيا الشرقية ، وبعض دول أوروبا الشرقية بتقديم بعض التسهيلات لسفارات السودان بتلك الدول تقديراً لمواقف السودان السياسية بعد ثورة مايو، خاصة تأييده لانضمام الصين للأمم المتحدة، والاعتراف بألمانيا الشرقية. وكانت تلك التسهيلات تشمل توفير مقر السفارة ومقر إقامة السفير والدبلوماسيين وبذلك لم تكن تشكل عبئاً مالياً ثقيلاً على ميزانية وزارة الخارجية ، ومن ناحية أخرى فإن بعض السفارات التي شملها قرار التقليص والتصفية.. ظلت تمارس عملها في بعض تلك العواصم لفترة طويلة وفرت لها مواقع مميزة للسفارات ومقر السفارات بإيجارات لا تقارن بالإيجارات الجديدة بعد أن تقرر إعادة فتح تلك السفارات بعد شهور قليله من قفلها.

وبما أن الدولة بررت قرار تقليص السفارات بالظروف الاقتصادية ، وبهدف توفير العملات الصعبة.. فإن الدراسة التي أعدت بعد قفل تلك السفارات أوضحت أن الدولة قامت بصرف ملايين الدولارات لتنفيذ ذلك القرار ، يفوق تكلفتها إذا تركت تلك السفارات مفتوحة تمارس أعمالها كما كانت قبل قفلها.


رئيساً لوفد السودان في اجتماع مجلس الوحدة الاقتصادية . عمان ١٩٨١

والذي يدعو إلى الحيرة.. هو إصرار الدولة على أن يتم تنفيذ القرار بالكيفية وفي المواعيد التي قررتها الوزارة دون مراعاة لأي اعتبارات أخرى ، بل إن طلبات بعض السفارات في أن تمنح صلاحيات تنفيذ ذلك القرار بأخف وبأقل الأضرار ، قد قوبلت بالرفض.

كما قوبلت بالرفض أيضاً العروض التي قامت عدد من الدول الصديقة بتقديمها للسودان ، للإبقاء على سفاراته قائمة على أن تقوم تلك الدول بتغطية

نفقات تلك السفارات إلى حين أن تتحسن ظروف وأوضاع السودان الاقتصادية ، تقديراً للسودان ولأهمية العلاقات بينه وبين تلك الدول.

وبالنسبة لسفارة السودان في الأردن فقد قام الملك حسين بإرسال وزير خارجيته "مروان القاسم" بطائرة خاصة لتقديم عرض للسودان ، بأن تتكفل فيه حكومة الأردن بتغطية نفقات السفارة ، وقام وزير الخارجية بمقابلة الرئيس نميري الذي أكد له رفض السودان لتلك المبادرة وإصراره على قفل السفارة في المواعيد المحددة.. وقد رافقت وزير خارجية الأردن في تلك الزيارة التي أصبحت بعد مقابلة نميري بمثابة تشييع لسفارة السودان بالأردن.

وكان أقبح وجوه ذلك القرار.. هو تنفيذ بعض الإجراءات الخاصة به ، ولا أنسى بعد أن قمنا بالإعلان في الصحف المحلية (كما نص القرار) عن بيع محتويات سكن السفير ودار السفارة ، وأنا أرى نظرات الذين جاءوا إما لشراء تلك المحتويات ، أو من باب الفضول لرؤية دار السفير ودار السفارة بالداخل.. أو لمعرفة ما الذي دفع السودان لاتخاذ هذا القرار؟.. كانت تلك النظرات كالسكاكين تخترق القلب ، وتصيب الجسد بجروح دامية.. وما زالت تدمي حتى اليوم.

وبعد أقل من ستة أشهر على تنفيذ ذلك القرار ، وبعد أن قام السودان "بإنزال" ثلاثة وعشرين علماً ، كانت ترفرف باسمه في مختلف العواصم العالمية، قرر السودان "إعادة فتح تلك السفارات" .. كما قرر فتح سفارات أخرى جديدة.. فهل يعقل هذا؟ وأي عقلية كانت تتحكم في تلك القرارات؟، وأين مصلحة السودان من كل هذا؟ ولماذا لم يعترض أحد على تلك القرارات؟ خاصة وقد كان على قمة وزارة الخارجية وزراء من رجالات السلك الدبلوماسي.

في اعتقادي أن قرار تقليص البعثات الدبلوماسية بالخارج الذي نفذ بحق ثلاث وعشرين سفارة يعتبر أحد القرارات العشوائية التي قام نظام نميري

باتخاذها في لحظات الصراع مع الموت في أيام مايو الأخيرة ، إلى جانب قرار تقسيم المديريات الجنوبية والإطاحة "باتفاقية أديس أبابا" ، مما أدى إلى بداية "الحركة الشعبية لتحرير السودان" ، وقرار تنفيذ حكم الإعدام في الشهيد الأستاذ "محمود محمد طه".. وقرار تطبيق "قوانين سبتمبر" أو" قوانين الشريعة" إلى آخر المهازل التي شهدها الفصل الأخير من حكم نظام مايو.

ولكن السؤال لا يزال قائماً عن الأسباب الحقيقية التي دفعت نميري للموافقة على ذلك القرار.. ومن كان يقف خلفه؟ ولماذا؟ ولماذا وافق نميري بعد شهور قليلة على إعادة فتح تلك السفارات مرة أخرى؟ هنالك روايات عدة تحاول الإجابة على هذه التساؤلات ولكن جميعها تفتقر إلى الإثبات.. ولعل أقوى تلك المحاولات هي أن أحد الوزراء الذي كان مقرباً من نميري يحمل عداوات خاصة لوزارة الخارجية ، ولبعض وزرائها قد كان هو المحرك الأساسي لذلك القرار الخطير ، والذي ألحق ضرراً بالسودان وسمعته استغرق جهداً ووقتاً ومالاً لإزالته.. ولكن ذكراه " المرة " في أذهان السفراء والدبلوماسيين الذين شهدوا " مجزرة " تلك السفارات ، ستظل عالقة بأذهانهم إلى وقت طويل.. ولن تزول إلا بمعرفة الأسباب الحقيقية لذلك القرار المسموم.



قوانين سبتمبر



شهدت القارة الأفريقية كغيرها من القارات الأخرى إبّان الحرب الباردة قيام تجمعات إقليمية عديدة ، لها مسميات مختلفة ، ولكنها جميعها كانت تتم بمباركة : إما من واشنطن أو موسكو لخدمة أهداف سياسة وإستراتيجية القطبين الأعظم آنذاك ، وذلك بعد أن أصبحت إفريقيا تمثل ثقلاً عددياً كبيراً في المنظمات الدولية ، مما فرض على القطبين العظيمين الحرص على كسب تأييد الدول الأفريقية إلى جانب كل منهما في المحافل الدولية.

في أوائل الثمانينات ، تكونت مجموعة من الدول الأفريقية عرفت بمجموعة " إندوقو" وكلمة " إندوقو " باللغة السواحلية تعني " الأخ " ، وقد أطلق هذا الاسم على هذا التجمع الدكتور بطرس غالي ، وزير الدولة للشؤون الخارجية بمصر ، وقد أصبحت تعرف لاحقاً بمجموعة " الإخاء ."

كانت المجموعة تتكون من : مصر ، السودان ، الكنغو (زائير سابقاً) يوغندا تشاد وإفريقيا الوسطى ، لكي تقف جداراً بين طموحات ليبيا "القذافي" للتغلغل في الدول الأفريقية ، وبخاصة لحماية جمهورية تشاد التي حاولت ليبيا أن تقتطع جزءاً من إقليم "أوزو " في حدود تشاد الشمالية وضمه إلى ليبيا ، وكانت تلك المجموعة تنال تأييد ومباركة واشنطن في هذا المسعى.. ولقد استمر التعاون بين هذه المجموعة بصورة منتظمة إلى نهاية الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفيتي.

وكانت كل من مصر (السادات) والسودان (نميري) تقودان تلك المجموعة خدمة وحماية للمصالح الإستراتيجية الأمريكية في إفريقيا ضد الأنظمة " التقدمية "

والموالية للاتحاد السوفيتي آنذاك ، وليبيا بصفة خاصة بعد توقيع السادات على اتفاقيات كامب ديفيد.

وفي عام ١٩٨٣م ، عقدت إحدى دورات تلك المجموعة بمدينة كنشاسا عاصمة الكنغو (زائير سابقاً) وكان رئيس زائير السابق " موبوتو سيسيكو " يعتبر من أهم حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية في القارة الأفريقية ، ولعب أدواراً هامة في حماية مصالحها ، وفي معاداة الأنظمة الشيوعية والتقدمية في القارة.

قام وزير خارجية الكنغو بافتتاح الجلسة العامة لتلك الدورة ، وألقى خطاباً حمل نبرة جديدة في مسيرة مهام واختصاصات أعمال تلك المجموعة و صب جام غضبه على الدول العربية في القارة الأفريقية ، وأشار إلى أنها شغلت إفريقيا بقضاياها المختلفة ونقلت صراعاتها إلى المحافل الأفريقية ، مما كاد يطيح بجهود الدول الأفريقية لإيجاد الحلول لقضاياها الحقيقية.. وفي نهاية خطابه طالب بإنشاء منظمة للدول الأفريقية السوداء جنوب خط الاستواء لمعالجة ذلك الوضع ، وإقامة حد فاصل بين الدول الأفريقية والدول العربية في القارة الأفريقية.

وقد أثار ذلك الخطاب دهشة واستهجان الدول العربية الأعضاء في المجموعة (مصر والسودان) ، واعتبر ظاهرة خطيرة - ليس فقط على هذا التجمع ، بل على وحدة إفريقيا وتهديداً لمصير منظمة الوحدة الأفريقية ، ومستقبل العمل الجماعي الأفريقي كوحدة سياسية متكاملة.

وكان السيد هاشم عثمان ، وكيل وزارة الخارجية يترأس وفد السودان لذلك المؤتمر.. وفي الخطاب الذي ألقاه في الجلسة العامة لاجتماع التجمع تحدث عن قوانين سبتمبر التي أصدرها الرئيس السابق جعفر نميري ، والتي عرفت بقوانين " الشريعة " ودافع السيد هاشم عن تلك القوانين وهاجم التشويه الذي صاحب تطبيقها من بعض الدوائر وأبرز أهميتها في المجتمع السوداني المسلم.

وعندما اجتمعت لجنة الصياغة التي كان يترأسها وكيل وزارة خارجية الكنغو وكان السفير أحمد صدقي (رحمه الله) يمثل مصر في اللجنة ، وشخصي ممثلاً لوفد السودان ، أصر وكيل وزارة الكنغو ورئيس لجنة الصياغة أن يتضمن البيان الختامي للمؤتمر ،ما أورده وزير خارجيته في الجلسة الافتتاحية. فحاولنا أنا وأحمد صدقي الممثلان للدول العربية الأعضاء في تلك المجموعة إثناءه عن الإصرار على ذلك ، وبذلنا جهوداً كبيرة لكي نوضح له أن ذلك ليس في مصلحة المجموعة ، وليس في مصلحة إفريقيا ومصلحة التعاون بين الدول العربية والأفريقية في المجالات المختلفة ، وأنه قد يفتح الباب لأعداء إفريقيا لأنه سيؤدي إلى انقسام الدول الأفريقية ، وإلى فتنة بين العرب والأفارقة لا تحمد عقباها.

ولكن على الرغم من ذلك أصر إصراراً شديداً على موقفه ، وأوضح أن تلك تعليمات من وزير خارجيته ويجب الموافقة عليها ، وعند ذلك طلبنا منه أن ينقل وجهة نظر مصر والسودان في هذا الشأن لوزير خارجيته.. فرفعت الجلسة وغادرنا الاجتماع لكي يقوم بهذه المهمة مع وزير خارجيته ، وبعد عودته كنا نتوقع أن يبدي وزير الخارجية تفهماً لوجهة نظر مصر والسودان من الآراء التي تضمنها خطابه في الجلسة الافتتاحية ، ولكن كانت خيبة أملنا كبيرة عندما أفادنا وكيل الوزارة بأن وزير الخارجية أصر على أن يتضمن البيان الختامي النقاط التي أبدينا عليها تحفظنا.

وتناقشنا أنا والمرحوم أحمد صدقي ، واتفقنا على أن نصر على حذف تلك النقاط حتى ولو أدى ذلك إلى عدم صدور بيان ختامي للمؤتمر ، ونقلنا ذلك إلى رئيس لجنة الصياغة.. ولكن هذا الإصرار لم يغير من موقفه الذي أبداه منذ البداية.

وفجأة خطرت ببالي فكرة ، فقلت له : إننا على استعداد على أن يتضمن البيان الختامي النقاط التي وردت في خطاب وزير خارجيته ، شريطة أن يتضمن البيان أيضاً ما أورده رئيس وفد السودان حول تطبيق الشريعة في السودان ، عند ذلك

بدا الارتباك واضحاً على رئيس اللجنة ، خاصة عندما أكدت له أن ذلك أيضاً يعتبر من وثائق المؤتمر ، لأنه جاء على لسان وكيل وزارة الخارجية ورئيس الوفد السوداني للمؤتمر وعندئذ طلب رفع الجلسة لكي يذهب للتشاور مع وزير خارجيته حول المقترح السوداني ، وفي تلك الأثناء كان كل من د. بطرس غالي ، وزير الدولة للشؤون الخارجية ورئيس الوفد المصري ، وهاشم عثمان وكيل وزارة الخارجية ورئيس وفد السودان في انتظار معرفة نتيجة ما يتمخض عنه اجتماعات لجنة صياغة البيان الختامي ، خاصة وقد نقلنا إليهما ما دار بيننا وبين ممثل الكنغو في لجنة الصياغة.. وقد تجاوز الوقت الساعات الأولى من الصباح ، وكان من المقرر أن نغادر الكنغو في صبيحة ذلك اليوم.

وبعد انتظار طويل.. عاد رئيس لجنة الصياغة إلينا والارتباك يبدو عليه ، وعندما سألناه عن توجيهات وزير خارجيته.. أفادنا بأنه وافق على ألا يتضمن البيان الختامي ما ذكره في الجلسة الافتتاحية للاجتماعات ، شريطة أن يوافق الوفد السوداني على سحب اقتراحه بأن يتضمن البيان ما ورد على لسان رئيس الوفد عن تطبيق الشريعة في السودان ، وقد أكدنا له موافقتنا على ذلك ، واختصرنا البيان الختامي في المجالات الأخرى التي تعرض لها الاجتماع.

وتنفسنا الصعداء وأعد البيان الختامي ، وبعد قراءته حملناه إلى رؤساء الوفود للتوقيع عليه.

وكان د. بطرس غالي ، يضفي على تلك الاجتماعات كثيراً من " القفشات " بخفة دمه التي عرف بها ، فالتفت نحوي بعد أن وقع على البيان قائلاً : " ودي عملتها إزاي يا ابن الـ............ "

وهكذا فإن قوانين سبتمبر التي أدخلت السودان في نفق مظلم ، قد نجحت في إنقاذ ذلك المؤتمر من الفشل.



السفراء «الأجانب»



لقد أنشئت وزارة الخارجية بعد استقلال السودان مباشرة ، وهي بذلك لم تكن إحدى الوزارات الموروثة من عهد الحكم البريطاني - المصري فلقد أتيحت لها الفرصة لكي تبدأ من حيث انتهت إليه الدول الأخرى ، ولذلك فقد قامت الوزارة على أسس سليمة تتماشى مع تجارب الدول الأخرى ، من حيث المهام والأداء وتوفير الكوادر البشرية ووقع الاختيار في ذلك الوقت على عدد كبير من السودانيين الأكفاء الذين كانوا في خدمة الإدارة البريطانية في الوزارات والمصالح خاصة من مهنة التعليم والإدارة والبوليس الذي تكوّن منهم الرعيل الأول من الدبلوماسيين في ذلك الوقت.

ومن ناحية أخرى فقد وضعت الوزارة ضوابط لمن يريد الالتحاق بالسلك الدبلوماسي ، وظل ذلك يتطلب الحصول على مؤهل جامعي والجلوس لامتحان تحريري تحت إشراف جامعة الخرطوم ، ثم اجتياز اختبار لجنة المعاينة التي تتكون من عدد من السفراء والخبراء ، وأحد أطباء الأمراض النفسية ، كما أن الوزارة قد أعدت نظاماً للكوادر الإدارية والمالية في رئاسة الوزارة ، وسفارات السودان بالخارج من كشف الموظفين العام بالتنسيق مع وزارة المالية ، وعلى الرغم من أنه كان للوزارة وزيراً للخارجية يختاره النظام الحاكم ، إلا أن وكيل الوزارة ، أو ما كان يعرف بالوكيل "الدائم" كان هو المسؤول المباشر عن كل العاملين بالوزارة من سفراء ودبلوماسيين وإداريين.

وظل الحال هكذا ، واستطاعت وزارة الخارجية عن طريق الرواد الأوائل أن تشيّد صرحاً وتقليداً ، جعلها في مصاف وزارات الخارجية الأخرى في دول العالم ، كما أنها أصبحت تحتل موقعاً مرموقاً في جهاز الدولة ، خاصة فيما يتعلق بإبداء الرأي والمشورة حول مواقف السودان في عدد من القضايا الخارجية ، مما جعل منها مركزاً أساسياً في صنع القرار ، وفرضت شخصيتها المميزة في الخدمة المدنية كجهاز محترف ، وصار يُنظر للدبلوماسية باعتبارها مهنة.. تتطلب مهارات وتدريب وكفاءة كأي مهنة أخرى : كالطب والهندسة والقضاء.

ولكن الحال لم يستمر على هذا المنوال ، فقد بدأت محاولات اختراق المهنة الدبلوماسية من الأحزاب السياسية في فترة الديمقراطية الثانية ،عندما حاول الحزب الاتحادي الديمقراطي إدخال التعيين السياسي في تلك المهنة ، وكانت أول محاولة عندما قرر الحزب تعيين المرحوم د. أحمد الطيب عابدون ، أحد أقطاب الحزب والذي تخرج من جامعة السوربون بفرنسا ، في صفوف السلك الدبلوماسي.. وقد أثارت تلك المحاولة انفجار أزمة سياسية أدت إلى طرح تلك القضية في البرلمان حينما وجد الحزب معارضة قوية استندت إلى أن التعيين في السلك الدبلوماسي ، يجب أن يكون حسب القوانين والضوابط التي وضعتها وزارة الخارجية في ذلك الصدد.. وانتهت بذلك أول محاولة من نوعها في تاريخ وزارة الخارجية بالنسبة لفرض التعيين السياسي في صفوف السلك الدبلوماسي.

ومن المعروف أن بعض الدول الأخرى كانت تمارس التعيين السياسي في السلك الدبلوماسي ، ولكنها وضعت أسساً وضوابط منها : أن لا يكون هذا التعيين على حساب العاملين المحترفين في السلك الدبلوماسي ، وأن توضع نسبة معينة تتراوح بين ١٠٪ و٢٠٪ من قوة السلك الدبلوماسي.. وأن لا يستمر المعين سياسياً في الخدمة بصورة دائمة.. وفي بعض الأحيان يتم اختيار السفير السياسي لبلد ما ،

لمهارات أو علاقات يتمتع بها ذلك السفير ، تتطلب تعيينه في ذلك البلد وتنتهي مهمته بزوال تلك الاعتبارات.

وفي فترة لاحقة ،بدأ تمثيل السودان بالخارج يشمل بعض الملحقيات الثقافية والاقتصادية والعسكرية ، وكان التعيين في هذه المواقع يتم بواسطة الوزارات المعنية أي : وزارة التربية والتعليم ووزارة المالية والقيادة العامة للقوات المسلحة ، وإلى جانب هؤلاء ، فقد اقتضت تطورات الوضع في جنوب السودان اهتمامه بتحركات ومواقف دول الجوار من حركة التمرد في جنوب السودان.. ولذلك تم تعيين قناصل في تلك الدول من ضباط القوات المسلحة وضباط الشرطة.

ولكن بعد استيلاء نظام مايو على السلطة عام ١٩٦٩م ، بدأ ذلك النظام التدخل في وزارة الخارجية بصورة مكشوفة ، فبدأ في فرض التعيينات السياسية خاصة في صفوف السفراء بصورة لا مثيل لها من قبل ، دون إخضاعها لأي معايير ، أو الأسباب التي تتبعها الدول الأخرى بالنسبة للتعيينات السياسية ، حيث شملت تلك التعيينات بعد مايو ١٩٦٩م ، شخصيات عامة من مهن مختلفة ، وكان معظم الذين تم تعيينهم كسفراء عرفوا بميولهم اليسارية ، أما بعد أحداث يوم يوليو ١٩٧١م ، فقد أصبح باب وزارة الخارجية مفتوحاً لسفراء التعيين السياسي ، وكان في مقدمتهم كبار ضباط القوات المسلحة الذين أحيلوا للتقاعد ، والوزراء الذين يتم إعفاؤهم من مناصبهم الوزارية ، وفي بعض الأحيان يتم التعيين لا من هؤلاء ، أو أولئك.

وعندما استولت حكومة الإنقاذ على الحكم أتت بنوع مختلف من التعيين ، بعد أن قامت منذ الوهلة الأولى " بكنس " المحترفين في السلك الدبلوماسي من سفراء ودبلوماسيين من مختلف الدرجات بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولم يكن " تطهيراً " فقط ، بل كان " قطع رقاب ".. وبين ليلة وضحاها ، وجد أكثر من ٥٠٪ من

الدبلوماسيين بوزارة الخارجية أنفسهم قد أحيلوا إلى " الصالح العام " ، وهذا ما لم يفعله نظام نميري إلا في حالات نادرة كانت تقف وراءها أسباب مقنعة حسب رؤية النظام آنذاك.

ومن ذلك الحين فتح النظام باب وزارة الخارجية على مصراعيه للتعيينات السياسية التي شملت من درجة السفير إلى درجة السكرتير الثالث ، كما إنها شملت أيضاً حتى الكوادر الإدارية بالوزارة ، وتسلم تلك المواقع أنماط مختلفة من كوادر النظام دون التزام بقوانين الوزارة ، ودون اهتمام بالكفاءة.. وكان المقياس الوحيد هو الولاء للنظام ،وبذلك أصبح هنالك نوعان من الدبلوماسيين في وزارة واحدة ، النوع الأول : لم تشملهم الإحالة إلى الصالح العام من الدبلوماسيين المحترفين ، والنوع الثاني : كانوا من كوادر النظام وأصحاب المصلحة الحقيقية في استمراره ، وجاء النوع الثاني من مختلف شرائح المجتمع ، ولكن الملاحظ أن الأغلبية كانت من جهاز أمن النميري وبعض رموزه السياسية.

وهنالك ظاهرة أخرى لهذه التعيينات.. فقد تم تعيين قناصل في معظم السفارات من كوادر النظام ، وعلى الرغم من أن بعضهم التزم بنظم وقوانين العمل في تلك السفارات، إلا أن البعض كان يحاول دائماً أن يظهر بأنه الكل في الكل ، وصاحب الكلمة العليا في السفارة ، مما ترك انطباعاً سيئاً لدى المواطنين بالخارج.. وقلل من أهمية ودور السفراء في بعض الدول ، وأحدث وضعاً غريباً وشاذاً في ممارسة هذه المهنة.

وعندما بدأ تعيين السفراء السياسيين في عهد نميري - وكانوا قلة ومعظمهم كانت تربطهم علاقة عمل بوزارة الخارجية عندما كانوا في مناصبهم المختلفة - فقد أعد لهم مكتب في الدور الرابع بوزارة الخارجية القديمة.. وكنا نحن " أولاد الخارجية " نطلق عليهم دون حساسية من الجانبين " السفراء الأجانب " ولقد

أعجب بعضهم بهذا اللقب.. وكان معظمهم يدركون أن نجاحهم في مواقعهم الجديدة يتوقف على بناء جسر من التفاهم معنا ، ولذلك لم يكن هناك إحساس بالحسد أو المنافسة.

إلا أن الأمانة تقتضي أن معظم أولئك الذين تم تعيينهم كسفراء في عهد نميري - ما عدا قلة - وعلى الرغم من أنهم التحقوا للعمل بالخارجية من تخصصات ومهن مختلفة قد ساهموا بصورة إيجابية في أداء مهامهم ، وأضافوا أبعاداً جديدة للمهنة والتزموا بالولاء للوزارة وللعاملين بها.

وعندما كنت الرجل الثاني في إحدى سفارات السودان في إفريقيا ، عين سفير سياسي ليرأس البعثة وكان ذلك السفير من أبناء الإقليم الجنوبي وتخرج من إحدى جامعات الدول الشرقية ، وتربطه قرابة بأحد أقطاب الحزب الشيوعي من أبناء الجنوب كان يكن له كل الحب والتقدير.. وعلى الرغم من أنه كان يعمل بالسلك القضائي قبل اختياره لذلك المنصب ، إلا أنه كان بحكم خلفيته اليسارية يعتبر تقدمياً بمقاييس ذلك الوقت.

وأثناء التعامل معه لم يكن بيننا خلاف إلا حول النظرة لهوية السودان.. إذ كان لا يخفي عدم موافقته على عروبة السودان.. ناهيك عن الإسلام.. وكنا نحتد أحياناً في بعض القضايا نتيجة لاختلاف تلك الرؤيا.. في الوقت الذي كنت لا أجد أن هناك تناقضاً بين عروبة وأفريقية السودان ، واعتبر أن ذلك إثراء لوضع السودان.. إلا أنه في هذه الناحية كان لا يبدي تنازلاً إطلاقاً ، ولقد أثار هذا الموقف دهشتي لرجل في ذلك المنصب وله خلفية اشتراكية.ومحسوب على " كوتة " الحزب الشيوعي ، إلا أن ذلك لم يشفع له لتقبل عروبة السودان ، ولو من منطلق أنه يمثل السودان من ذلك الموقع الذي يحتم عليه على الأقل الاحتكام بالوفاق ، مما جعلني أرى منذ ذلك الوقت أن قضية شمال وجنوب السودان قضية مصيرية

، يجب أن تواجه بشجاعة وتحل بقناعة الطرفين.. وأن الحلول الوقتية ودفن الرؤوس في الرمال لن يؤديا إلا إلى تعميق تلك الخلافات والتي سوف تعاود الانفجار من حين لآخر ، وتشل من حركة السودان في العالمين العربي والأفريقي.



الأشجــار ذات الملفات



لقد أعيد فتح سفارة السودان ببوخارست برومانيا في عام ١٩٨٤م ، بعد أن تم قفلها في عام ١٩٨٣م ،ضمن ثلاثة وعشرين سفارة أخرى في مختلف أنحاء العالم. وقد تم اختياري لأن أكون سفير السودان لدى رومانيا، وفي ضوء تجربتي القصيرة عندما عملت بيوغسلافيا في عام ١٩٦٩م ، فإن تلك التجربة جعلتني أقتنع بأن المهارة الدبلوماسية لن تجد حرية الانطلاق والعطاء والإبداع في الدول الشمولية والشيوعية ، خاصة وأن هنالك خطوطاً حمراء لا يمكن تخطيها ، مهما كانت صلاحيات أو مهارات السفير ، كما أن طبيعة العمل الدبلوماسي مرتبطة ورهينة بمستوى العلاقات الرسمية بين البلدين.



تقديم اوراق اعتماد للرئيس شاوسيسكو سفيراً للسودان لدى رومانيا - بخارست ١٩٨٤

ولذلك فلقد كان حماسي فاتراً في بداية الأمر في الذهاب إلى رومانيا ، وقد جاء ذلك التكليف بعد أن قضيت فترة خمس سنوات كسفير للسودان بالأردن ، والتي كانت فترة مليئة بالنشاط الدبلوماسي.. والذي يتعلق بالعلاقات بين البلدين بصفة خاصة.. ولكنني قررت في نهاية الأمر أن احزم أمري وأتوجه إلى بوخارست بعد أن اتضح لي أن علاقات السودان برومانيا في تلك الفترة ، كانت من العلاقات المميزة على مستوى

البلدين ، وعلى مستوى القيادة السياسية ممثلة في الرئيس السابق "نميري" والرئيس الراحل "شاوسسكو" اللذين كانت تجمع بينها علاقات صداقة وإعجاب متبادل ، ولقد تفوقت تلك العلاقات على علاقات السودان بدول أوروبا الشرقية في ذلك الوقت.

ومثل بقية الدول الاشتراكية ، فإن كل ما يتعلق بالدبلوماسي في رومانيا كان يخضع إلى رقابة ومسئولية الدولة : كمقر الإقامة ومقر العمل ، ومكان العلاج والأماكن التي يمكن أن يقوم بزيارتها ومقابلاته للمسئولين في أجهزة الدولة ، بل وحتى علاقاته مع المواطنين العاديين في شتى شئون الحياة. ولذلك قمنا في البداية بمباشرة أعمال السفارة من أحد الفنادق في بوخارست حتى تكتمل الإجراءات الخاصة بتوفير احتياجاتنا من منازل ومقر السفارة..الخ. وظللنا نتابع بصورة يومية اتصالاتنا بمكتب "الخدمات الدبلوماسية".. وهو الجهة الرسمية التي كانت تتولى تلك المهام.

ومن السمات المميزة للعمل في الدول الاشتراكية هي البطء في اتخاذ القرار ولكن بعد أن يتخذ القرار فمن الصعوبة تغييره.. لأن ذلك يسير في عكس الاتجاه الذي سار فيه اتخاذ القرار في البداية ، وبعد أن طال صبرنا وكاد أن ينفذ، تقرر منحنا داراً للسفارة وداراً لسكن السفير ، وحدد لنا موعداً مع مدير مكتب الخدمات لمعاينة تلك المواقع.

وبوخارست مدينة عريقة جميلة بكل المقاييس.. وقد سحرني فيها بصورة خاصة حسن تخطيط المدينة والشوارع الواسعة والمباني القديمة التي تعكس روعة وعظمة الفن المعماري الأوروبي أيام عز الإمبراطوريات والأباطرة ، وسحرني أكثر اللون الأخضر الذي يكسو أرض المدينة في ميادين متسعة منسقة ، تتوسطها أنواع مختلفة من الورود والزهور وتكسو سماءها الأشجار الصنوبرية العملاقة الظليلة..

وفي أثناء الأمطار يتدفق "الكلوروفيل" من بين صفاف وأوراق الأشجار ، ويزيد من روعة الخضرة وتزدان الأرض بذلك اللون الأنيق.

وفي الشتاء عندما ينزل الجليد ويغطي كل شيء فإن كل شئ يموت تحت الجليد ويزحف اللون الأبيض الناصع فيكسو الأرض والأشجار والشوارع والمنازل بلون السلام والبراءة والطهارة ، وتسبح المدينة في بحر أبيض اللون هادئ الأمواج ، وتسري البرودة في العروق ، وتحس بالحاجة الشديدة إلى الدفء.

وعندما ذهبت مع مدير الخدمات الدبلوماسية لمشاهدة المنزل الذي خصص لسكن السفير ، كان ذلك في شهر أغسطس وكل شيء يانع ومزهر وأخضر في بوخارست ولقد أعجبت بالمنزل منذ النظرة الأولى ، فقد كان رائعاً شامخاً خليطاً بين الطوب والأسمنت والخشب ، يجمع بين الطراز المعماري "الفيكتوري والمشربيات والأقواس العربية ، وتفحصت المنزل ونال موافقتي على الفور وفي باحة المنزل ميدان وحديقة كبيرة ، ولكنها مغطاة بعدد كبير من الأشجار الضخمة ، فطلبت من مدير المكتب أن يقطع الأشجار حتى يكون الميدان صالحاً لحفلات الاستقبال في المناسبات الرسمية وكنت اعتقد أن ذلك شيئاً بسيطاً لا يستغرق أكثر من يوم أو يومين..

وعندما سمع مدير المكتب ذلك الطلب.. رأيت في وجهه علامات عدم الرضاء والموافقة ، فلما سألته عن السبب.. قال لي إن إزالة الأشجار مشكلة كبيرة ، وتحتاج إلى وقت طويل قد يصل إلى خمسة أو ستة أشهر ، فسألته لماذا يصعب الأمور والموضوع لا يحتاج لأكثر من ثلاثة عمال ومنشار وفأس. فضحك ضحكة طويلة حتى كاد يقع على الأرض، وكدت لا أصدق ما أرى وما أسمع.

فأبتسم الرجل واستطرد قائلاً : أن الموضوع ليس بهذه البساطة ، فهذه الأشجار ملك للدولة ، وإزالتها تحتاج إلى موافقة الجهات المعنية في الحزب بهذا

الخصوص.. ووعدني بأنه سوف يطلب الموافقة على رغبتي ، ولكن يجب أن أتحلى بالصبر لمدة قد تستغرق شهوراً ، وقد تأتي الإجابة بالموافقة أو بالرفض.

فظننت أن الموضوع يحتاج إلى "لزة" أو إبداء نوع من "المكرمة الدبلوماسية" فأشرت للسكرتيرة بأن تقوم بذلك فوراً ، وفعلاً أحضرت "شيلة" من السجاير والبن والشكولاته وغيرها ، واعتقدت إنني قد وجدت العصا السحرية لقطع الأشجار.

ومرت أسابيع وشهور ، ونحن نلاحق مكتب الخدمات بخصوص قطع الأشجار.. وكانت الإجابة أنهم مازالوا في انتظار موافقة لجنة الحزب.. وطبعاً الصبر شيء يجب أن يتحلى به كل من عمل أو عاش في تلك الدول آنذاك ، وصبرنا وبعد الصبر ما طال جاءت الموافقة بعد مضي أكثر من أربعة اشهر على تقديم الطلب ، وكانت معنونة لمكتب الخدمات الدبلوماسية.

وكان عدد الأشجار على ما اذكر ثلاث عشرة شجرة.. ولكن الموافقة جاءت بقطع عشر أشجار فقط ، ولدهشتي الشديدة.. كان لكل شجرة رقم وملف واسم.. وذكرت الأشجار التي تمت الموافقة على قطعها بالتحديد ، ورفضت الموافقة على قطع الأشجار الثلاث الأخرى بالتحديد.. ولكن الحكاية لم تقف عند هذا الحد.. فقد كانت الموافقة تنص على اسم المصنع الذي ترسل إليه أخشاب وفروع تلك الأشجار التي تمت الموافقة على قطعها..

إن تعجبي من ذلك القرار لم يعادله إلا إعجابي وتقديري واحترامي له.. إذ انني أيقنت أن الدولة أو النظام الذي يرعى ويحافظ على الشجرة ، فلابد أن تكون رعايته ومحافظته على مواطنيه من البشر تفوق ذلك بكثير ، كما اقتنعت أيضاً - مع تحفظاتي حول الشيوعية - أنها نظرية متكاملة لم تترك شيئاً للاجتهاد الشخصي وهذا في حد ذاته شيء يدعو إلى الإعجاب والتقدير. ومنذ

ذلك الحين بدأت أنظر إلى تلك الأنظمة نظرة مختلفة قد لا تتفق معها في بعض الأشياء ، ولكنك تعجب وتعترف أنها كانت جهداً إنسانياً صادقاً ، حاول أن يكون تجربة رائدة على الرغم مما أصابها من نجاح أو فشل.



طفاية طائرة الرئيس



في أثناء الفترة التي عملت بها في رومانيا في الفترة من (١٩٨٤ - ١٩٨٩م) كانت العلاقات بينها وبين السودان قوية ومتطورة ، وكانت رومانيا تصدر العديد من منتجاتها إلى السودان ، كالمنتجات الصناعية المتوسطة والأدوات الكهربائية والماكينات الصناعية، إلا أن القوات المسلحة السودانية كان لها نصيب الأسد من تلك العلاقات ، خاصة في مجال التسليح بكل أنواعه ، وكذلك التدريب والطيران بصفة خاصة.

وقد دار حديث حول أسباب تلك العلاقات القوية بين السودان ورومانيا على كافة الاتجاهات ، والتي تبدأ بالعلاقات الخاصة بين رئيسي البلدين " نميري وشاوسيسكو " مروراً بالاتحاد الاشتراكي والحزب الشيوعي الروماني ، وانتهاءً بالروابط القوية بين القوات المسلحة في البلدين.. وذهب البعض إلى تفسير تلك العلاقة بأنها تنبع من التشابه بين البلدين ، فكلاهما اشتراكي الأصل مختلف التوجهات ، وكلاهما نظام شمولي يعتمد على سلطة ونفوذ وقوة رئيس النظام ، وكلاهما يعتمد على حكم الحزب الواحد ، وكلاهما يتجه يساراً ويسير يميناً ، وكلاهما يعتمد على أجهزة أمنية تحمي النظام بكل قوة وشراسة.

وإلى جانب ذلك.. دار حديث حول المحسوبية والرشوة كأساس لتلك العلاقات وحديث عن صفقات تجارية لبعض رموز النظام السوداني ، والنسب التي يتقاضونها من فوائدها.. إلى جانب الحديث عن التوكيلات التجارية لبعض المنتجات التجارية الرومانية وحمايتها على الرغم من أنها لم تكن الأجود من ناحية التصنيع ، وليست الأرخص من ناحية الأسعار.

وكانت كل تلك الأحاديث وراء ظهري عندما بدأت العمل برومانيا ، وفي بداية مرحلة عملي جاء وفد من القوات المسلحة السودانية برئاسة الفريق محمد ميرغني قائد سلاح الطيران.. للوقوف على إنتاج اثنتي عشرة طائرة مروحية ، تم الاتفاق على شرائها من رومانيا بقيمة مائة وعشرين مليون دولار ، كما تم الاتفاق على طريقة تسديد قيمتها على أن يكون جزءاً منها نقداً ، والجزء الآخر مقايضة بالقطن السوداني الذي كانت رومانيا معجبة به أيما إعجاب ، وكانت تستورده لمصانعها التي تنتج العديد من الأقمشة والملبوسات ، والتي كان تصديرها يدر عليها مكاسب كبيرة.

ولذا فقد قررت أن أقف على كل التفاصيل التي تتعلق بتلك الصفقة ، خاصة وقد كانت تربطني بالفريق محمد ميرغني علاقات شخصية قوية. وقامت القوات المسلحة برومانيا كعادتها باستضافة الوفد ، ومراعاة كل أساليب الكرم والضيافة بالطريقة الرومانية.. وكانت من ضمن البرنامج القيام بزيارة إلى مصنع الطائرات المروحية بمدينة "براشوف" ، (وهي مدينة جبلية في شمال رومانيا وتعتبر من أجمل المناطق السياحية في رومانيا وبها العديد من المنشآت والمصانع الهامة).

في صبيحة اليوم التالي بعد وصولنا براشوف ، ذهبنا في معية كبار الضباط الرومانيين إلى مصنع الطائرات ، وكان المصنع يمتلئ نشاطاً وحيوية ، وتفقدنا أقسامه المختلفة ، ثم وقفنا على التجهيزات الأخيرة لإعداد الطائرات المروحية التي سوف ترسل إلى السودان ، وكان ضمن تلك الطائرات طائرة خاصة لاستعمال رئيس الجمهورية وكانت تقف في مكان خاص يختلف عن أماكن الأخريات.

وفي أثناء تفحص الفريق محمد ميرغني والوفد المرافق له ، بالإضافة إلى شخصي ، كان هناك مهندس روماني يحمل أوراقاً في يده تتعلق بالطائرات وتجهيزاتها ويسجل الملاحظات التي كان يبديها الوفد السوداني ، وكانت الطائرة فعلاً تبدو رئاسية ، إذ كانت جيدة التصميم أنيقة من الداخل بها كراسٍ وثيرة ، وتشمل كل مستلزمات الرؤساء وكبار الشخصيات.. وفجأة التفت الفريق محمد ميرغني وسأل

المهندس لماذا لا توجد طفاية سجائر بجانب إحدى الكراسي على الرغم من أن هنالك طفايات بجانب الكراسي الأخرى؟ فاعتذر المهندس وطمأن الفريق ميرغني بأن ذلك سوف يتم فوراً ، ثم أخرج قلمه وكتب فاتورة بقيمة خمسة وثلاثين دولاراً ، كقيمة إضافية.. وهي ثمن تلك الطفاية ولقد ذهلت من ذلك التصرف ، وتعجبت من طريقة التعامل الروماني وخاصة في رأسي بعض مما قيل عن استهبال الرومان في معاملتهم مع الدول الأخرى.. وعندما أجريت عملية ضرب حسابية وبسعر السوق الأسود لمعرفة سعر تلك الطفاية بالعملة الرومانية ، اتضح لي أنه كان كافياً لشراء طفاية حريق وليس طفاية سجائر بالإضافة إلى أن الشركات العادية تتجاوز مثل هذه الأشياء الصغيرة ، وتعتبرها هدية من الشركة " فوق البيعة ".

لقد لاحظ الفريق محمد ميرغني أنني تضايقت من تلك الحادثة ، وعلق قائلاً " إن التعامل مع الرومان يحتاج إلى صبر" ، وإنه لولا احتياج السودان الشديد لتلك الطائرات ولولا أنه لا يملك نقداً كافياً لشرائها من مكان آخر ، لما كان قد لجأ إلى رومانيا ، وإن السودان في هذه الظروف إلى جانب التسهيلات التي قدمتها رومانيا في تسديد قيمة تلك الطائرات بطرق مختلفة متاحة.. مثل : المقايضة بقطن وخلافه - مضطر إلى قبول مثل تلك المعاملة.

ومنذ تلك الحادثة ، بدأت أنظر للعلاقات بين البلدين من منظار ضيق ، لا يتجاوز قيمة تلك الطفاية ، وأيقنت أن تلك العلاقات كانت تقوم على أسس رخيصة الثمن ورخيصة المبادئ، وأنها لن تصمد وتستمر - كعلاقة بين شعبين في أي تجربة حقيقية قد يمر بها النظامان ، وهذا ما حدث فعلاً بعد أطاح شعب السودان بنميري في عام ١٩٨٥ وأطاح شعب رومانيا بشاوسيسكو في عام ١٩٨٩.



أنا سوداني.. أنا



إن الصيف في السودان يعني الحر الشديد ورياح السموم و"الهبوب" واللهيب الذي يذيب العقل والفكر والخيال ، والميل إلى الخمول اللانهائي والاسترخاء المميت، والعطش الذي يجعل مياه "نهر النيل" العظيم تتواري خجلاً لعدم تمكنها من إروائه.

أما الصيف في أوروبا فيعني شيئاً آخر ، فهو بداية الحياة وتفتح الأزهار والرياحين واخضرار الأرض واكتسائها بأطياف الألوان الزاهية التي تبعث السعادة والمرح في النفوس ، وتجعل الإنسان يهيم في الطبيعة الساحرة ، ويترك المدن ودفء المنازل إلى ساحات الطبيعة الواسعة فيجد نفسه هناك حُراً طليقاً يتعامل معها في براءة وسلام.

ولقد كان صيف بوخارست عام ١٩٨٨م ، يجمع كل الصفات الجميلة ، بالإضافة إلى أن رومانيا قامت بإعداد نادٍ خاص للدبلوماسيين وأسرهم.. به مزايا أخرى إضافية تتضمن مطعماً ممتازاً وأحواضاً للسباحة وملاعب لمختلف أنواع الرياضة ، إلى جانب أماكن خاصة للهو ولعب الأطفال ، ولذا كان النادي هو المكان المفضل للدبلوماسيين وأسرهم من مختلف الدول لقضاء عطلات نهاية الأسبوع ، وأوقات الفراغ الأخرى.

في عصر أحد الأيام ذهبت إلى النادي ومعي أفراد أسرتي ، وتركنا الأطفال يلعبون في المكان المخصص لهم ، وتوجهنا إلى المجالات الأخرى التي تجمعنا

بالدبلوماسيين وأسرهم لتبادل الأخبار والمعلومات ومزاولة بعض الأنشطة الرياضية.

وعندما ذهبت لاصطحاب أطفالي إلى المنزل تقابلت مع الأخ "عبد الحميد فرحات" رئيس مكتب العلاقات الجماهيرية الليبية ببوخارست، وصرنا نتبادل الحديث إلى أن كنا أمام الأطفال فوجد ابنه "علي" يلعب على دراجته.. وأثناء حديثه معه ظهر ابني " ياسر" وكان عمره في ذلك الوقت حوالي سبع سنوات ، فعندما رآه الأخ عبد الحميد طلب من ابنه "علي" أن يسلم على ياسر ، فتردد ابنه.. في ذلك فخاطبه مرة أخرى قائلاً : "يا علي سلم على ياسر لأنه عربي مثلك ، فلم ينتظر ابني ياسر حتى أن يسلم "علي" عليه أو يرد ، بل أسرع مخاطباً سفير ليبيا قائلاً : أنا ما عربي.. أنا سوداني ، فذهل السفير الليبي وبدا عليه الارتباك ولعله فوجئ برد الابن "ياسر".. ولقد ذهلت مثل السفير الليبي ، فقد كان رده مفاجأة بالنسبة لي أيضاً.. ولكنني داخلياً سررت لتلك الإجابة لأنها كانت ولا تزال هي التعبير الحقيقي والصحيح لأبناء السودان ، ومازلت أرى أننا قد أخطأنا ومازلنا نخطئ في التعبير عن هوية السودان ، وانه قد ترتب على ذلك الخطأ الكثير من الضرر.. مازلنا ندفع ثمناً باهظا له.

وفي اعتقادي أن تحديد الهوية السودانية هو المدخل لعلاج بعض القضايا السودانية ، ولإيجاد كينونة تختزن وتبلور تلك المساحات والمسافات والاختلافات بين أبناء وأطراف السودان المختلفة ، وتجعلها كياناً حياً معطاءً يتفاعل مع كل تلك الأبعاد بعقل وقلب واحد ، ويحقق بذلك التنوع القبلي والعرقي والديني والجغرافي هوية موحدة متعددة الإمكانيات ، وفيرة العطاء طليقة القيود ، هذا هو الأسلوب الوحيد للبناء والمحافظة على السودان موحداً قوياً مترابطاً بصورته الراهنة.

أما إذا حاولنا صهر هوية السودان في قبيلة معينة ، أو عرق واحد أو دين يلزم الجميع.. فإننا بذلك ندعو إلى انقسام السودان بطريقة سلمية ، أو بالحرب الأهلية وتقليص عطائه ، وتضييق إبعاد معاني المواطنة فيه ، وإلى بعثرة ثراء تنوعه القبلي والعرقي والديني إلى دول أو دويلات تفقد الهوية السودانية ما استطاعت أن تكسبه من ملامح ، وتحققه من إنجازات ، وتطبعه في القلوب والنفوس.

لا أدري لماذا يريد البعض أن يكون السودان عربياً ، ويريد آخرون أن يرونه إفريقيا ، وقد استطاعت الشخصية السودانية أن تعبر وتجتاز الحدود الضيقة للشخصية العربية وللشخصية الأفريقية ، وأنها بذلك تمتلك في مضمونها مالا يمتلكه الأفارقة من الصفات العربية ، ومالا يمتلكه العرب من الصفات الأفريقية ، وأن انصهار هذه الازدواجية بتناغم وانسجام هو الذي خلق الشخصية السودانية المميزة عربياً وإفريقيا بل دولياً.

ولا شك أن الشخصية السودانية بهذا المفهوم لها التزامات وعليها واجبات ، وأن التمسك بجدوى هذه الازدواجية يتطلب مسلكاً معيناً من المواطن ومن الدولة ، يعترف بذلك التنوع ويتقبله بصدق وقناعة ، ويرضى بمعايشته اجتماعياً وسياسياً ودينياً دون أن يتسبب ذلك في خدش مصالح أو مشاعر الجانب الآخر ، ويكون مصدر قوة وفخر واعتزاز ، وليس مساومة أو تنازلات لخدمة مطامح سياسية أو دينية أو اقتصادية قصيرة النظر.. يتسبب فشلها أو انهيارها في ضياع مصالح الطرفين ويدفعهما إلى ساحات خلافات أكثر حدة وتعقيداً.

إذا نظرنا إلى تاريخ العلاقات بين شمال السودان وجنوبه منذ الاستقلال وإلى المد والجذر في هذه العلاقة ، نجد أنها في مجملها نتيجة عدم القناعة بإمكانية انصهار الطرفين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً في هوية واحدة : اسمها

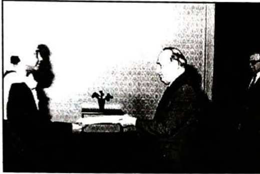
"السودان" فقط. وليس السودان العربي أو الأفريقي الإسلامي أو المسيحي ، والعلماني أو الوثني.. وأن إصرار كل اتجاه من تلك الاتجاهات على طبع هويته على بقية السودان هو الذي أدى بنا إلى هذه المرحلة من الضعف والتشتت ، وإلى تبعثر كاد يعصف بوحدة السودان.. وبالشخصية السودانية.. وبالموقع الذي استطاعت تلك الشخصية أن تحتله باحترامٍ وقبولٍ وثقةٍ في العالمين العربي والأفريقي.

إن السودان بمساحاته الشاسعة ونيله وصحاريه وجباله ووديانه ، وتنوعه : العرقي والقلبي والطائفي والديني والاجتماعي، هو العطاء الحقيقي للشخصية والهوية السودانية ، وإن هذه الهوية المطلقة ، والتي تحمل كل ذلك التنوع.هي القادرة على تخطي تلك الاختلافات وبلورتها في روح مواطنة تتسع للجميع ، وإن محاولة حصر وخنق تلك الهوية في نطاق ضيق يعبر عن جزء أو بعض من ذلك التنوع ، ما هو إلا محاولة لاغتيال تلك الشخصية ، وجعلها تتفجر حقداً وكراهية دوماً ، وأن اغتيالها يعود خراباً ودماراً على الساحة التي يتم فيها ذلك الصراع الأجوف.



سكرتير الحزب الشيوعي





تقديم اوراق اعتماد للرئيس جيفكوف كسفير للسودان لدى بلغاريا - صوفيا ١٩٨٥

عـــقـــدت منظمـــة "اليـونسكو" التـابعـة للأمم المتحدة اجتماعها العام في يولـيـــــو ١٩٨٥م بمديـنـة "صـوفـيـا" ببلـغـاريا ، وقـد كـانـت بلغــاريا آنـذاك في منظومـــة المجـــمـــوعـــة الاشتراكية التابعة للاتحاد السوفيتي ، ورأت في عقد هذا الاجتماع بعاصمتها صوفيا فرصة مواتية للظهور بمظهر يشرف الدول الشيوعية ، ويدحض الدعاية الغربية لتلك الدول.. فقامت باستعدادات ضخمة ، وبذلت جهوداً خارقة لتوفير كل الاحتياجات المطلوبة للمؤتمر وللمؤتمرين نتيجة لذلك.

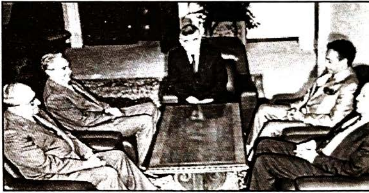
وقد استدعى ذلك حجز جميع الفنادق وبيوت الضيافة والسيارات والمطاعم والمحلات الهامة لأعضاء اليونسكو فقط ، مما سبب مضايقات لا حد لها.. كما يحدث دائماً بالنسبة للمواطنين العاديين في بقية أنحاء العالم ، وخاصة في دول العالم الثالث في مثل تلك المناسبات.. وكان من المستحيل أن تعبر إلى تلك الأماكن ما لم تكن حاملاً "شارة" المشاركة في المؤتمر.

وقد مثل السودان في ذلك الاجتماع وفد كبير كان على رأسه السفير د. بشير البكري الذي يعتبر من رجالات اليونسكو البارزين في العالم ، إلى جانب نخبة

ممتازة من كبار الموظفين أذكر منهم المرحوم د. قلباوي محمد صالح والمرحوم د.نجم الدين محمد شريف ، إلى جانب سفير السودان بباريس آنذاك الزميل العزيز الصديق المرحوم يوسف مختار ، والمستشار الثقافي بباريس الأستاذ الرفيع.

وكنت في ذلك الوقت السفير المقيم برومانيا ، وأيضاً سفير السودان غير المقيم ببلغاريا ، وقد قرر اليونسكو أن يستضيف في ذلك الاجتماع د. الجزولي دفع الله رئيس وزراء "انتفاضة أبريل" ، وكان ذلك بمثابة تكريم من اليونسكو لتلك الانتفاضة.

ونسبة لعلاقات بلغاريا مع السودان منذ الاستقلال - لأن هذه العلاقة قد تعرضت للإهمال والقطيعة بعد محاولة الانقلاب الشيوعي في عام ١٩٧١م - فقد رحبت بلغاريا بسقوط نظام نميري في السودان أسوة ببقية الدول الشيوعية.. ولذلك عندما عرضنا أن تكون زيارة رئيس الوزراء إلى بلغاريا زيارة رسمية لبلغاريا يخاطب أثناءها مؤتمر اليونسكو.. سارعت بلغاريا بالموافقة على ذلك الاقتراح.



مع رئيس بلغاريا ود. الجزولي دفع الله رئيس وزراء الانتفاضة. صوفيا ١٩٨٥

لهذا توجهت إلى صوفيا للإشراف على ترتيب زيارة رئيس الوزراء أثناء انعقاد مؤتمر اليونسكو ، وقد كنت أذهب إلى وزارة الخارجية للالتقاء مع المسئولين لذلك الغرضّ ، وعلى رأسهم السفير "سمساروف" مدير الإدارة العربية ، وهو مستشرق درس اللغة العربية بدمشق ويتحدثها بطلاقة ، كما أنه يجيد حفظ وإلقاء الشعر العربي.

وكنت أصر على الاخ السفير يوسف مختار على مصاحبتي في تلك الاجتماعات بحكم خبرته ، ولأنه زميل في هذه المهنة ، ولأنني كنت استمتع بصحبته وروحه التي تميل إلى الدعابة والسخرية، وكان يرحمه الله يسخر دائماً من الشيوعيين ، ويطلق عليهم اسم "الشعوعيين".. وأذكر أثناء زيارات زعماء حركات التحرير الأفريقي إلى الخرطوم - وكان معظمهم من اليساريين - في فترة عملي كمدير للإدارة الأفريقية بالوازرة ، وإهتمامي بقضاياهم فقد إتهمني الأخ يوسف بأنني صرت شيوعي مثلهم.

وفي ختام زياراتنا لوزارة الخارجية البلغارية ، وقبل وصول رئيس الوزراء بساعات اختلفت مع السفير "سمساروف" حول بعض النقاط في البيان المشترك الذي سوف يعلن بعد نهاية الزيارة ، وكان الاختلاف في بعض العبارات "كالهيمنة" و"حرب النجوم" التي تعتبر من أدبيات الدبلوماسية الشيوعية في محاربة الولايات المتحدة الأمريكية وقد كنت مصراً على تغيير تلك التعابير في ذلك البيان حتى لا توصف "انتفاضة أبريل" بأنها تقع تحت نفوذ وتأثير التوجهات الشيوعية.

امتد هذا النقاش والخلاف بيننا لمدة طويلة.. حتى استطعنا - وبعد عناء طويل - أن نصل إلى صيغة ترضي الطرفين ، وعند ذلك ارتاح الأخ يوسف مختار الذي ظل جالساً تلك المدة دون أن يشارك في الموضوع ، والتفت إلي السفير "سمساروف" قائلاً -ونحن نغادر مكتبه - وقال له : "هل تعلم يا سعادة السفير أن السفير هذا - يقصد شخصي- هو السفير الشيوعي الوحيد في وزارة الخارجية ، ولذلك فإنني استغربت لماذا يماطل ويشتد معك حول صيغة البيان بهذه الصورة".

فابتسم السفير سمساروف ورد عليه قائلاً : "ليس هناك تعارض.. فالشيوعي يجب أن يكون وطنياً في المقام الأول" ، فذهل الأخ يوسف من إجابة السفير وعلق ساخراً بقوله : "والله انتو يا الشعوعيين أصلكم ما بتتغلبوا في الكلام".

وإلى جانب الإعداد لزيارة رئيس الوزراء إلى بلغاريا ، والبيان المشترك الذي اتفقنا عليه مع الجانب البلغاري.. فقد اشتركنا جميعاً في إعداد خطابه لاجتماع الجمعية العامة لليونسكو بصفته المتحدث الرئيسي في الاجتماع تكريماً - كما أسلفت - لانتفاضة أبريل.

وعندما وصل د. الجزولي ذهبنا والمرحوم يوسف مختار بصفته سفيراً للسودان بباريس ، ومندوب السودان لدى اليونسكو لنعرض عليه الخطاب الذي قمنا بإعداده للاطلاع عليه ، وإبداء ملاحظاته إن وجدت.. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها بدكتور الجزولي دفع الله...

وكان انطباعي آنذاك بأنه رجلاً ثائراً سياسياً وطبيباً عالماً ، ولكنني إلى جانب ذلك اكتشفت أنه رجل جاد إلى درجة الصرامة والتقوقع والتزمت..

فعندما بدأ في الاطلاع على الخطاب.. الذي كان يبدأ بمخاطبته للأمين العام لمنظمة اليونسكو وهو " مختار أمبو " من أبناء السنغال ، وهو أول مسلم يحتل هذا المنصب.. وقد شاءت الظروف أن يكون أحد المرافقين للرئيس السابق جعفر نميري في طائرته الخاصة الذي كان في طريقه من باريس إلى السودان عام ١٩٧٦م ، عندما استطاعت المعارضة السودانية الاستيلاء على بعض المواقع الهامة في العاصمة : كبعض الوزارات والإذاعة والتلفزيون ، وكان مخططاً اعتقال نميري فور وصوله إلى مطار الخرطوم.

وقد شهد " أمبو " كل تلك الأحداث.وشملته الرعاية والعناية بعد فشل ما سمى لاحقاً بالغزو الأجنبي ، وتوطدت علاقاته بالسودان منذ ذلك الحين.. ونعود إلى الخطاب مرة أخرى.. الذي كان يبدأ مخاطبة الأمين العام " بأخي مختار أمبو " ولدهشتي ودهشة المرحوم يوسف.. فقد نظر إلينا د. الجزولي قائلاً : كيف أخاطب هذا الرجل بأخي وأنا لم ألتق به في حياتي؟ فأشرنا إليه أن هذا أسلوب متبع في مثل هذه المناسبات ، وليس له أي مدلول شخصي.. وأنه قد يكون أكثر

ملاءمة في هذا الظرف بالذات ، لأن السيد " أمبو " قد تعرف إلى السودان ، وخاض تجربة كادت أن تودي بحياته.. وهو لذلك أصبح صديقاً للسودان ، وأن مخاطبته بهذه الصورة لا تخرج عن هذا النطاق.

ولكن لغة الدبلوماسية لم تستطع أن تتغلب على عقلية العالم الذي يرى الأشياء كما هي الأشياء.. وأصر د. الجزولي على حذف كلمة أخي من خطابه ، وما كان علينا أنا وصديقي المرحوم يوسف إلا الامتثال لرأيه.

إن هذه الحادثة لا تنقص من قدر د. الجزولي ووطنيته ورؤيته الشخصية بقدر ما تؤكد أن الانتفاضة كان لها أكثر من وجه وأكثر من رؤية.

ونحن قبيلة السودانيين نتحرك -كعادتنا التي نحسد عليها - في جماعية لاتستثني صغير رتبة او ذا إتجاه بعينه، ،إنما كنا جمعياً على قلب رجل واحد نستشعر حب السودان ونحمل همومه... وفي إحدى الأمسيات أثناء إنعقاد المؤتمر خرجنا من الفندق الذي كنا نقيم فيه مشياً على الأقدام وتوجهنا إلى أحد المطاعم الفخيمة بمدينة "صوفيا" الذي يقدم طبق "القولاش" البلغاري الشهير وإلى جانب ذلك فإن بالمطعم فرقة موسيقية تخصصت في عزف السيمفونيات الكلاسكية الشهيرة ، وخاصة "الدانوب الأزرق" التي يحبها د. بشير البكري.

وعندم وصولنا إلى المطعم قابلنا في المدخل احد المسئولين فطلبنا منه أن يعد لنا طاولة لتناول طعام العشاء ، فأخبرنا دون إكتراث او إهتمام بأنه لايوجد مكان شاغر.. وأشار الينا بالإنتظار بصالة المطعم حتى ينتهي من بالداخل من تناول طعامهم ومن ثم يستطيع أن يعد لنا الطاولة.. فترددنا بين الذهاب إلى مطعم آخر.. أو الإنتظار... وقررنا الإنتظار خاصة وأن رائحة الطعام التي كانت تنبعث من الداخل قد أغرت بعضننا أن يفضل الإنتظار.. فإنتظرنا بالصالة.. وعندما طال إنتظارنا نهض فجأة السفير يوسف مختار - رحمه الله - وخاطب المسئول بجدية اذهلتنا قائلاً بأنه يريد مقابلة مدير المطعم.

وبعد فترة جاء رجل في متوسط العمر يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق بالطريقة الفرنسية ، وبدأ الأخ يوسف يتحدث معه باللغة الإنجليزية ، واتضح انه لا يتكلم الإنجليزية فخاطبه باللغة الفرنسية ، فإذا به يتحدثها بطلاقة ولم يستغرق الحديث طويلاً .. ورأينا الرجل قد تغيرت ملامحه وبدأ ينظر إلينا وإلى د. بشير البكري نظرة احترام ودهشة كبيرة.. ثم تركنا وأسرع إلى داخل المطعم.

وفجأة رأينا أعداداً كبيرة من "الزبائن" تغادر المطعم فوراً ، وترتيبات تجرى بسرعة داخل المطعم.. وما هي إلا دقائق فإذا بالمدير يعود إلينا ويتحدث مع الأخ يوسف وطلب منا أن نتوجه إلى داخل المطعم.. ولدهشتنا ، وجدنا أن طاولة مستديرة كبيرة قد أعدت لنا في منتصف المطعم ، وعليها كل أنواع الأزهار والورود وأنواع الشراب والمقبلات ، وجلسنا في حالة استغراب واندهاش من هذه المعاملة وكأن بيننا رأس الدولة.

وما هي إلا لحظات وجاءت فرقة موسيقية تحيط بنا وتعزف ألحاناً جميلة.. وبدأت بعزف "الدانوب الأزرق" ، وبدأ الطعام يهبط على مائدتنا بأنواع وأشكال مختلفة.. وكانت سعادتنا بهذه المعاملة لا توصف.. وفجأة سأل د. بشير البكري الأخ السفير يوسف مختار عن السبب في هذه المعاملة؟ فرد عليه الأخ يوسف بكل بساطة وبأسلوبه الساخر ، وابتسامته المعهودة وسيجارته التي لا تفارق يده قائلاً : "ما في حاجة يا د. بشير أنت عارف الشيوعيين ديل ناس هُبل ، وعشان كده قلت ليهم انك سكرتير الحزب الشيوعي السوداني.. وفي زيارة رسمية لبلغاريا بس تاني ما قلت أكثر من كده والحصل حصل".

فضحكنا جمعياً من ذلك إلا د. بشير البكري الذي بدا جاداً وواجماً ، فقال له الأخ يوسف : " معليش إذا كنت خايف من الأخ نقد أنا سوف اشرح له ما حصل.. " لكن د. بشير قال : "أنا ما خايف انو نقد يزعل ، لكن أنا زعلان لأنك وصفتني بأنني شيوعي.. وهذه تهمة لا تليق بي إطلاقاً".



الستار الحديدي



بعد أن قضينا أياماً مع وفد السودان وبصحبتي الأخ والصديق المرحوم السفير يوسف مختار ، أثناء انعقاد الجمعية العامة لليونسكو بصوفيا ، وانتهاء زيارة د. الجزولي إلى بلغاريا.. وكنت طيلة تلك الأيام أحكي له عن الوضع في رومانيا.. وكيف تعيش قبيلة الدبلوماسيين والستار الحديدي الذي يفرض على أعضاء السلك الدبلوماسي.. وأن الدولة المضيفة هي التي تقرر لك أين تسكن وأين تختار مقر السفارة وأين تتعالج.. وأين تشتري ما تريد.. وأين تقضي وقتك الخاص..

والمرحوم يوسف الذي كان سفيراً في باريس.. ولم يعمل أبداً في أي دولة من دول المعسكر الاشتراكي (آنذاك) كان يستمع لي بين مصدق ومكذب.. وفي مرات عديدة كان يتهمني بالمبالغة.. وإنني كرهت رومانيا.. أو أنني بطبعي قلق أريد التغيير.. وكان يقول لي أنه الآن في بلغاريا وبلغاريا أيضاً دولة شيوعية.. بل تعتبر أكثر شيوعية من رومانيا لأنها الأقرب إلى موسكو من رومانيا.. وكنت أرد عليه بأنه جاء في هذه المناسبة التي قررت فيها بلغاريا أن ترفع عنها حجاب "الماركسية" من أجل إنجاح مؤتمر اليونسكو.وبعد ذلك كل شيء سيعود كما كان.. ولكنه لم يصدق.

وعندما كنت استعد لأن أعود إلى مقر عملي ببوخارست ، اقترحت علي الأخ يوسف مرافقتي لزيارة بوخارست ، وقضاء أيام هناك في طريق عودته إلى باريس.. خاصة وإني حضرت بسيارة السفارة والطريق إليها جميل جداً والرحلة من صوفيا إلى بوخارست لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات.. ولمعرفتي بالمرحوم

يوسف وشكواه من الغلاء في باريس وارتفاع الأسعار ، بدأت أعدد له الإغراءات بأن بوخارست رخيصة جداً خاصة أن البدلة الفخمة لا تكلف أكثر من عشرين دولار ، والحذاء الممتاز لا يكلف أكثر من عشرة دولارات.. أما أواني الكريستال التي تعجب بها النساء السودانيات فحدث ولا حرج..

ولسعادتي فقد أبدى المرحوم يوسف موافقته فوراً على الذهاب معي إلى بوخارست.. ولقد كنت سعيداً بذلك القرار لأن المرحوم يوسف صديق منذ أيام الدراسة بجامعة الخرطوم وازدادت هذه العلاقة وتعمقت عند ما التحقنا معاً للعمل بوزارة الخارجية.

وتحركنا صوب بوخارست.. وبدأت مرة أخرى أكرر له صعوبة التعامل مع الأجهزة الرسمية في الدول الشيوعية.. ولأن لا أحد يستطيع أن يفتي لك في شيء ما إلا بعد عدة أيام.. وكأن هنالك حكومة سرية تنظر في كل شيء وتعرف كل شيء عن الدبلوماسيين برومانيا.. وأيضاً أبدى سخريته مما كنت أذكره له.. وكان يعلق دائماً بأن "الشعوعيين" كما كان يطلق عليهم مجموعة من " الهبل " يمكن الضحك عليهم بسهولة.

وبعد أكثر من ساعة بقليل توقفنا عن الحدود البلغارية ولحسن الحظ مررنا بها دون تأخير وبعد دقائق توقفنا في الحدود الرومانية والمسافة التي تفصل بين البلدين هي جسر نهر الدانوب العظيم.. ولكن غير النهر ليس هنالك شيء يريح الأعصاب.. فالأسلاك الشائكة تحيط بالمكان والأسوار العالية تغطي كل شيء ومنظر الجنود وهم يحملون المدافع الصغيرة يدخل الرعب.. يجعلك تشعر بأنك في ميدان حرب.

وعند مشاهدة تلك المناظر بدأ المرحوم يوسف يتوجس شراً ولعله بدأ يتذكر بعض ما كنت أقوله له عن هذه البلاد.. وتوقفنا في شريط معين معد لمرور

السيارات الدبلوماسية وكانت أمامنا سيارة كتب عليه باللون الأحمر TC، وهي ترخيص رومانيا وهذه الحروف تعني السلك الدبلوماسي الفني أي أن السيارة تتمتع بامتيازات دبلوماسية معينة ، وليس كسيارتنا التي كتب عليها CD، أي هيئة دبلوماسية وكان السائق قد رفع العلم على السيارة حتى يشعر حرس الحدود بأن هذه سيارة سفير.

وكان الوقت يميل إلى الغروب.. عندما كنا نتطلع وننتظر عبور السيارة التي أمامنا.. لكن ما شاهده المرحوم يوسف بأعينه لم يسنه أبداً ،قد كان هنالك أربعة من الجنود حول السيارة وأبواب السيارة كلها مفتوحة وقد أفرغوا السيارة من كل ما عليها وصاحب السيارة كان واقفاً وزوجته ينظران لذلك الحساب العسير.. وبدأت الشمس تختفي.. وبوادر الظلام تبدو.. وأخيراً شاهدنا رافعة تقف أمام السيارة التي أمامنا وترفعها حوالي مترين عن الأرض والجنود الأربعة يفحصون السيارة بالبطاريات من تحت.

وهنا بدأ المرحوم يوسف يصاب بقلق شديد.. لدرجة أشار إلى بالعودة إلى صوفيا.. فقلت له هذه مخاطر كبيرة وقد يشك فينا الحرس وقد يطلق علينا الرصاص.. لأن كل شيء محتمل في هذه البلاد ، ومصيرنا يتوقف على هؤلاء الجنود الأربعة ، وليس لنا خيار غير الانتظار وفجأة تحرك صاحب السيارة إلى خارج الشارع وخلفه أحد الجنود وهو يحمل المدفع مصوباً نحو ظهره.. وعند ذلك التفت نحوي المرحوم يوسف والزعر يملأ وجهه قائلاً : أخشى أن يكونوا قد قرروا قتله.. وضحكت ضحكة عالية.. حتى أخفف عليه ذلك الشعور ، ولكنه ظل منفعلاً ومتوتراً حتى بعد أن عاد صاحب السيارة.

وبعد قرابة الساعة عاد كل شيء إلى طبيعته وسمح الجنود للسيارة التي أمامنا بالمرور ، وعندما تحركنا إلى المكان المعد للوقوف طلبت من المرحوم يوسف أن

يخـرج جـواز سـفـره وأخـرجت جـواز سـفـري (والاثنان جـوازات دبلومـاسـيـة) وأعطيتهم للسائق لكي يسلمهمـا إلى الحـرس فنظر الحرس إليهمـا ثم توجه نحو مكتب قريب.. أخذت الدقائق ، تمر ببطء.. وازداد توتر المرحوم يوسف وبدأ العرق يتصبب من جبينه واختفت بسمته ودعـابته.. وبدأ يلعن موافقته على مرافقتي إلى رومانيا.

وعندمـا عـاد الحـرس طلب منا إبراز البطاقة الشخصية وكانت بطاقتي معي فسلمتهـا له.. لكن طلب الحـرس البطاقة الشخصيـة للأخ يوسف ، فقلت له أنه سفير السودان في باريس.. وليس لديه بطاقة شخصية رومانية.. ولكنه أصر على أن يبرز له المرحوم يوسف البطاقة الفرنسية فالتفت إلى يوسف وسـألته إن كانت بطاقته الشخصية معه.. فرد بأنه لا يعتقد ذلك.. فطلبت منه أن يبحث عنها في حقيبته وأوراقه التي كان يحملها.

ويبـدو أن المرحـوم يوسف قـد تأكـد أننا نواجـه مـوقـفـاً عـصـيـبـاً ونـدم على استخفافه بحديثي عن تلك البلاد ومـا يمكن أن يواجهه الشخص من مـواقـف.. وبارتبـاك شـديد.. وقلق واضطراب بدأ يبـحث في حـقـيـبـتـه.. وفـجـأة صـاح كأرخميدس.. وجدتها.. وجدتهـا.. وجدتهـا ، وبدى فـرحـاً كـالطفل بهذا الإنجاز.. بدأت أنا في الضحك مرة ثانية.

وبعد دقـائق سمح لنا بالمرور ودخلنا الأراضي الرومانيـة وعند ذلك علق المرحوم يوسف قـائلاً : الحـمـد لله طلعنا من ورطة ، فـقلت لـه إمـعـانـاً في تخـويفـه : إن الخروج من رومانيا أصعب من الدخول إليها.. وكاد أن يغمى عليه..



مع أمير المؤمنين



اتسمت علاقات السودان برومانيا دون بقية دول المعسكر الاشتراكي بخصوصية وبصفة خاصة في عهد مايو ، حيث تطورت تلك العلاقة إلى شبه صداقة شخصية بين شاوسيسكو ونميري ويرى


مع شقيقي المرحوم عبدالعزيز دياب

البعض أن تلك العلاقة الشخصية مردها إجادة الاثنين اللعب على الحبال السياسية ، ولكن شاوسيسكو قد نجح بذلك الأسلوب في خدمة أهداف بلاده ، وتقوية موقفها كدولة ذات شخصية اعتبارية داخل المعسكر الاشتراكي وخارجه ، مما عاد على رومانيا بفوائد كثيرة خاصة في المجالات الاقتصادية. إذ كانت رومانيا قبل الإطاحة بشاوسيسكو الدولة الوحيدة من دول العالم التي أصبحت خالية من الديون ، وفي نفس الوقت خطت خطوات بعيدة في مجالات التصنيع المختلفة ، وحققت نمواً اقتصادياً كبيراً ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلتها أكثر استقراراً سياسياً واقتصادياً من بقية دول المعسكر الاشتراكي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي السابق.

ولكن ما عاد على السودان من تلك العلاقة كان يختلف تماماً عن رؤية رومانيا ، فقد حاول النظام المايوي تقليد الأسلوب " الشاوسيسكي " الذي اتسم بالقوة والضغط من أجل الاستقلال عن هيمنة روسيا على دول المجموعة الاشتراكية ، وتحقيق رغبته في رومانيا جديدة تستطيع أن تقف على أرجلها ، وتعتمد على

ذاتها ولعل هذا يعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي عجلت برحيل شاوسسكو على الرغم من إنجازاته الكبيرة في ذلك الاتجاه.

وفي الوقت الذي كانت فيه علاقات رومانيا مع السودان ، وغيره من دول العالم الثالث - الأقل نمواً - مدروسة ومخطط لها كأحد مجالات التعاون التي تستطيع رومانيا عن طريقها تسويق منتجاتها الصناعية ، التي عادت عليها بفوائد محسوسة خاصة في مجال مصادر العملة الصعبة.. ترك الجانب السوداني هذه العلاقات تستمر لاعتبارات شخصية وسياسية سطحية دون تقييم موضوعي لأهميتها وفوائدها. ودون إخضاع الجهات السودانية التي كانت تمثل الجانب الروماني في تنفيذ الصفقات التجارية بين البلدين لرقابة محكمة ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن التعامل التجاري مع المؤسسات الرومانية كانت تحوم حوله الكثير من الشبهات، حيث كانت رومانيا تهتم في علاقاتها بدول العالم الثالث بالمكاسب الاقتصادية وليس المكاسب السياسية أو العقائدية.

ولهذه الأسباب تبادل الرئيسان الزيارات في مختلف مناسبات البلدين.. وفي عام ١٩٨٤م ، تم اختياري سفيراً للسودان برومانيا بعد أن أعيد افتتاح السفارة السودانية هناك، والتي كانت قد أغلقت ضمن ثلاثة وعشرين سفارة قبل عام واحد فقط ، أي في عام ١٩٨٣م ، ووصلت رومانيا في بداية يوليو من ذلك العام ، وبدأنا في مهمة إعادة تجهيز السفارة من الصفر ، وهذه تعتبر من المهام الشاقة في العمل الدبلوماسي ، ومما يجعل ذلك أكثر مشقة : إن رومانيا كانت كبقية الدول الاشتراكية ، حيث تخضع كل تلك الإجراءات لموافقة ورقابة وزارة خارجية الدولة المضيفة.

قد اتخذنا من غرفتين في فندق " انتركونتننتال "مقراً مؤقتاً للسفارة ، وكان الفندق يعتبر أهم رموز بوخارست العاصمة ، وأفخم فندق فيها وأحد معالم الغزو

الغربي للدول الاشتراكية ، ونحن في دوامة البحث عن الاستقرار وتجهيز مقر السفارة ومقر السفير وسكن أعضاء البعثة الدبلوماسية ، وصلنا إخطار بأن الرئيس السابق " جعفر نميري " سوف يحضر احتفالات رومانيا بالاستقلال ، والذي يقع في شهر أغسطس من كل عام وعلى الرغم من قلة الإمكانيات وعدم إلمامنا بكثير من جوانب الأوضاع في رومانيا وعلاقاتها بالسودان ، بدأنا في التحضير لتلك الزيارة.

وكان شقيقي المرحوم العميد " عبد العزيز " قد اعتاد أن يقدم لي النصح في مثل هذه المناسبات خشية أن أسيء التصرف ، أو لا أقوم بواجبي بالصورة المرضية ،.. كما أنه يبدو أن "العساكر" بصفة عامة لهم مفاهيم واهتمامات خاصة ، قد لا يعيرها "المدنيون" اهتماماً.. وقبل أسبوع من بداية زيارة الرئيس السابق نميري ، أرسل لي الأخ عبد العزيز خطاباً يطلب مني فيه اتخاذ الحذر ، لأن نميري هذه المرة قادم إلى رومانيا وهو " أمير المؤمنين " وليس رئيساً فقط ، بعد أن تمت مبايعته أميراً للمؤمنين بعد تطبيق قوانين سبتمبر ١٩٨٣م ، وتعرض فيها إلى بعض النصائح والتفاصيل مثل أهمية قص شعر رأسي مثلاً، وأن أخبر الرئيس بمواعيد الصلاة ، واتجاه القبلة في بوخارست...ألخ

وكعادتي نفذت كل تعليمات شقيقي ، وعندما وصل نميري إلى بوخارست ، واستقر في منزل الضيافة الذي أعد له.. قمت بتنويره عن اتجاه الصلاة ، وسلمته ورقة مطبوع عليها أوقات الصلوات الخمس ، فنظر إليها وطبقها ، ونظر لي نظرة خاصة ثم وضعها في جيب جلابيته ، ولقد استغرقت تلك الزيارة خمسة أيام ، وكنا نجلس معه ساعات طويلة بمنزل الضيافة ، ولكنني لم أره يصلي مرة واحدة ، ولم يطلب منا الصلاة عندما يدخل وقت الصلاة ونحن معه.. مما أثار دهشتي وتعجبي ! خاصة وأني كنت بين مؤمن ومصدق لتوجهاته الإسلامية الأخيرة التي حاول أن يفرضها على كل السودان.

بعد انتهاء الزيارة ، وبعد أن انتهى حفل الوداع الرسمي بحضور شاوسيسكو وأعضاء الحزب والحكومة ، التفت نميري لوداعي.. وفجأة أخرج من جيبه الورقة التي كانت تحتوي على مواعيد الصلاة ، وأعادها لي وكرر مرة أخرى نفس النظرة التي أبداها.. حينما سلمته إياها عند وصوله. .ولسان حله يقول " ألعب غيرها يا أبو دياب " وعندئذ فقط أدركت لماذا صار نميري فجأة أميراً للمؤمنين.

حادثة أخرى حدثت في أول يوم لوصوله إلى بوخارست ، إذ كنا نتفقد منزل الضيافة ونطمئن على راحة الرئيس.. وفجأة التفت إلى الصديق د. مصطفى كامل عيسى ، وكان الطبيب الخاص للرئيس وسألني :

- "يا أحمد كيف يذبح الرومان الخراف والبقر "

ولقد أبديت دهشتي لهذا السؤال وقلت له :

- "لا أدري ".

فخاطبني مرة أخرى قائلاً :

- "كيف لا تدري وأنت تعلم أن السيد الرئيس لا يأكل إلا اللحوم المذبوحة على الطريقة الإسلامية ".

فكان ردي ببساطة :

- "والله يا دكتور مصطفى حسب علمي أنني سفير ولستُ جزّاراً ".

وعند ذلك انضم إلينا الرئيس نميري وبعض أعضاء الوفد ، فقام الدكتور مصطفى بمخاطبة نميري مباشرة قائلاً :

"يا ريس ، الرومان ديل بيضربوا الخراف والأبقار بالبندقية ولا يذبحونها إطلاقاً "

فنظر إليه النميري ونظر إليّ ، ثم سألني

- هل هذا صحيح يا دياب؟

فكررت ردي السابق

- بأنني لا أدري ".

عندئذ تحرك نميري ونحن من ورائه وقال :

- "يا مصطفى يضربونها بالبندقية أو بالمدفع دي حاجة تخصهم ، ولكننا سوف نأكلها يعني عاوزنا نموت من الجوع ".

وبذلك أفتى أمير المؤمنين للجميع بمن فيهم د. مصطفى بجواز أكل اللحوم أثناء الزيارة.. وكانت تلك فتوى " عصرية " ليته أفتى بمثلها في قضايا أهم لاحقاً.



مبعوث الرئيس





مع السيد الصادق المهدي
رئيس وزراء السودان الأسبق

في أغسطس عام ١٩٨٤م، قدمت أوراق اعتمادي كسفير للسودان لدى رومانيا وأعدت تأثيث السفارة مرة أخرى بعد القرار الجائر الذي اتخذ بإغلاقها في العام السابق، وفي فبراير عام ١٩٨٥م، كنت في إجازة بالسودان، وكان الطقس في الخرطوم جميلاً، ولكن الطقس السياسي كان ساخناً إلى درجة الغليان، وفي الفترة القصيرة التي قضيتها في الخرطوم.. فلقد بدت ليالي الخرطوم المظلمة تشبه إعداد المسرح لأحد فصول رواية "ماكبث" للأديب "شكسبير" وكأن المسرح سوف يشهد قريبا الفصل الأخير من فصول ما اصبح يسمي في تاريخ السودان السياسي "بانقلاب مايو".. أو "عهد نميري".

فقد كانت هناك قناعة تامة لدى أغلبية الدوائر - وبصفة خاصة المهنيين والمثقفين والأحزاب (يسارها ويمينها) - بأن "مايو" يجب أن تذهب وعلى الرغم من أن النظام ما زال يتمتع بسطوة وهيبة ممثلة في تأييد القوات المسلحة.. وفي سلطة وقوة "جهاز الأمن القومي" وجبروته، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الشخصيات الوطنية من أن تتحرك وبصورة مكشوفة في بعض الأحيان - من اجل الإطاحة بمايو، وإعداد البلاد لمرحلة التغيير.. مما عرض بعضها إلى الاعتقال والمراقبة والملاحقة بصفة دائمة إلى أن تفجرت الانتفاضة في "٦ أبريل" من نفس العام.

ولقد كنت لصيقاً ببعض تلك الشخصيات التي كانت تربطني بها علاقات زمالة أو صداقة ، ولذلك لم يكن هنالك حجاب بيننا على الرغم من أنني كنت بحكم وظيفتي ومهنتي من رجال النظام الذين لهم مصلحة في بقائه واستمراره.. لكن هكذا كان السودان، وكان أهل السودان ، فإن مصلحة السودان كانت تعلو على كل المصالح، وحب السودان كان هو الحب الأكبر لأبنائه.

وأثناء تلك الفترة - وأنا أشاهد ما كان يجري في الخفاء - استدعاني الأخ هاشم عثمان - وكان وكيلاً بوزارة الخارجية إلى مكتبه لأمرٍ هام - وعندما حضرت لمقابلته ، طلب مني الذهاب فورا إلى القصر الجمهوري لمقابلة الرئيس السابق جعفر نميري ، لأنه قرر أن يرسلني كمبعوث خاص له برسالة إلى جلالة الملك حسين ملك الأردن.. فقلت له لكنني قد تركت الأردن منذ اكثر من عام ، وأنا الآن سفير السودان برومانيا .. فطلب مني بطريقته التي لا ترغب في المجادلة أن أذهب فوراً للقصر.

فذهبت إلى القصر ، وطلب مني الانتظار لمقابلة السيد الرئيس ، وبعد فترة قليلة دخلت إلى مكتب السيد الرئيس فتبادلنا التحية والسلام ، ولم نتقابل منذ أغسطس الماضي عندما قام بزيارة إلى رومانيا ، وأخبرني بأنه قرر أن يكلفني بمهمة تسليم رسالة خاصة للملك حسين ، لأنه لا يوجد سفير هناك ، ولأن لي علاقات طيبة مع جلالته ومع سمو الأمير حسن ، وقال لي بالحرف الواحد : " لأنهم يحبونك وتحبهم".

ووافقت على الفور على ذلك التكليف ، لأنني كموظف لا أملك حق الرفض ،وخاصة لرئيس الجمهورية ، وبدأت في إكمال الإجراءات للسفر.. وقامت رئاسة الجمهورية ببقية الإجراءات الخاصة بالمهمة ، ومن ناحية شخصية فقد سررت بالمهمة لأنها سوف تتيح لي فرصة تجديد اللقاء مع العديد من الأصدقاء الذين تركتهم خلفي في الأردن منذ عام ١٩٨٣م.

وحملت الرسالة.. وغادرت إلى عمّان تلك العاصمة الجميلة التي أحببتها ، والتي سحرتني بطبيعتها وبجبالها وبأهلها ، كما أنها كانت من المحطات الهامة التي عملت بها ، وقد تعلمت منها الكثير خاصة كل ما يتعلق بالوجه الحقيقي من " قضية الشرق الأوسط " بعد أن تعرفت على الوجه الآخر أثناء الفترة التي قضيتها بسفارة السودان بالقاهرة.

وكانت الرسالة تتعلق بتأييد مرشح السودان - أحد كوادر الاتحاد الاشتراكي السوداني آنذاك - لأحد المواقع في المنظمات الإقليمية العربية ، وقد اندهشت بأن نميري - والذي بدأ تحيط به المشاكل من كل جانب - لا يزال يجد الوقت والمزاج للكتابة لرؤساء الدول العربية في تلك القضايا الجانبية ، والتي يعتبر الاهتمام بها في ذلك الوقت ضرباً من ضروب الرفاهية ، وتبلد الإحساس بما كان يدور حوله في الخفاء.

ولقد استقبلني جلالة الملك حسين بمكتب رئيس الديوان السيد " عدنان أبوعودة " كما حضر الاستقبال أيضا السيد "مروان القاسم" وزير الخارجية ، ولقد جعلني ذلك الاستقبال بتلك الصورة ، أرى أن الملك حسين لم يكن يكترث لفحوى تلك الرسالة.. لأن الاستقبال كان يجب أن يتم بمكتبه وعلى انفراد ، لأن الرسالة كانت شخصية من رئيس دولة إلى رئيس أخرى ، ويحملها ممثل شخصي لذلك الرئيس.

وبعد أن قرأ الرسالة بصورة عاجلة وضعها جانباً ، والتفت نحوي وسألني بكل جدية " ماذا يحدث في السودان؟ " ,فأصابني نوع من الارتباك.. لأنني لم اكن أتوقع ذلك الموقف ، خاصة وقد كان تكليفي يقتصر على تسليم الرسالة فقط . وعندما رأى جلالته ارتباكي استطرد قائلاً : بأنه يهتم بالعلاقات بين الأردن والسودان ، ويقدر موقع السودان بالنسبة لحكومة وشعب الأردن . ولكن لماذا قام

السـودان بتـرحـيل " الفـلاشـا؟ " عندئذ أخـرج رئيس الديوان عـدنـان أبوعـودة قـصـاصـات من الصـحف الأردنيـة كلها تتـحـدث عن مـوضوع " الفـلاشـا " وتكيل السباب والشتائم للسودان ، وللرئيس نميري بصفة خاصة.

وفي تلك اللحظة تذكـرت عندمـا وصلت للأردن في عـام ١٩٧٨م ، سـفـيـراً للسودان هناك.. ما كان يتمتع به نميـري من محبـة وإعجاب لدى الشعب الأردني على مـختلف اتجـاهاته، وكانت صـورة نميـري معلقـة في معظم المحـال التـجـارية والمطاعم المنتشرة في عمّان ، نسبة للدور الذي قام به بعد أحداث " يوليو الأسود " ، ذلك الإعجاب وتلك المحبة قد كانت رصيـداً جيداً في تسهيل مهـمـة السفـارة ، وفي فتح كل الأبواب على مصراعيها من أجل تطوير العلاقات بين البلدين.

فأصابني نوع من الغثيان ، وأنا أرى أن صورة بـلادي العظيمة تتمزق أمام عينيّ وأن رصيد العـلاقات الممتازة الذي استطعت أن أحققه بعد قضـاء خمسة أعوام بالأردن بدأ يتـآكل على جدار الخيانة والتـلاعب بمقدرات الأمـة العربيـة والشعب الفلسطيني ومن أجل مـاذا؟.. وقد اتضح فـيـمـا بعد أنه كـان من أجـل "حفنة " من الدولارات.

فما كان مني إلا أن خلعت لبـاس المبعوث الخـاص للسيد الرئيـس ، ولبست لبـاس السـوداني " ود البلد " ، وبدأت أتحـدث عن الوضع في السـودان كمـا خلفتـه ورائي، وعن احتمـالات " التغيير ". وعندما شـاهد الملك حسين حمـاسي واندفـاعي انفجر ضاحكاً وقال لي : "هل نسيت انك المبعوث الشخصي للرئيس نميري؟ " ، فقلت له " لقد أديت الواجب وسلمت الرسالة ، وقد انتهت مهمتي الرسمية.. وأنا الآن في مهمة خاصة أمثل فيها الشعب السوداني ، والسودان الذي يعرفه ويحبه أهل الأردن ".

وفي اليوم التـالي ، حُدد لي موعـد للاجتمـاع بسـمو الأميـر حسن ولـي عـهد الأردن آنذاك ، والذي كـانت ومـا زالت تربطني به روابط الصـداقة والاهتمـامات

المشتركة. وعندما تقابلنا بادر سموه بالسؤال عن الأحوال في السودان ، خاصة بعد إعدام الأستاذ "محمود محمد طه" ، فأكدت له أن الرئيس نميري أصبح يخوض حرب البقاء أو الفناء ، ولذلك فهو على استعداد لاتخاذ أي خطوة مهما كانت خطورتها إذا كانت تهدد بقاءه في السلطة.

وكانت تربط سمو الأمير علاقة صداقة بالسيد الصادق المهدي من أيام الدراسة بكلية فكتوريا بالإسكندرية ، وقد قام السيد الصادق المهدي بزيارة إلى الأردن في عام ١٩٨٢م ، والتقى فيها بجلالة الملك حسين وبالأمير حسن. لقد شعرت أثناء تلك الزيارة بدفء وصدق العلاقة بين الطرفين ، بالإضافة إلى أنه قد تم اختيار السيد الصادق المهدي عضوا في مجلس أمناء مؤسسة " آل البيت ".

ولذلك عندما سألني سمو الأمير حسن عن موقف السيد الصادق في هذه الظروف قلت له إن الرئيس نميري لن يتردد في إلحاق مصيره بمصير الأستاذ "محمود محمد طه"، إذا شعر أنه يهدد سلطته ، أو إذا حاول السيد الصادق القيام بتحركات سياسية في هذه الظروف ، لأن تلك التحركات قد تكون قاتلة بالنسبة لنميري.

فبدأ الانزعاج والقلق يبدوان على وجه سمو الأمير حسن ، فسألني عن رأيي في الأسلوب الذي يمكن السيد الصادق من الخروج من السودان في هذه الظروف.. فاقترحت عليه بأن توجه له دعوة لحضور اجتماع مجلس أمناء مؤسسة آل البيت بالأردن ، فانفرجت أسارير الأمير حسن وقال لي : إنه سوف يكتب الدعوة ، وعليّ أن أحملها إلى السيد الصادق.

ولكنني ذكرت لسموه بأن ذلك قد يخلق مشاكل بالنسبة لي وبالنسبة للسيد الصادق ، وقد لا يؤدي إلى تحقيق الهدف من تلك الدعوة. فأشرت على سموه بأن تكتب الرسالة وتسلم عبر القنوات الدبلوماسية ، أي : عن طريق سفارة الأردن

بالخرطوم إلى وزارة الخارجية السودانية حتى تكتسب الطابع الرسمي ، ولا تلفت النظر.. ويكون لها اعتبارها من ذلك المنطلق.

وبعد ذلك اللقاء بجلالة الملك واللقاء مع الأمير حسن ، وما دار في هذين من أحاديث وحوار.. شعرت أنني لا يمكن أن أتراجع ، خاصة وقد أبدت العديد من الجهات الرغبة في مقابلتي والتحدث عما يجرى في السودان فيما يتعلق بموضوع ترحيل " الفلاشا " ، ولماذا وافق " النميري "على هذه الخطوة؟ فاتصل بي الأستاذ " محمود الكايد " رئيس تحرير صحيفة " الرأي الأردنية " ونقيب الصحفيين ، وأفادني بأنه قد قام بالإعداد لكي التقى بعدد من قيادات النقابات بمجمع النقابات الأردنية.

وقد وافقت على ذلك ، وذهبت إلى مجمع النقابات وكنت على علاقة شخصية بعدد كبير منهم ، وكان على رأسهم الأستاذ " محمود الكايد " نقيب الصحفيين والأستاذ "إبراهيم بكر " (رحمه الله) نقيب المحامين وآخرين ، واستمر الاجتماع لمدة طويلة تناولنا فيه العديد من القضايا ، وقد حاولت أن أجد تفسيراً لتصرفات نميري الأخيرة : بأنها صراع من أجل البقاء ، حتى ولو مع الشيطان ، كما أنني ذكرت للحضور بأن هنالك عدداً من النقابات تعمل من أجل إسقاط النظام ، وهى تحتاج إلى دعم النقابات الأردنية في المرحلة القادمة.

ولعل بعض القراء يتذكرون أن النقابات الأردنية ، كانت من أكثر النقابات العربية تأييداً للانتفاضة وتجاوباً معها ، كما قامت الحكومة الأردنية باستقبال عدد من الوفود ، وقدمت تسهيلات مختلفة لحكومة الانتفاضة وللوزارة والأجهزة المختلفة ، وقد استمرت تلك العلاقة بصورة أو بأخرى بين السودان والأردن إلى الوقت الحاضر.

وعندما عدت إلى السودان ، تمكنت من توصيل نتائج زيارتي للأردن بصورة سرية إلى السيد الصادق المهدي ، وقد نجحت الخطة لإخراجه من السودان كما

أشرت إليها.. وبعد ذلك أبديت أعذاراً مختلفة للبقاء في السودان إلى أن اندلعت الانتفاضة في "٦ أبريل ١٩٨٥م" ، وكنت من الأوائل الذين هللوا وفرحوا بها.. ولكن اتضح أنها كانت فرحة قصيرة لم تدم طويلاً.



السودان.. الذى كان !!



لقد تمكن السودان بعد الاستقلال لأسباب عديدة من احتلال موقع متقدم بين الدول العربية والأفريقية ، وفي أن يكون له موقع مميز بين تلك الدول ويجد قراره وموقفه الاحترام والتقدير في كثير من الأحيان ، كما أن الكوادر البشرية السودانية من سياسيين ودبلوماسيين وإداريين ومعلمين إلى جانب قواته المسلحة ، قد عرفت بالكفاءة والنزاهة والقبول في الأوساط المختلفة ، مما كان يؤهله لأن يلعب دوراً قيادياً في الساحتين العربية والأفريقية ، وعلى الساحة الدولية أيضاً.



رئيس وزراء السودان الأسبق محمد احمد محجوب وعبدالناصر والملك حسين في القمة العربية الخرطوم ١٩٦٧م

ولم يجئ اختيار السيد مأمون بحيري رئيساً لبنك التنمية الأفريقي في سنة ١٩٦٣م صدفة ، وكذلك اختيار د.مكي عباس لرئاسة اللجنة الاقتصادية الأفريقية وفخر الدين محمد لرئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ود.منصور خالد لرئاسة لجنة السبعة للتعاون العربي الأفريقي ، ويحيى عبد المجيد لمؤتمر الأمم المتحدة للمياه واختيار فصائل من القوات المسلحة السودانية لتعمل في قوات حفظ السلام بالكنغو كنشاسا ، وفي النزاع بين الكويت والعراق ، وأن ينجح السودان في أن يكون وسيطاً مقبولاً وناجحاً في العديد من الوساطات في القضايا العربية الأفريقية ، مثل الوساطات بين مصر والسعودية حول اليمن.

ولكن السودان على الرغم من ذلك ، لم يحاول أن يستثمر هذا الوضع استثماراً حقيقياً وجيداً كعديد من الدول التي نجحت في تحقيق ذلك : كالهند وباكستان والنمسا وغانا ونيجيريا، بل ترك المجال للاجتهادات الشخصية لكسب ، أو احتلال تلك المواقع.. وإن أتاح موقع وموقف وظروف السودان بعد الاستقلال مباشرة نجاح بعض أبنائه في الفوز بتلك المواقع ، إلا أن المنافسة قد ازدادت حول تلك المواقع في فترة لاحقة بين الدول المختلفة ، كما أن اعتبارات أخرى قد أصبحت تلعب دوراً في ذلك الاختيار وليس الكفاءة والنزاهة والقبول فقط ، ولذا في ضوء فتور وتقوقع وعدم وجود إستراتيجية للسودان في هذا المجال ، فقد ضعف موقفه ، وقلت فرص أبنائه في الوصول إلى تلك المواقع الإقليمية والدولية، مما حرم السودان الإسهام في ساحة هامة من الساحات الدولية.

ولعل البساطة والقناعة ونوع الحياة الاجتماعية وطبيعة العلاقات بين السودانيين.. يعتبر سبباً آخر لعدم اتخاذ السودانيين المبادرة والسعي لدى الدوائر الحكومية المختلفة لارتياد هذه الآفاق في ساحات العمل الدولي ، وجعله رافداً من روافد العطاء باسم السودان على المستويات الإقليمية والدولية ، لأن السودان في الستينات والسبعينات لم يكن بلداً طارداً خاصة للكوادر المؤهلة التي كانت تفضل العطاء لوطنها ولأهلها وليس للآخرين.

ولكن السبب الرئيسي لتدهور موقف السودان واهتزاز شخصيته الإقليمية والدولية كان نتيجة إخفاق كل الأنظمة التي تعاقبت على الحكم بعد الديمقراطية الأولى. الأمر الذي دفع تلك الكوادر في فترة لاحقة إلى اتخاذ قرار الاغتراب المؤقت في البداية ، ثم الهجرة الدائمة لاحقاً .. والتي كان نتيجة دوافع وظروف مختلفة تماماً عن الهجرة الطوعية المدروسة والمطلوبة لتمثيل السودان في المواقع المختلفة من ساحات العمل الدولي ، وأصبح الحصول على تلك المواقع صعب المنال : إذ أن ثقل الدولة أصبح عنصراً غير متوفر ، كما كان عليه حال السودان في الماضي.

ولقد كنت أحد القلائل الذين راودته أفكار اقتحام الخدمة المدنية الدولية ، فقد تقدمت للالتحاق بمنظمة العمل الدولية في عام ١٩٧٥ وفي عام ١٩٧٨ عندما تقرر عقد مؤتمر القمة الأفريقي بالخرطوم رأيت هذه فرصة قد يكون نصيبي فيها من النجاح أكثر وأوفر من سابقاتها.. فتقدمت بطلب لرئاسة الوزارة أشرت فيه إلى أهمية تمثيل السودان في المنظمات الدولية ، والى أن الوجود السوداني في منظمة الوحدة الأفريقية لا يتماشى مع ثقل السودان في القارة ، ولذا اقترحت أن يقوم السودان بترشيحي مساعداً للأمين العام للمنظمة.


مع الرئيس الراحل انور السادات القمة الافريقية. الخرطوم ١٩٧٨


مع الجنرال عيدي امين. القمة الأفريقية. الخرطوم ١٩٧٨م

وبما أن للأمين العام أربعة مساعدين في ذلك الوقت يمثلون الأقاليم الأربعة للقارة الشمال والشرق والغرب والجنوب ، فإن فرصة السودان في أن ينال المنصب عن شرق إفريقيا كان كبيراً.. ولكن ذلك كان يقتضي جهداً دبلوماسياً مكثفاً مع الدول الأفريقية وإجراء اتصالات قبل انعقاد المؤتمر بوقت كاف لضمان حصوله على الدعم ، وكما كان متبعاً ومازال في مثل هذه الحالات.

ولكن طلبي أهمل ولم تكلف الوزارة نفسها حتى مجرد الرد على ذلك الطلب.. وفي منتصف عام ١٩٧٨م ، تقرر نقلي سفيرا للسودان بالأردن.. وبعد أن قدمت أوراق اعتمادي بفترة قصيرة تقرر استدعائي للعمل بالسكرتارية التحضيرية لمؤتمر القمة الذي عقد في يوليو في ذلك العام ، وتم استدعاء سفراء آخرين لنفس المهمة.

ولقد كان ذلك المؤتمر من أنجح مؤتمرات القمة الأفريقية التي عقدت منذ إنشاء المنظمة عام ١٩٦٤م ، من النواحي السياسية والإدارية والتحضيرية ، وقد أشاد به العديد من رؤساء الدول ووكالات الأنباء ، ويعتبر عدد الرؤساء الذين حضروا ذلك المؤتمر رقماً قياسياً في تاريخ المنظمة.. إذ جاء إلى الخرطوم أربعة وثلاثون رئيساً إلى جانب عدد من رؤساء الوزارات ، وكانت الطبيعة أكثر رحمة إذ ظللت سماء الخرطوم غمائم رطبة.. وكانت الأمطار تتساقط بلطف وحنان في ردهات المؤتمر.. وقد لعبت قاعة الصداقة بإمكانياتها وشموخها دوراً أساسياً في إنجاح ذلك المؤتمر مما دفع بالعديد من رؤساء الدول الأفريقية الأخرى للمشروع فوراً بعد عودتهم إلى بلادهم لإنشاء قاعات مماثلة ، وكان في مقدمة أولئك الرؤساء الرئيس الراحل أنور السادات.

وللحقيقة والتاريخ ، فقد قامت وزارة الخارجية السودانية في ذلك المؤتمر بجهد جبار ونجحت في تسخير كل إمكانيات الدولة وأجهزتها المختلفة من قوات مسلحة وشرطة وأمن من أجل ذلك المؤتمر ، كما أنها استنفذت طاقات كل كوادرها الدبلوماسية والإدارية والكوادر المساعدة لذلك الهدف.. ولكن يأتي فوق ذلك الشعب السوداني الذي ظهر بصورة مشرفة ومشرقة لكل الضيوف الذين حلوا ببلادهم فأحسنوا الاستقبال واكرموا الضيوف.

وإلى جانب الأصالة المطبوعة في الشعب السوداني ، فقد كان الوضع السياسي في السودان يسوده نوع من الاستقرار والوئام بعد أن تمت المصالحة الوطنية بين نظام مايو والمعارضة ، كما أن الوضع في الجنوب كان لا يزال مستقراً بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا.. ويمكن اعتبار تلك المرحلة بأنها أخر مراحل شموخ السودان في الساحة الأفريقية، قبل أن تتصدع جوانبه وتتكسر رماحه في الخلاف والعداء بين أبنائه.

وبعد ثلاثة أسابيع من الاجتماعات المتتالية والجلسات المتعاقبة جاء آخر يوم لاجتماع الرؤساء.. وطيلة تلك الأيام كنا أنا والزملاء عثمان السمحوني ، وجلال عتباني ، والرشيد خضر ، وفاروق عبد الرحمن ، والمرحوم يوسف مختار.. نذهب مع الزميل إبراهيم طه أيوب إلى منزل شقيقه بالمقرن لتناول طعام الغداء وشرب الشاي ونعود إلى القاعة قبل الخامسة لحضور الجلسات المسائية.

وفي ذلك اليوم عدنا كعادتنا طيلة تلك الفترة ، وعندما دخلنا القاعة لاحظت أن الزملاء والصحفيين ينظرون إلى باهتمام خاص ، فسألت عن السبب فأخبروني بأن السودان قرر ترشيحي لمنصب الأمين العام المساعد للمنظمة ، وأن الموضوع سوف يطرح رسميا في جلسة ذلك المساء الختامية.

وبقدر سعادتي بذلك الخبر إلا أنني دهشت : كيف ننتظر ونحن الدولة المضيفة منذ العام الماضي ، حتى الجلسة الأخيرة لذلك المؤتمر حتى تقرر الترشيح لتلك الوظيفة والتي تحتاج إلى "لوبي" من المفترض أن يبدأ قبل ذلك بشهور خاصة . وقد علمت أن يوغندا قد قامت بترشيح "بول اتيانق" وهو وزير سابق لهذه الوظيفة عن مجموعة شرق إفريقيا ، وأنها قد نالت تأييد معظم دول المنطقة وعلى رأسها تنزانيا (زوجته تنزانية شقيقة محمد علي فوم وزير وسفير تنزاني) ، ومن الصعوبة بل من المستحيل اختراق ذلك التأييد في اللحظات الأخيرة من عمر المؤتمر.

ولقد شرحت كل ذلك للمرحوم الرشيد الطاهر الذي كان وزيراً للخارجية ، ولكنه رأى من الصعوبة الانسحاب بعد أن قام الرئيس نميري بترشيح السودان ، وأنه يرى إمكانية الفوز في ضوء نجاح المؤتمر.. ولكن الموضوع كان يختلف تماماً عن ذلك.

وعلى الرغم من ذلك ، فقد حاولت بصفتي وعلاقاتي الشخصية بالوفود الأفريقية -وكانت تربطني بعدد منهم علاقات زمالة وتعاون أثناء فترة عملي

بتنزانيا - قمت بالعديد من الاتصالات كان لها بعض العائد الإيجابي ، خاصة لدى الدول التي كان لها موقف من نظام "عيدي أمين" بيوغندا.

واستمرت الجلسة الختامية حتى قرابة الصباح وأجريت الجولة الأولى من التصويت فتعادلت الأصوات بين السودان ويوغندا "ثلاثة وعشرون صوتاً لكل".. وكانت النتيجة كذلك في الجولة الثانية والثالثة وحوالي الساعة الرابعة صباحاً خرج المرحوم الرشيد الطاهر من القاعة (وكانت الجلسة سرية) وسألني عن رأيي ، فقلت له إن "بول اتيانق" شخصية مرموقة ، بالإضافة إلي انه صديق شخصي بالنسبة لي وإن علاقاتنا مع يوغندا جيدة ، فاقترحت أن يتنازل السودان عن المنصب لتنزانيا هذه الدورة على أن يكون المنصب من نصيب السودان في الدورة القادمة ، وقد تكون هذه لفتة بارعة قد ترفع من أسهم السودان ، بالإضافة إلى ما حققه المؤتمر من نجاح.

ولكن يبدو أن طول الاجتماع قد جعل الجميع يصل إلى مرحلة من التعب والإرهاق وعندما أعلن السودان انسحابه فقد أدى دوي التصفيق الحاد إلى عدم الذكر في نص القرار أن يكون المنصب من نصيب السودان في الدورة القادمة. كان ذلك آخر "شبه" نجاح للسودان في الحصول على ذلك الموقع ، لأن ما تكرر لاحقاً من محاولات كانت تختلف تماماً عن تلك المحاولة ، وعن ذلك الفشل "الناجح" الذي استطاع مرشح السودان أن يناله بعد جهد لم يتعد الأربع والعشرين ساعة.

ففي يوليو من عام ١٩٨٦ قرر السودان الترشيح مرة أخرى لذلك المنصب ، ووقع الاختيار على شخصي مرة أخرى ، وكان السودان آنذاك يعيش مرحلة ما بعد الانتفاضة والقضاء على حكم عسكري آخر ، والديمقراطية ترفرف أعلامها في شوارع الخرطوم واسم السودان يملأ الدنيا ضجيجاً ، وهذه المرة لم ينتظر السودان حتى اللحظات الأخيرة لإعلان ترشيحه لذلك المنصب بل قام بذلك أثناء

انعقاد المجلس الوزاري في فبراير من نفس العام ، ولكن اعتقد البعض أن "سودان ١٩٨٦م ، هو سودان ١٩٧٨م" فلم تقم وزارة الخارجية بجهد يذكر لإنجاح ذلك المسعى ، حتى كان موعد القمة وموعد إجراء الانتخابات.

وكانت العلاقات بين السودان وأثيوبيا في أسوأ حالاتها وأرادت الأخيرة أن تحرم السودان الفوز بذلك المنصب فقامت بترشيح أحد سفرائها في اللحظات الأخيرة.. ولكن الحكومة الأثيوبية وضعت كل إمكانياتها لإنجاح مرشحها على مستوى رئيس الدولة والوزراء، وقامت بإجراء اتصالات واجتماعات مكثفة طيلة فترة انعقاد القمة ، وقد ساهم في إنجاح جهودها كتلة الدول "التقدمية" التي كانت لا تزال تفرض سيطرتها على قرارات منظمة الوحدة الأفريقية ، اما السودان فقد كان لا يزال في مرحلة انتقالية تتأرجح بين اليسار واليمين ، وتسيطر على اهتمامات المسئولين فيه تداعيات حكم نميري ، وتوازنات الفترة الانتقالية وطموحات الديمقراطية الثانية.

ولقد انحصرت المنافسة على منصب الأمين العام المساعد لشرق إفريقيا بين مرشحي السودان وأثيوبيا، وقد أدى تغيب السيد الصادق المهدي عن مؤتمر القمة إلى إضعاف موقف مرشح السودان ، فاقترحت على السيد المرحوم محمد توفيق وزير الخارجية آنذاك ورئيس الوفد أن يعلن انسحاب السودان حتى لا تسجل أثيوبيا انتصاراً دبلوماسياً صار وشيكاً ، ولكنه رفض اقتراحي وأصر على استمرار الترشيح.

وجرت الانتخابات وفي الجولة الأولى فاز مرشح أثيوبيا بأكثر من ثلثي الأصوات ولم ينل مرشح السودان إلا أربعة أصوت فقط.. وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أن يفوز مرشح أثيوبيا ولكنني ذهلت لتدني موقف السودان وعزلته التي أصبحت واضحة داخل الأسرة الأفريقية.

أيقنت حينذاك أن مدخل السودان إلى إفريقيا وقبوله لدى الأسرة الأفريقية يأتي عن طريق تسوية قضية جنوب السودان ، بما يُرضى أهل ذلك الإقليم.. وهذا هو القاسم المشترك الأعظم بين السودان والدول الأفريقية ، وبدونه يصبح السودان اسماً وليس رقماً يحسب حسابه في أفريقيا.



منصور خالد.. !!




د. منصور خالد وزير الخارجية الأسبق

إن الحديث عن الخارجية السودانية وعن الخواطر والذكريات فيها ، لا يمكن أن يتجاوز الدكتور منصور خالد ، كما أنه لن يكتمل إلا بذكر ذلك الرجل الذي تمدد بعطائه في السودان وإفريقيا ، كما أن إنتاجه المعرفي جعل منه رجلاً ضخماً في ميدان الإنسانية تميز بغزارة المعرفة وجمال وموهبة الفكر ونعمة العقل التي برزت في مؤلفاته ومقالاته وحواراته خاصة وأنه قد تولى حقيبة الخارجية في فترتين من العهد المايوي.

لقد قابلت د. منصور خالد للمرة الأولى في عام ١٩٥٩م ، وأنا طالب بجامعة الخرطوم ، إذ طلب مني الأخ والصديق د. عبد السلام صالح عيسى أن أذهب وبرفقتنا الأخ الصديق المرحوم أحمد محمد صالح سوار الذهب لتناول طعام الغذاء مع منصور بمنزل أسرته في حلة "ود عبد الماجد بأبي روف بأم درمان" وصلنا المنزل الذي يبدو عادياً من الخارج كأحد بيوت أمدرمان التقليدية ، لم تكن هي المرة الأولى التي أرى فيها ذلك المنزل إذ كنت أراه يوميا في الطريق عندما كنت طالبا في المدرسة الأولية بأبي روف والتي كان تقع بالقرب منه.

المنزل من الخارج يؤكد من حيث التصميم ومواد البناء الانتماء لأمدرمان وثقافة البناء فيها ، أما بالداخل فإنه كان يوحي ويعلن عن شخصية منصور (خاصة الصالون)، حيث تقاطعات التفرد والتميز والتمايز والخروج عن التشابه

(كانت إحدى سمات منصور الشخصية) ، حرص د. منصور على وضع صور ذات براويز من نوع مميز حول الحائط ، وكان هو القاسم المشترك الأعظم فيها جميعاً مع عدد من الشخصيات خاصة المرحوم عبد الله خليل ، أول رئيس وزراء في السودان بعد الاستقلال ورؤساء بعض الدول الأخرى. إلى جانب ذلك ، فإن الصالون كان يحتوي على عدد من المقتنيات التي كانت لا توجد في مثل هذه المنازل آنذاك ، لاسيما التحف والكتب والأسطوانات.. يضاف إلى ذلك المناخ الإبداعي والجو الجمالي الذي يشدك ويصر عليك بأن تمعن النظر، ويلح بأن تزيد في الإمعان.

وأذكر أننا بعد الغداء استمعنا إلى أغنية "فيفر" أو "الحمى" للمطربة الأمريكية المعروفة " إيرثا كت" ، وقد أعجبت بالأغنية وما زلت أعجب بها وبالمغنية حتى الآن : خاصة حبال صوتها التي تتميز ببحة حزينة ، ومقدرتها على التحكم في مخارج الألفاظ يشدك إليها شداً.

أما الغداء فقد كان فاخراً بكل المقاييس ، وأعتقد أن طباخاً ماهراً قام بإعداده.. وما زال محشي ورق العنب الذي رأيته للمرة الأولى ماثلاً أمام عينيّ ، كما أن طبق البامية باللحمة المفرومة – وقد وضع في شكل هندسي يشبه الهرم وإلى جانبه الأرز بالصنوبر والزبيب – قد أثار دهشتي وكان ذلك الغداء من أكثر الوجبات الدسمة التي تمتعت بها في ذلك الوقت.

وكانت تلك بداية علاقتي بمنصور خالد وعلى الرغم مما كان يشوبها في بعض الأحيان من توتر وتدهور ، إلا أننا حرصنا على الإبقاء عليها قائمة بصورة أو بأخرى في كل المراحل التي مرت بها وحتى اليوم.

ولذلك فإني أود أن أؤكد أنني كنت وما زلت أحد أصدقاء د. منصور ، ولكن هذه الصداقة ظلت طيبة ومتبادلة عندما يكون منصور خارج السلطة ، وكانت من

ناحية أخرى معرضة للشد والجذب والخلاف من ناحية أخرى أثناء توليه حقيبة وزارة الخارجية ، عندما كنت أحد العاملين بها.

و في الفترة التي تولى فيها د. منصور خالد قيادة وزارة الخارجية ، برز في أوساط العاملين ، بل وفي خارج أوساط الخارجية أن يطلق على الذين كانوا مقربين من د. منصور خالد "بأولاد منصور" باعتبار الدربة والدراية والاهتمام منه (الدربة والدراية من المفردات التي يستخدمها منصور خصوصاً مؤلفه الأخير "جنوب السودان في المخيلة العربية") وكان بعض زملائي وعدد كبير من أصدقائي وأصدقاء منصور يعتقدون أنني أنتمي إلى هذه النخبة المميزة ، ولكن هذا لم يكن هو الواقع ، بل إنني أستطيع أن أقرر أن المرات القليلة التي تعرضت فيها إلى ظلم وإجحاف وسوء معاملة في فترة خدمتي بوزارة الخارجية ، كانت الفترات التي تولى فيها منصور وزارة الخارجية.

ولكن ذلك لم ولن يمنعني من التأمل في شخصية وقدرات د منصور الحقيقية كأحد أبرز المثقفين السودانيين.. وفي الدور الذي لعبه في بث الروح في وزارة الخارجية والنقلة النوعية التي أحدثها في طبيعة عملها ، وفي أدائها ، وما حاول القيام به كمواطن في خدمة بلاده من ذلك المنبر الذي أثار عليه الأحقاد من أصدقائه وأعدائه والذي انتهى بهزيمته في تلك المعركة التي يعرف تفاصيلها الجميع ، والتي كانت أحدى سمات الصراع بين مراكز القوى في العهد المايوي.

الآن وقد مرت عقود على تلك العلاقة ، وأنا أكتب عن خواطري وذكرياتي أثناء عملي بوزارة الخارجية ، وجدت أن شخصية د. منصور خالد تفرض نفسها لتحتل موقعاً في تلك الخواطر والذكريات.. وبما أنني لا ادّعي الإلمام والمعرفة الكاملة بشخصية د. منصور خالد ، ولا أعتقد أن ذلك بالأمر السهل بالنسبة لكثيرين غيري ارتبطوا به - بصورة أو بأخرى - في دروب الحياة المختلفة ، ولكنني

أستطيع أن أؤكد أن د. منصور يتمتع بشخصية قد تتفق أو تختلف معها ، إلا أنها تجبرك على احترامها عن رضاء أو عن كراهية.

لقد نشأ د.منصور خالد وترعرع في أسرة معروفة بالتربية الدينية ، ونال دراسته على المنهج البريطاني في السودان ، وأضاف إلى ذلك عمله بالمحاماة ثم دراسته بفرنسا التي نال فيها شهادة الدكتوراه في القانون ، إلى جانب الخبرة التي نالها من عمله في الأمم المتحدة ، وانفتاحه على العالم الغربي بأفق واسع وذهن متقد وقلب مفتوح وإيمان ثابت بأن علاج معظم مشاكل الدول النامية يوجد في الدول الغربية دون أن يسبب له ذلك حرجاً أو عداءً لتجرية الشيوعية والاشتراكية.

ويحمد لدكتور منصور ، أنه ظل مثقلاً بهموم وطنه ورؤاه منذ أن بدأ يدخل الحياة من أبوابها المختلفة.. ولقد أدى اختلاف طبعه وطباع توجهه إلى أن يجد نفسه يحارب منفرداً في جبهات متعددة ، في الوقت الذي ظل فيه عدد كبير من المثقفين يفضل أن يحارب مع مجموعة قد تختلف معه في شتى النواحي ، ولكنها تمنحه غطاءً ودعماً عندما يحتاج له.

ومن هذا المنطلق نفسر اندفاع د. منصور ومبادراته وتفرد توجهه في تأييد حركات التغيير المختلفة في السودان ، بعد أن بدأ حياته في صفوف حزب الأمة.. فقد سارع د. منصور إلى تأييد ثورة أكتوبر.. كما سارع إلى الوقوف ضد حل الحزب الشيوعي وطرده من البرلمان.. وبرز بسرعة في صفوف ثورة مايو.. وأخيراً رمى رماحه مع د. قرنق في الحركة الشعبية لتحرير السودان.. وقد ذهب البعض إلى تفسير تلك التصرفات والمواقف بأنها محاولات انتهازية للوصول إلى السلطة ، نسبة للاختلاف في توجهات وبرامج الأنظمة التي لجأ إلى احتلال مواقع بين صفوفها.

وبما أنني لا أنكر أن د. منصور قد اتبع ذلك الأسلوب الذي اختار البعض في تفسيره بالانتهازية ، إلا إنني على قناعة تامة بأن د منصور لم يكن انتهازياً ، ولم يكن يرغب في الوصول إلى السلطة كهدف في حد ذاته ، ولكنه كان يرى أن ذلك أقصر الطرق لتحقيق آرائه وبرامجه في خدمة وطنه ، لأن ذلك كان هو الطريق الوحيد المتاح في مناخ السودان السياسي.. وبالنسبة لشخصيته الذاتية.

وكلنا يعترف أن الطرق للوصول إلى السلطة في السودان متعددة.. وكانت في معظم الأحيان متاحة : إما عن طريق الانتماء للحزبين الرئيسيين في السودان (وهما حزب الأمة والأحزاب الاتحادية والحصول على "مباركة "ودعم أحد السيدين) ، أو عن طريق تصدر الانتفاضات الشعبية عن طريق النقابات والجبهات المهنية ، أو عن طريق التقرب للقيادات العسكرية التي استطاعت الاستيلاء على السلطة بالانقلابات العسكرية.

وبما أن شخصية د. منصور الذاتية وتكوينه الشخصي - حيث التفرد والتميز - لم تمكنه من الالتزام بأحد تلك السبل المتاحة ، فإنه فضل أن يجد طريقه بأن يكون خياراً مرغوباً لدى تلك الأنظمة ، بما استطاع أن يحققه لشخصه من عمق معرفة وعلم وقدرة على العطاء ، تجعله مقبولاً لدى تلك الأنظمة على اختلاف توجهاتها وأيديولوجيتها ، ومن هذا المنطلق ، فإن كانت هناك انتهازية.. فإن المسئولية تقع على تلك الأنظمة وليس على منصور شخصياً.

ومن ناحية أخرى - ولأن د. منصور ليست له قاعدة شعبية يستند عليها من طائفة أو حزب يكن له الولاء التام والطاعة العمياء - فقد استجاب أو سعي للانضمام للأنظمة المختلفة : إيماناً منه بأنها منفذه الوحيد لكي يساهم في العمل العام ، ويحقق ما يراه من برامج وسياسات لخدمة وطنه.. وهو يدرك تماماً بأنه سيظل وراء الكواليس إذا ابتعد عن الساحة حتى لا يصيبه ما كان يصيبه دائماً من نقد ، وصل مراحل الاتهام بالخيانة والعمالة لأجهزة المخابرات الأمريكية.

ولا أعتقد أن أحداً من الذين تصدوا إلى العمل العام بالسودان ، وتركوا فيه بصمات لن تتطمس قد تعرضوا للنقد والاتهام والسباب كما تعرض لها د. منصور خالد داخل السودان ، في الوقت الذي يتمتع فيه الرجل بحضور واحترام وتقدير في الأوساط العربية والأفريقية والدولية ، مما يؤكد أن مقاييس الحكم التي تقوم على أسس شخصية قد أقصت عدداً من المثقفين والمتعلمين من التصدي للعمل العام بالسودان.

وهذا لا يعني أن د.منصور شخصية مثالية ، أو مبرأة من العيوب على المستوى الشخصي ، ولكن هذا شأن الرجل ، وشأن من يتعامل معهم.. وأنا أعتبر نفسي من هؤلاء الأشخاص الذين تعرضوا لمعاملة قاسية أثناء توليه لوزارة الخارجية.. في الوقت الذي كان يعتقد فيه الكثيرون من زملائي ومن أصدقائنا المشتركين بأنني أحد " أولاد منصور ".

ومن ناحية أخرى فإن بعض عيوب د. منصور قد انعكست على تصرفاته في العمل العام ، خاصة في تصعيده وتبنيه لبعض الأفراد الذين كانوا في الساحة السياسية من منطلق خاطئ يقوم على الانطباع العام أو على تقييم الآخرين لتلك الشخصيات.. ولعل الرجل نفسه كان ضحية هذا الخطأ ،عندما صار بعض هؤلاء في مواقف أكثر قوة استطاعوا أن ينالوا منه قبل أعدائه.

ولذلك فقد حمل د. منصور كل ألوان وإمكانياته وطموحاته الشخصية إلى العمل الدبلوماسي في السودان ، عندما احتل موقع وزير الخارجية في فترتين إبّان حكم الرئيس نميري ، ومن هذا المنطلق جاء عطاؤه في العمل الدبلوماسي وأداؤه المميز خاصة فيما يتعلق بتنظيم الوزارة وترقية سبل العمل ، وتنويع اختصاصاتها وعلاقتها بالقرار السياسي والأجهزة المختلفة بالدولة وبقيادة السلطة بصفة خاصة.

ولا اعتقد أن وزارة الخارجية السودانية قد شهدت ثورة تحديث وطفرة تطوير كالتي تمت في عهد د. منصور ، إذ أنه استطاع أن يجعلها تتصدر مواقع القوى ، وتفرض سلطتها على اتخاذ القرار - ليس فقط في مجال الدبلوماسية المتعارف عليها ، بل بالنسبة لعلاقات السودان الخارجية بصفة عامة : إذ استطاعت وزارة الخارجية أن تهيمن على سلوكيات الوزارات الأخرى وصلاحياتها في هذا المجال ، والتي جعلت د. منصور خالد كوزير للخارجية من أهم وأقوى الشخصيات إبّان تلك الفترة ، مما مكنه من أن يكتسب صلاحيات لم تكن في العهود السابقة تخضع لوزير الخارجية ، وبذلك أصبح من عمالقة وزراء خارجية السودان في تاريخ السودان الحديث.

وقد انعكس ذلك على العاملين بوزارة الخارجية وسفاراتها بالخارج : إذ تولد لديهم شعور بالتميز والانتماء لمؤسسة تحتل موقع الصدارة في الجهاز الحكومي ، فتفجر نشاط وتولدت أفكار وتمت دراسات ، ووضعت خطط بين صفوف الدبلوماسيين أكدت قدرتهم على الاضطلاع بتلك المسؤوليات المكتسبة ، وعلى قدرة وزير الخارجية ربان الوزارة في قيادتهم نحو تلك التطلعات.

ولقد تطلب ذلك الدور الجديد لوزارة الخارجية زيادة الإنفاق لفتح سفارات جديدة وإلحاق عدد من الدبلوماسيين في تلك السفارات ، مما أدى إلى تضخم في ميزانيتها وقد تنبه د. منصور لذلك واتخذ خطوات في هذا المجال ، جعل من وزارة الخارجية وزارة إيرادات وليس وزارة منصرفات فقط ، وأصبحت بعض السفارات مصدراً من مصادر العملة الصعبة لتمويل سفارات أخرى ، كما شهدت تلك الفترة تصدي الوزارة لعقد مؤتمرات وندوات مختلفة تتعلق بقضايا التنمية وغيرها.

وعلى الرغم من أن دور وزارة الخارجية في الهرم الحكومي قد تقلص إلى حد كبير في الفترة التي أعقبت سقوط حكم النميري ، إلا أن بصمات وآثار د منصور

على الوزارة ما زالت باقية ، خاصة التي تتعلق بالتنظيم الداخلي في رئاسة الوزارة ، وفي سفارات السودان بالخارج.. وإن الكوادر الدبلوماسية التي ترعرعت في تلك الفترة لا الذين نالوا الدربة والدراية على يديه ، والذين أحيل الآن عدد كبيراً منهم للصالح العام، فأصاب الوزارة ما أصابها من تدن في مستوى قياداتها العليا والوسيطة وأقعدها عن رسم وتنفيذ سياسة السودان الخارجية بعد أن إخترقت الكوادر الحزبية والإنتهازية المواقع القيادية في صفوف السلك الدبلوماسي.



مع فخر الدين




السفير فخر الدين محمد

إن العـلاقـات بين الذين عـملوا في السلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية ، كانت تبنى على أسس مختلفة : تأتي الزمالة في الدراسة الجامعية في مقدمتها.. ثم يتكون بين أبناء "الدفعة" الذين التحقوا للعمل بالوزارة في عام واحد حلف يجمع بينهم ، دون بقية الدفعات السابقة واللاحقة.. وبعد الالتحاق بالوزارة تبدأ مرحلة أخرى من العلاقات بين الذين عملوا معاً برئاسة الوزارة بالخرطوم ، أو الذين عملوا معاً بسفارات السودان بالخارج.

ولأن طبيعة العمل بوزارة الخارجية تتطلب تقضية فترات مختلفة بين التواجد داخل السودان برئاسة الوزارة وخارجه بالسفارات فإن ذلك يؤدي إلى خلق جسور بين الداخل والخارج.. ولمعرفة ما يدور داخل الوزارة من أخبار الترقيات والتنقلات.. أو تكليف من بالداخل للقيام ببعض المهام الخاصة ، أو تكليف من بالخارج بأشياء شخصية مماثلة.

ولكن على الرغم من ذلك ، فإن هذه العلاقات تعتريها تقلبات من حين إلى آخر.. لأسباب تتعلق بالتطور الطبيعي للبعض في المهنة..عندما تدخل الغيرة المهنية ، أو المحسوبية بين أبناء الدفعة الواحدة ، وقد يتسبب في ذلك أسلوب

تعامل البعض مع قيادات الوزارة ، أو عوامل أخرى تتعلق بعدم تطبيق الأسس والقوانين بصورة متساوية بين العاملين في الوزارة.

ولكن علاقتي مع المرحوم السفير فخر الدين محمد.. كانت خارج هذا النمط الذي تلونت به العلاقات بين الدبلوماسيين في وزارة الخارجية ، ولعل هذا ما جعل لتلك العلاقة طعماً خاصاً ، وأعطاها بعداً مختلفاً وصدقاً خالصاً.. لأنني لم أعمل مع فخر الدين في رئاسة الوزارة بالخرطوم ، أوفي إحدى سفارات السودان بالخارج.. ومن ناحية أخرى ، فإنني عندما التحقت للعمل بوزارة الخارجية عام ١٩٦٣م ، كان فخر الدين سفيراً ومندوباً دائماً للسودان بالأمم المتحدة ، وكان ملء السمع والبصر.. نراه نحن ناشئة السلك الدبلوماسي كأسطورة من أساطير تلك المهنة التي كنا نقف على أعتابها.

ومنذ أن رأيته أول مرة تملكتني رغبة عارمة للتعرف عليه والتقرب منه ، ولكن هيهات.. لأنه كان في ذلك الوقت بالنسبة لي كالهرم كلما تطلعت إليه ، أحسست بحجمه وقوة شخصية ، وأدركت بأن بينك وبينه بعداً طويلاً.. فيزداد التشوق لاقتحام ذلك الهرم والسير في دهاليزه على الرغم من أن الإعجاب والتشوق من جانبي كان له ما يبرره ، إلا أنني كنت مدركاً أيضاً بأنني لا أملك الكثير لأعطيه له.

واستمرت تلك الرغبة في داخلي قرابة العشر سنوات إلى أن حانت لي الفرصة لاقتحامه وسبر أغواره ، وكان ذلك عام ١٩٧٣م ، بمدينة دار السلام ، عندما كنت أعمل قائماً بالأعمال في سفارة السودان بتنزانيا ، فقد ترأس فخر الدين وفد السودان لمؤتمر دول وسط وشرق إفريقيا الذي عقد بالعاصمة التنزانية.

ولقد درجت وزارة الخارجية في مثل هذه المؤتمرات التي كانت إلى جانب القضايا السياسية ، تتناول سبل تقوية وتطوير العلاقات بين دول تلك المنطقة في مجالات التجارة، الزراعة ، المواصلات ، السياحة ، الحدود... الخ ، ولذلك كان

وفـد السـودان يتكون إلى جـانب ممثلين عن وزارة الخـارجيـة.. من مندوبين من الوزارات والمصالح التي تقع تلك القضايا من اختصاصها.

ولأنني كنت في ذلك الوقت لم أتزوج بعـد ، فـقـد عـرضت على فـخـر الـدين الإقامة معي بالمنزل ، وقد وافق بعد أن ذكر لي أنه على الرغم من أننا لم نتعارف عن قـرب بصـفـة شخـصـيـة ، إلا أنـه على علم من بعض الذين يثق في أحكامهم بأنني "ولد كويس"[1] وتشاء الظروف ألا يتمكن بقية أعضاء الوفد من الوزارات الأخرى من الوصول قبل بداية الاجتماع ، ولذلك وقع العبء علينا نحن الاثنين ، وكانت هناك لجان متخصصة في القضايا غير السياسية.. فقرر فخر الدين أن نتقاسم الاشتراك فيها إلى حين وصول بقية أعضاء الوفد ، حتى لا يسجل غياب للسودان في تلك اللجان وكانت تلك فرصة لمعرفة إمكانيات ذلك الرجل وقدراته على التصرف في أي ظرف ومكان.

وأذكر أنه أثناء حضوري لاجتماع اللجنة الزراعية دخل فخر الدين قاعة الاجتماع وكنت آنذاك أطلب الكلمة من رئيس الجلسة فأشار إليّ وسألني عن ماذا أريد أن أتحدث في هذا المجال؟ فقلت له لا شيء يتعلق بتخصص اللجنة ، بل إنني أردت فقط أن أقترح تعديلاً في الأجندة حتى يثبت في المحضر أن وفد السودان تحدث في ذلك الاجتماع.. فضحك وقال لي " تراك ما عندك عوجة ".

وبذلك ذاب الجليد وتساقطت الأقنعة ، وبدأت علاقة بيننا من نوع آخر فجّرت كل ما هو جميل في قلبينا ، وأخذت أبعاداً عميقة ، وسطرت أجمل وأعز الذكريات حتى أدمنت ذلك الرجل الذي كان يتمتع بصفات وخصال مختلفة ومتناقضة في بعض الأحيان ، وأصبح فخر الدين بالنسبة لي كنزاً ثميناً ، بدأت انهل منه الموهبة الدبلوماسية والسياسة والأدب والفن ، والمهارات التي تشمل

---

(١) كويس : تصغير كيِّس - تطلق على الشخص الجيد. (موسوعة القبائل والأنساب في السودان ص ٢٠٣٤).

الرسم والتصوير والنحت وصياغة المعادن ، والحرف المختلفة من كهرباء وميكانيكا وطبخ وإعداد طعام ، إلى جانب روح دعابة ومرح ملتزم لا يخدش ولا يجرح أحداً.

ومنذ ذلك الحين.. تعلق قلبي بذلك الرجل الذي أحب الحياة وأحبته ، ولم يخدعها ولم تخدعه ، أعطاها أجمل ما في الإنسان وأعطته كل ما يمكن أن يرضيه ويسعده ، لأنه كان نسخة واحدة لإنسان متعدد الخصال والمواهب والكفاءات ، وعلى الرغم من أن الموت حقيقة ملموسة ، بل هو الحقيقة الوحيدة في الحياة ، إلا أننا عندما واريناه الثرى في ١٩٩٤/٧/٢٧م ، بعد رحلة نادرة معه ، استمرت لأكثر من خمسة وعشرين عاماً شعرت أن الحياة قد فقدت شخصاً تفرد بأسلوب فريد من نوعه لمعالجة البقاء فيها بصورة قد لا تتكرر لشخص غيره ، كما شعرت بأنني فقدت جزءاً كبيراً من مصادر إثراء ما تبقى من حياتي شخصياً.

وقد يتساءل البعض لماذا هذا الإنسان الذي أحب الحياة وأحبته ، وأعطاها وأعطته وتعددت مواهبه وتنوع عطاؤه ، وتفرد في مجالات مختلفة.. لماذا لم يكتب أو ينشر أو يوثق بعضاً من لمحاته في الحياة؟؟

وفي اعتقادي أن جيل فخر الدين ، ومن سبقوه من العمالقة السودانيين الذين خاضوا الحياة بجدية وموضوعية ، وأسهموا في مجالات متعددة قد أنكروا على أنفسهم التفرد بإيصال تلك التجارب للأجيال القادمة ، واعتبروه تطاولاً وادعاءً على غيرهم ، ليس وارداً في أخلاقياتهم.

أما فقيدنا فخر الدين فقد كان يؤمن بأن تلك التجارب هي جزء من حياته الشخصية.. وحياته الشخصية ملك له ولأسرته وللمقربين من أصدقائه.. وقد حاولت مراراً أن أثنيه عن ذلك الموقف.. ولكنني لسوء الحظ لم أوفق حتى داهمه الموت المفاجئ وبذلك رحل وخلف وراءه فراغاً كبيراً لأسرته ولأصدقائه ، ولكل

من التقى به في دروب الحياة.. ولكن بصماته وإشراقاته ستظل قبساً من نور يضيء لهم الطريق وذكرى إنسان قل أن يجود الزمان بمثله.

وقد يتساءل البعض أيضاً .. من أين تأتي لهؤلاء الرواد الأوائل من سفراء وزارة الخارجية ، أمثال : فخر الدين ، وجمال محمد أحمد ، ومحمد عثمان يس ، وعبد الكريم ميرغني ، وخليفة عباس العبيد ، ومحجوب مكاوي ، والنور على سليمان وأمير الصاوي ، وبشير البكري ، وصلاح عثمان هاشم ، وبكري عديل ، وعثمان عبد الله ، ورحمة الله عبد الله ، وفضل عبيد ، وأحمد صلاح بخاري ، ونخبة كبيرة من رصفائهم ، ذلك الإنجاز والأداء الرائع في تلك المهنة التي كانت تعتبر عالماً جديداً بالنسبة للمتعلمين في ذلك الوقت ، والذين كانت تجاربهم تنحصر في التدريس والقضاء والإدارة والشرطة؟.

فهل كان وراء ذلك مستوى التعليم آنذاك.. أم الوعي الوطني والتصدي للخروج بالسودان إلى العالم؟ أم تماسك الجبهة السودانية الداخلية ووحدة رؤيتها لسودان المستقبل؟ أم إيمان السودان بأهمية دوره العربي الأفريقي ، خاصة وقد نجح في استضافة أهم مؤتمرات القمة العربية بالخرطوم عام ١٩٦٧م ، وأنجح مؤتمرات القمة الأفريقية عام ١٩٧٨م؟ أم هو الشعور بمسؤولية المثقف في تلك المرحلة البكر من تاريخ السودان والتزامه بقضية السودان أرضاً وإنساناً ومصيراً؟.

في اعتقادي أن ذلك مرده بعض من هذا وذاك ، ولكن الاستقرار النفسي ، والعقد الاجتماعي ، والوعي السياسي ، والتجرد الشخصي ، ووحدة الهدف من أهم دوافع تلك الإنجازات.. وأن ما آل إليه الوضع في السودان الآن ، مرده التغيير الذي طرأ على الخارطة السياسية والاجتماعية التي حدثت في العقود الأخيرة ، دون إلمام بأسبابها ودوافعها ، ودون تخطيط لمعالجتها ودون رؤية لانعكاساتها على الإنسان السوداني.. وعلى السودان كدولة ووطن وكيان.



وجه آخر لمايو



إن معرفتي بالأخ والصديق مأمون عوض أبو زيد أو الرائد مأمون عوض أبو زيد تعود إلى أيام الصبا ، ولقد توثقت



مع الرائد مأمون عوض أبوزيد في ندوة «الخرطوم للتحرر والتنمية» إلى جانبه د. بطرس غالي ود. فرانسيس دينق الخرطوم ١٩٧٤م

تلك المعرفة أيام الدراسة حينما كنا ندرس معاً بمدرسة وادي سيدنا الثانوية ، ولقد ربطته رفقة السلاح مع شقيقي المرحوم العميد (م) عبد العزيز محمد دياب ، منذ أن كانا معاً في الكلية الحربية ، ولقد أخذت هذه المعرفة أبعاداً جديدة بعد أن أصبح الرائد مأمون أحد أعضاء مجلس الثورة في عهد مايو ، ثم توثقت بيننا تلك العلاقة وصارت صداقة في معترك الحياة العريض لاحقاً ، وما زلت أعتز بها وأحرص عليها حتى اليوم ، لأنني رأيت الوجه الآخر لذلك الإنسان الخجول البسيط.. الوفي.

ومن ذكرياتي معه أنه عندما كنا بمدرسة وادي سيدنا الثانوية قرر اتحاد الطلبة القيام بمسيرة مشياً على الأقدام من المدرسة إلى مكتب المحامي أحمد سليمان بالخرطوم ، والذي كان أحد رموز الكفاح الوطني في الجبهة المعادية للاستعمار ، لتسليمه مذكرة باسم الاتحاد ضد المعونة الأمريكية.

وبعد تسليم المذكرة تفرقنا إلى مجموعات حتى نعود إلى المدرسة ، وقررت مجموعتي التي تضم بينها الأخ مأمون تناول المرطبات والساندويتشات في " كافتيريا زكي " بعد الإرهاق والعطش الذي أصابنا من جراء المسيرة ، وكانت كافتيريا زكي في ذلك الوقت " صرخة " في سوق الخرطوم ، حينما أصبح الساندويتش سيد الطعام " وتقليعة " بالنسبة للموظفين.

وقررت أن " أعزم " المجموعة على الفطور.. فسألت الأخ مأمون ماذا يريد أن يأكل، فسألني عن أنواع الساندويتشات، فبدأت أعدد له الأنواع التي كانت أمامي سمك ، كبدة ، طعمية ، سجك ، كلاوي.. فرد بأنه لا يحب " الزفر " ، فقلت له تأكل ساندويتش زيتون، ولدهشتي رد بأنه لا يحب الحاجات الحلوة.. فاتضح أن الأخ مأمون في ذلك الوقت كان لا يفرق بين التين والزيتون.

وفرقت بيننا الأيام بعد التخرج من وادي سيدنا ، فذهب مأمون إلى الكلية الحربية ، وذهبت إلى جامعة الخرطوم ، ودارت الدنيا فبعد سنوات أصبح مأمون عضواً في مجلس قيادة الثورة في عهد مايو ، وأنا دبلوماسي بوزارة الخارجية.

وبعد انقلاب مايو بعدة شهور ، وكنت أعمل سكرتيراً ثانياً بسفارة السودان بيوغسلافيا ، وصلني إخطار بالنقل لأعمل معاراً في سكرتارية مجلس الوزراء بالقصر الجمهوري ، لقد تلقيت ذلك الإخطار بترحيب وتفاؤل وكنت اعتقد كالكثيرين أن " ثورة " مايو بعد أن أعلنت شعاراتها الأولى سوف تصبح نقطة تحول إلى الأحسن في تاريخ السودان السياسي.

وبعد عودتي إلى السودان ذهبت مباشرة إلى منزل الأسرة بحي الملازمين ، فأخبرني أحد أخوتي بأن " الرائد " مأمون اتصل هاتفياً ويطلب حضوري فوراً إلى منزله، وبعد أن صافحت أفراد الأسرة ذهبت إلى منزل المرحوم عوض أبو زيد بالمسالمة لمقابلة الأخ مأمون ، ولكن بالمنزل أخبروني بأن الرائد مأمون لم يعد

يسكن في منزل والده ، ولقد انتقل إلى منزل حكومي بالخرطوم والذي كان يسكنه المرحوم اللواء طلعت فريد أيام حكومة " عبود ".

وعندئذ أصبت بأول خيبة أمل في شعارات مايو أولاً وفي مأمون ثانياً ، ولكنني توجهت مباشرة من حي المسالمة إلى الحي الشرقي بالخرطوم ، وكنت طيلة المشوار أحاول أن أجد تبريراً للأسباب التي دفعت بمأمون لكي ينتقل من منزل والده إلى منزل "الحكومة " في الخرطوم ، وهل هذا ما قامت من أجله الثورة؟ وماذا سيكون أثر ذلك في شخصية مأمون وتصرفاته؟ وهل الثورة هي تغيير أشخاص أم تغيير سلوك ومبادئ ومثل؟..

واستقبلني مأمون ببساطته ودفء صداقته ، واعتذر عن إصراره على حضوري بتلك السرعة لأنه يريد أن ألتقي بصديق الطرفين المرحوم حسني عبد العزيز ، الذي جمعتنا معه أيام قاهرة المعز ، وإلى جانب الأخ حسني كان هناك عدد من أصدقاء الطرفين من أيام الدراسة ودروب الحياة المختلفة ، مما أدخل في نفسي بعض الهدوء بعد الشعور بالإحباط الذي تملكني أثناء الرحلة من أم درمان إلى الخرطوم ، ولكنني على الرغم من ذلك قررت أن أسأل مأمون عن أسباب انتقاله من منزل والده إلى منزل الحكومة.

وعندما وجدت فرصة للانفراد به وجهت له ذلك السؤال فابتسم في وجهي ورد بكل بساطة : إن ذلك الانتقال فرضته الظروف الأمنية والالتزامات التي ترتبط بموقعه الجديد في الحكم ، وعلى الرغم من أنه غير مرتاح لذلك ، ولكن القرار قد فرض عليه وعلى غيره من أعضاء مجلس الثورة. .وعلى الرغم من إنني أحسست بأنه كان صادقاً وعلى الرغم من أنه كان محاطاً بزملائه وأصدقائه القدامى من أبناء الحي وزملاء الدراسة ، إلا إنني وجدت صعوبة في تقبل التبرير الذي ذكره ، لأن رجال الدولة السابقين أمثال أزهري وحسن عوض الله ونقد الله

وزروق والمحجوب لم يغيروا أماكن سكنهم عندما كانوا في السلطة، بل إن بعضهم فضل أن يستمر ساكناً في منزل مؤجر من أن ينتقل إلى أحد المنازل الحكومية.

وبعد أيام باشرت عملي الجديد بالقصر الجمهوري.. ولقد أتاح لي هذا الموقع مرافقة بعض أعضاء مجلس الثورة والوزراء في مهام ووفود خارج السودان ، وكانت إحدى تلك المهام مرافقة الرائد مأمون للمشاركة في اللجنة العربية الرباعية التي كونتها الجامعة العربية لإنهاء النزاع الدموي الذي تفجر بين الحكومة الأردنية وقوات منظمة التحرير الفلسطينية بعد أحداث " أيلول الأسود " والتي عقدت اجتماعاتها بفندق الأردن بعمان.

كانت اللجنة تتكون من مصر ، ليبيا ، السودان والجزائر ، وكان وفد السودان برئاسة الرائد مأمون وعضوية المرحوم السفير عبد العزيز النصري وكان سفيراً مقيما ببيروت ومعتمداً لدى الأردن كسفير غير مقيم ، إلى جانب شخصي ، وكان الوفد المصري كبيراً ترأسه حسن صبري الخولي ، الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر وترأس الوفد الليبي الرائد محمد نجم ، عضو مجلس قيادة الثورة ، وترأس الوفد الجزائري وزير الخارجية ، ولقد خصص لكل وفد طابق كامل من الفندق واستمرت اجتماعات اللجنة قرابة الأسبوعين ، كانت تنعقد ثم تنفض للمشاورات ثم تعقد مرة أخرى.

ومنذ وصلنا عمان اتضحت لنا الأبعاد الحقيقية للأزمة ، فكانت قوات منظمة التحرير تكاد تسيطر على بعض الشوارع والأحياء بكامل زيها ومعداتها العسكرية ، كما كان واضحاً أن ياسر عرفات ، إن لم يكن الحاكم الفعلي ، فقد كان يتقاسم السلطة مع الحكومة الأردنية.. وأذكر أن إحدى الجلسات استدعت حضور شخص معين لمقابلة اللجنة ، فطلب من السيد عبد المنعم الرفاعي رحمه الله - وكان رئيساً للوزراء في الأردن - الاتصال به وإحضاره لمقابلة اللجنة ، فأجاب بأنه لا

يدري أين يجده ولا كيف يتصل به ، عند ذلك نهض ياسر عرفات وأدار رقماً معيناً على الهاتف ، فأجابه ذلك الشخص مباشرة وقد آثار ذلك دهشة الحضور ، وأحدث حرجاً واضحاً لرئيس الوزراء ولكنه أكد القوة والنفوذ الذي كان ياسر عرفات يتمتع به داخل الأردن ، على الرغم من ضربات أيلول الأسود.

ومن ناحية أخرى فقد تأكد لي منذ بداية الرحلة أن هنالك علاقة خاصة تجمع بين الرائد مأمون والقيادات الفلسطينية ، وكان مرد ذلك حينما توقفنا ببيروت قبل وصولنا إلى عمان ، حيث جمعته لقاءات متعددة مع الرموز الفلسطينية التي كانت تتخذ من بيروت مقراً لها ، أو تلك التي جمعته بالقيادات الفلسطينية عندما وصلنا إلى عمان.

ويبدو أن تلك العلاقات كان لها أثر كبير في أن يلعب الرائد مأمون دوراً مؤثراً في اجتماعات اللجنة ، وعلى الرغم من أن الوفد السوداني كان الأقل عدداً بين الوفود ، وأن الرائد مأمون كان من أقل رؤساء الوفود تجربة ، إلا أن شخصيته قد طغت على الجميع ، فلقد أبدت معظم الأطراف ثقة مطلقة في آرائه ومقترحاته وكانت تحتكم إليه مما جعله يتمكن من احتواء الخلاف ، ويقدم الحلول التي صارت في نهاية الأمر قرارات تلك اللجنة التي استطاعت أن تحدث انفراجاً في العلاقات بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ولو إلى حين ، على الرغم من قناعتي بأنني كنت أعرف الرائد مأمون حق المعرفة.. إلا أنني أعترف أن أداءه في تلك اللجنة قد نال إعجابي وتقديري ، ورأيت فيه شخصية أخرى غير التي كنت أعتقد أنني أعرفها.

ومع أن وفد السودان كان صغيراً كما ذكرت من قبل ، وقد خصص لنا طابق كامل بالفندق ، ومع أن السفير كان يتنقل بين بيروت وعمان ، فقد كنا في معظم الوقت نجلس (الرائد مأمون وشخصي) ونتجاذب أطراف الحديث عن السودان

وعن المستقبل ورؤية مايو إلى ذلك المستقبل ، وقد استطعت أن أصل إلى بعض أفكار الرائد مأمون الشخصية، ولكنني لم أستطع أن أتبين منه الرؤية الحقيقية لأعضاء مجلس الثورة مجتمعين.

وفي إحدى تلك الجلسات تعرضنا للحديث عن جامعة الخرطوم ويبدو أن " الثورة " لم تكن مطمئنة لموقف غالبية الطلاب في تلك المرحلة الأولى منذ بدايتها.. وفجأة سألني الرائد مأمون عن تجربتي في إدارة الجامعة (وكنت قد عملت لفترة كمساعد للسكرتير الأكاديمي بالجامعة) فقلت له إنها لم تكن كافية لكي ألم بكل شيء ، ولكنني قد اكتسبت بعض الخبرة في موقعي كمساعد للسكرتير الأكاديمي.. فأطرق قليلاً ثم التفت إليّ وقال : ما رأيك أن تكون مديراً لجامعة الخرطوم.. فقلت له : كيف ولماذا؟ فقال : يحدث ذلك بقرار من مجلس الثورة ، فقلت له - وكنت اعتقد بأنه كان يمزح - إن حدث ذلك فإنه يكون فوضى وليس ثورة ، فرد سريعاً لماذا فوضى؟ عندما قام كاسترو بالثورة في كوبا، فقد عين رئيس اتحاد الطلبة مديراً للجامعة فقلت له بهدوء : أولاً أنت لست كاسترو والسودان ليس كوبا.. فنظر إليّ ملياً ، وقال معاتباً والله يا المثقفين الواحد ما يعرف أنتو عايزين شنو بالضبط.

لقد أوردت هذه الخواطر عن بعض جوانب شخصية الرائد مأمون ، ليس دفاعاً عن الرائد مأمون عوض أبو زيد عضو مجلس قيادة ثورة مايو.. وليس عن ثورة مايو واشتراكه فيها - فهذا يحكمه التاريخ - ولا عن حياته الشخصية ، فهي ملك له وهو مسئول عنها ، ولكنني أوردتها من أجل مأمون الإنسان الذي يحترم الآخرين ، وعاش من أجلهم والتزم بصداقاته وعلاقاته في الأمس واليوم ، ووجد فيه معظمهم ملجأً وملاذاً وقام بمد يد العون لأكثرهم ، مع أن البعض قد خيب حسن ظنه.. ولأنه تعرض دون غيره ودون أسباب موضوعية لكثير من الظلم والاتهامات الباطلة ، ولأنه كان صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ، ويكفي أنه عندما

حادت مايو عن الطريق في رأيه والتف حولها الذئاب والمأجورين والمنبوذين ، فضل أن يكفر عن خطيئته بالمشاركة فيها وأن يدفع الثمن من صحته وراحته النفسية ، فآثر التجوال والضياع الذي لا يؤذي غيره وقرر الابتعاد عن الأضواء يبحث عن العلاقات الأصيلة في الدروب الخلفية من الحياة حتى لا يتعرض لكلاب البشر التي تريد أن تنهش جسمه النحيل وماضيه الذي قرر أن يتجاوزه وحيداً .



أين عبد الخالق؟؟



في عام ١٩٩٣م ، تم اختياري ضمن فريق من الخبراء الأفارقة ، بواسطة سكرتارية منظمة الوحدة الأفريقية لإعداد ورقة عمل تتعلق بقيام السوق الأفريقية المشتركة بمقر المنظمة في أديس أبابا ، وأثناء تواجدي في العاصمة الإثيوبية التقيت بالأخ د. منصور خالد الذي كان يتخذ من أديس أبابا في ذلك الوقت إحدى المحطات الهامة لتحركاته السياسية.

وفي ذلك اللقاء أطلعني د. منصور على كتابه The Government They Deserve ، الذي كان قد صدر في تلك الفترة باللغة الإنجليزية .وقد كانت تلك فرصة للحوار حول الكتاب وأشياء أخرى. وبعد انتهاء مهمتي بأديس أبابا عدت إلى السودان.. وأثناء تواجدي بالسودان وجه الأخ والصديق كمال جعفر الدعوة لي وللأخ د. عبد السلام صالح للحاق به في القاهرة لقضاء فترة من الصيف هناك.

وأثناء تواجدنا بالقاهرة وجه الرئيس السابق جعفر نميري الدعوة لثلاثتنا لتناول طعام الغداء معه بالمنزل ، الذي اتخذ منه مقراً لإقامته في القاهرة في منطقة مصر الجديدة ، وأيضاً تقبلنا الدعوة وتوجهنا إلى منزل الرئيس السابق في اليوم المحدد للدعوة.

وتجدر الإشارة هنا إلى إنني قد تعرفت على نميري لأول مرة في عام ١٩٦١م عندما كنت طالباً بجامعة الخرطوم ، وكان نميري ضابطاً عظيماً بالقوات المسلحة السودانية.. وحدث ذلك عندما زارني الصديق العزيز " عبد الحليم الطاهر "

المحامي بداخلية عطبرة في إحدى الأمسيات ، وكان معه لاعب كرة القدم الأسطورة المرحوم " صديق منزول " واقترح علي أن أرافقهم إلى سلاح المدرعات بالشجرة لقضاء الأمسية مع أحد أصدقائهما الضباط هناك ، فقررت الموافقة وسرعان ما انضممت إليهما ، وتوجهنا بعربة الأستاذ عبد الحليم الطاهر " الأوبل " صوب سكن الضباط بسلاح المدرعات بالشجرة.

وكان الضابط جعفر نميري في ذلك الوقت شخصية معروفة في أواسط ضباط القوات المسلحة ، ولدى القطاعات المختلفة من المجتمع السوداني.. وكان البعض يعتقد أن له مواقف وطنية وتطلعات للعب دور أكبر.. إما داخل المؤسسة العسكرية ، أو في نطاق الساحة السياسية في السودان.

ومنذ ذلك اللقاء الأول واللقاءات العابرة التي حدثت لاحقاً إلى أن أصبح نميري رئيساً للسودان ، كان في كثير من الأحيان يشعرني بخصوصية العلاقة الشخصية التي بدأت بتلك الأمسية وقد انعكس ذلك في تعامله معي الشخصي والرسمي من موقعه كرئيس للجمهورية ومن موقعي كسفير للسودان ، خاصة وأني كنت من السفراء القلائل الذي أشرفوا على بعض زيارات نميري كرئيس للجمهورية للخارج ، إذ اضطلعت بهذه المهمة ثلاث مرات ، مرة في تنزانيا وأخرى في الأردن ، والأخيرة كانت عام ١٩٨٤م ، في رومانيا.

واستقبلنا الرجل بترحاب تام في المنزل الذي اتخذه مقراً لإقامته بالقاهرة ، وبعد أن قام بتحيتي استفسر عن صحتي وأسرتي وظروفي الشخصية ، وسألني فجأة إن كنت قد التقيت د. منصور خالد مؤخراً ، فأجبته بأنني التقيت به قبل فترة بأديس أبابا وعند ذلك سألني إن كنت قرأت كتابه الأخير باللغة الإنجليزية فأجبته بأنني قد اطلعت عليه عندما التقيت بدكتور منصور في أديس أبابا ، عند ذلك تساءل بصوت عال لماذا د. منصور استعمل كلمات صعبة وغريبة في هذا

الكتاب، وأضاف قائلاً بأنه يملك عدداً من القواميس لكنه لم يجد معاني بعض الكلمات التي استعملها في أي منهم.

هنا ذكرت له أن د. منصور يستعين بعدد من المحررين خاصة عندما يكتب بالإنجليزية ، ويمتلك ثروة هائلة من الوثائق والمقتطفات من الصحف تساعده في إعداد كتاباته ، وأنه يضع الأفكار الرئيسية والخطوط العريضة للكتاب ، ثم يقوم بمراجعته بعد أن يعد في صورته النهائية بواسطة المحررين.

وفي هذا المجال استوقفتني خاطرة ، فقد أخبرني أحد الأصدقاء ممن تولوا منصباً وزارياً في أحد حكومات مايو ، التي كان د. منصور أحد الوزراء فيها ، بأنه قد لاحظ أن د. منصور كان الوزير الوحيد الذي يحرص على حمل كل المذكرات والأوراق التي كانت تعرض على الوزراء في اجتماعات مجلس الوزراء ، بل كان في بعض الأحيان يجمع بعض الأوراق التي تحتوي على ملاحظات بعض الوزراء حول المواضيع المختلفة، في الوقت الذي كان فيه كل أو معظم الوزراء يغادرون قاعة المجلس تاركين أوراقهم في أماكنها.

نعود إلى قصة الرئيس السابق نميري مع كتاب د. منصور.. فبعد تلك الأسئلة التفت نميري وأخرج كتاب د. منصور من أحد رفوف مكتبته ، ووضع يده على غلاف الكتاب الذي يحتوي على صور بعض الشخصيات السودانية التي لعبت دوراً في الحركة السياسية في السودان، مثل السيد عبد الرحمن المهدي والسيد على الميرغني وأزهري والمحجوب وزروق وقرنق وغيرهم ، والتفت إلى قائلاً لماذا لم يضع د. منصور صورة عبد الخالق محجوب مع تلك الشخصيات؟؟

ولقد فاجأني السؤال ! وأصبت بدهشة وحيرة من أمري ولم أستطع أن أدرك إن كان نميري جاداً أم مازحاً بذلك السؤال؟ خاصة وقد عادت بي الذاكرة إلى مجزرة "

الشجرة " الشهيرة التي أعدم فيها قادة الحزب الشيوعي السوداني بعد أحداث يوليو ١٩٧١م وكان في مقدمتهم عبد الخالق محجوب.

وقبل أن أفيق من دهشتي لأتمكن من الرد عليه.. عالجني نميري بمفاجأة أخرى ، كادت تكون الضربة القاضية ، عندما أضاف قائلاً : نعم أنا اختلفت مع عبد الخالق محجوب سياسياً ، ولكني لا أنكر دوره ودور الحزب الشيوعي في الحركة الوطنية في السودان.

واعترف الآن بأن ذلك الموقف كان من أصعب المواقف التي واجهتني في حياتي ، إذ لم أستطع أن أواجه الرئيس نميري ، بأنه إذا كان ذلك رأيه في عبد الخالق وفي الحزب الشيوعي.. فلماذا لم يشفع لهم ذلك الدور عندما تمت تصفية الحزب وقادته بتلك الصورة البشعة في يوليو ١٩٧١م ، والتي ستظل نقطة سوداء في تاريخ نميري ، وتاريخ السودان السياسي.. لأنها كانت شذوذاً عن الأخلاق التي اتسمت بها الخلافات السياسية في السودان ، والتي ينطبق عليها قول " إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية ".

واكتفيت بالرد عليه بأن كتاب د. منصور لم يكن عن تاريخ الحركة الوطنية السودانية ، بقدر ما كان تحليلاً لأوجه القصور والفشل في أداء الحكومات المختلفة التي تعاقبت على الحكم في السودان منذ الاستقلال ، وعند ذلك انتهى ذلك المشهد الدرامي.

وأود أن أعترف هنا أيضاً بأنني لا أدري حتى الآن أن جعفر نميري كان يمارس في ذلك اللقاء أحد تقلباته السياسية البهلوانية التي أجادها أبان توليه السلطة.. أم أنه بعد أن تقاعد بدأ يعيد النظر في مواقفه السياسية السابقة؟ أم أنه فقط أراد أن يجد فرصة للهجوم على د. منصور الذي كان ولا يزال يعتبره العدو اللدود؟.



عائلة الخير





الراحل جورج حجار وحرمه مع صديقه سر الختم الخليفة رئيس وزراء ثورة أكتوبر

وفدت أسرة جورج ميخائيل حجار من الشام إلى السودان في أواخر القرن الماضي، ونشأ جورج حجار وترعرع في مدينة أم درمان.. وبعد ذلك بدأ أعماله التجارية الرائدة في زراعة الشاي والبن في غرب المديرية الاستوائية بجنوب السودان ، ثم أنشأ مصنعاً للسجائر في مدينة " إيواتوكا " بغرب الاستوائية في عام ١٩٥٠م ، وفي عام ١٩٦٤م ، بدأ تأسيس أعماله في الخرطوم ابتداءً بمصنع السجائر والتبغ ، ثم صناعة البلاستيك ، وتصدير الماشية والشحن الجوي.

وفي عام ١٩٧٠م ، شملت أعماله وممتلكاته المصادرة والتأميم التي اقتضتها سياسة النظام في ذلك الوقت ولكنها أعيدت إليه عام ١٩٧٣م ، وفي التسعينيات توسعت أعمال شركة حجار لتشمل أنشطة استثمارية في بريطانيا وفرنسا وليبيريا وألمانيا ومصر وإثيوبيا وكينيا ونيوزيلاند وجنوب أفريقيا.

لقد التقيت بالراحل الوالد الكبير جورج حجار وقرينته السيدة الفضلى إليس حجار (أطال الله عمرها) مراراً ، وفي فترات متلاحقة ، وتعرفت على بقية أفراد الأسرة عن قرب ، وعندما التحق شقيقي الأصغر د. سيف الدين دياب بالعمل في بريطانيا أصبحت دار حجار بلندن داراً له وأسرة حجار أسرةً له ، وإن هذه

العلاقة قد كشفت عن أصالة هذه الأسرة وانتمائها لعادات وتقاليد السودان التي كادت أن تندثر.. وذلك لما قاموا به نحوه ونحو والدته ووالده رحمهما الله ، ومنذ ذلك الحين ظلت أسرة حجار نعم الأهل والعشيرة لي ولأفراد أسرتي ، شاركونا السراء والضراء بصدق وإخلاص لا يبغون منفعة ولا شكوراً.

وقد كان الراحل جورج حجار وزوجته إليس يحرصان في زيارتهم المتقطعة للسودان أن يزورا منزل الأسرة بأم درمان ، لكي يطمئنا الوالد والوالدة على صحة ابنهما بلندن ويحملا معهما تحياتهما إليه.. مما كان له وقع كبير في نفوسهما.. وشعرا بأن ابنهما في أيادٍ أمينة وبين أهل كرام أعزاء.

أما علاقتي مع الأخ والصديق إنيس جورج حجار.. فإنها تعود إلى بداية الستينيات حيث كنا مجموعة من الشباب نلتقي يومياً تقريباً ، ونتبادل الأنس والحوار في المواضيع التي تتعلق بمستقبل السودان وشؤونه المختلفة ، وكان راعي هذه المجموعة الأخ والصديق السيد إسماعيل عبد الله الفاضل ، رد الله غربته.

وفي فترة لاحقة.. عندما كنت سفيراً بالأردن اقترن الأخ أنيس بالسيدة لينيا صوصه وكان لي شرف التعرف بأسرتها بالأردن إبّان تلك الفترة ، وكنت سعيداً بحضور حفل زفافها بمدينة عمان الجميلة ، فتوثقت علاقتنا.. وشملت لاحقاً ابنتهما دارا والتوأم جورج وأنتوني.

وفي نهاية الثمانينيات بدأت تتبلور لدى أسرة حجار فكرة إنشاء مؤسسة خيرية غير سياسية ، تعمل على تقديم المساعدات في المجالات الخيرية المختلفة.. وفي عام ١٩٨٩م، اكتملت الفكرة.. وأُعلن عن تأسيس " مؤسسة حجار الخيرية " وتصادف أنني قد عدت إلى الخرطوم نهائياً من رومانيا ، بعد أن تمت إحالتي للتقاعد ، فعرض على الأخ أنيس حجار أن أتشرف بشغل منصب السكرتير التنفيذي لتلك المؤسسة خاصة وأنني كنت قد تابعت مسيرتها منذ أن كانت فكرة

تداولناها معاً في فترات سابقة ، فتقبلت ذلك التكليف بسعادة إيماناً بالفكرة ووفاءً لتلك الأسرة التي أحببت.

ظللت أشرف على مسيرة تلك المؤسسة منذ ذلك الحين. وشهدت تطورها وإنجازاتها المتعددة في جميع المجالات ، وكنت سعيداً في دخول مجال عمل الخير من باب عائلة أهل الخير.

والآن أصبحت المؤسسة لها شخصيتها الاعتبارية ، وبدأت تؤدي رسالتها الإنسانية بصورة علمية وحيادية خالية من أية اعتبارات غير التي أراد لها مؤسسها وراعيها الراحل جورج حجار.

ومن ناحية أخري فقد اختير لرئاسة مجلس أمنائها رجل شُهد له بالكفاءة الوطنية والعمل والحكمة والتجرد ، وهو الأستاذ المربى الكبير سر الختم الخليفة . الذي اختير من قبل لنفس الأسباب ليرأس حكومة ثورة أكتوبر ١٩٦٤م ، وقد جمع مجلس الأمناء نخبة ممتازة من الشخصيات السودانية التي ساهمت بصورة أو بأخرى في إثراء الحياة السودانية في مجالات مختلفة.. فكان هناك رجل القانون والمواطن السوداني الأول مولانا أبل ألير ، والدبلوماسي القدير المرحوم فخر الدين محمد ، والسياسي القدير الراحل هيلري لوقالي ، ورائدة العمل النسائي السيدة نفيسة أحمد الأمين ، والطبيب الماهر د. عبد الله الحاج موسى ، إلى جانب أسرة شركة حجار للتبغ والسجائر يتقدمهم أنيس جورج حجار والمرحوم شبلي ، وطه على البشير ، وبشرى محمد خير ، وساتي حاكم والعم صلاح سكران.

ومما استرعى انتباهي أثناء تلك الفترة عند ازدياد ارتباطي بحجار الأسرة ، وحجار الشركة ، وحجار المؤسسة الخيرية أن هناك علاقة رائعة وعميقة تربط بين الأسرة وبين العاملين فيها ، والذين يتعاملون معهم بصورة أو بأخرى.. علاقة تكاد تكون أسرية أخوية يتغلب عليها الجانب الإنساني فوق كل اعتبارات أخرى ،

وفي اعتقادي أن هذا غرس الوالد الراحل جورج حجار الذي انتمى إلى السودان لحماً ودماً وحياة وتاريخاً وأصالة وتقاليد.. خاصة وأنه عاش فترة نقاء الحياة والعلاقات الإنسانية في السودان قبل أن تتفشى فيها الأمراض الاجتماعية التي نراها اليوم.

وأثناء تلك الفترة من ارتباطي بمؤسسة حجار الخيرية.. رأيت ذلك الغرس الطيب على الواقع ، فخير تلك الأسرة قد فجر آبار المياه في غرب السودان ، وشيد مكتبات وقاعات للمحاضرات في الجامعات المختلفة ، وجدد الحياة للذين يعانون من مرض الفشل الكلوي ، حيث وفرت لهم المؤسسة ماكينات غسيل الكلي والأدوية لمركز الكلي بالخرطوم.. وبث السعادة في نفوس الأطفال في مراكز المعاقين العديدة بالسودان وأثرى الجامعات بالدوريات والمراجع العلمية الهامة التي انقطعت عنها لنقص مواردها المالية ، ووفر المأوى والمأكل والمشرب لعائلات عديدة تعاني من ضغوط الحياة ومن الخلل الاجتماعي الذي أصاب البنية العائلية في السودان مؤخراً ، وساعد في تبني النبوغ والكفاءات في المجالات المختلفة.. وكثيراً ... وكثيراً..

ومن التجارب التي لن أنساها والتي تعتبر خروجاً عن المألوف في تلك الفترة ودرساً آخر من دروس الغرس الطيب ، فقد قامت المؤسسة في تلك الفترة باستيراد ماكينات حفر الآبار من الخارج ، ولكن مصلحة الجمارك وضعت عليها رسوماً عالية فذهبت بصفتي السكرتير التنفيذي للمؤسسة لمقابلة مدير الجمارك أملاً في تخفيض تلك الرسوم باعتبار أن تلك الماكينات هبة من المؤسسة الخيرية ، وعندما شرحت لمدير الجمارك ذلك أفادني أنه من حق المؤسسة الحصول على إعفاء كامل من الجمارك لمثل تلك الأغراض الخيرية وذلك بمخاطبة وزارة المالية في هذا الصدد.

ولقد سعدت بتلك المعلومة لأنها سوف توفر للمؤسسة أموالاً يمكن إنفاقها في مجالات أخرى ، وعندما نقلت تلك المعلومة للأخ انيس حجار لكي نشرع في إجراءات مخاطبة وزارة المالية ، طلب مني مهلة من الوقت حتى يتحصل على موافقة والده بصفته راعي المؤسسة ورئيس مجلس الأمناء ..

وبعد يومين ولدهشتي الكبيرة أفادني الأخ أنيس بأن والده رفض مبدأ أن تتحصل المؤسسة على إعفاء كامل من الجمارك على ما تستورده المؤسسة من الخارج لمصلحة الجهات التي تقدم لها العون.. وكان رأيه أنه من حق الدولة أن تتحصل على الضرائب المستحقة على ما تستورده المؤسسة من الخارج ، وأنه من واجب المؤسسة أن تتحمل ذلك العبء كضريبة إضافية لعمل الخير.. وبقدر ما كانت دهشتي لذلك الرأي بقدر ما كان إعجابي وتقديري لمفهوم ضريبة عمل الخير والتزاماتها عند ذلك الرجل الكبير جورج حجار ، وهذا غرس طيب آخر.

وللقارئ أن يقارن بين مثالية هذا الموقف ، وما تردد مؤخراً على لسان بعض المسئولين من ممارسات الجمعيات والمؤسسات الخيرية التي انتشرت في البلاد كالوباء القاتل تحت واجهات ومسميات (حق أريد بها باطل) ولكنها في الخفاء كانت تقوم بممارسات لا تدخل في باب الخير مطلقاً.. إنما كانت وبالاً على من يحتاجون لفعل الخير، وعلى الوضع الاقتصادي بصفة عامة.. حتى على الذين لا يحتاجون لفعل الخير.

وإلى جانب إنشاء مؤسسة حجار الخيرية وتخصيص نسبة مقدرة من أرباح شركة حجار للسجائر والتبغ ، وشركات حجار التجارية لتلك المؤسسة ، فقد اهتم الراحل جورج ميخائيل حجار أثناء فترة حياته بتحقيق السلام في السودان ، وبذل جهوداً كبيرة في هذا الصدد ، وسار ابنه أنيس في ذلك الطريق أيضاً ، كما أولى العاملين بشركات حجار اهتماماً خاصاً ، وكان يتفقدهم من حين لآخر.. وقام بمد

يد العون إلى الفقراء والمحرومين بمختلف السبل التي لا تخدش الكرامة والحياء ، كما أولى التعليم ومساعدة الطلاب المحتاجين اهتماماً خاصاً : إيماناً منه بأهمية التعليم في بلد باتساع رقعة السودان.

إن أسرة حجار التي اتخذت من السودان موطناً ووطناً ، وساهمت في بناء اقتصاد السودان ومؤسساته وحرصت على الالتزام بقوانين وتقاليد وموروثات ذلك الوطن واستشعرت أهمية تحقيق السلام من أجل بناء سودان موحد شامخ ، وأقامت مؤسسة لعمل الخير وبسلوك أفرادها وارتباطهم بمشاعر وأحاسيس وقيم المجتمع السوداني وتعاملهم واحترامهم لمختلف ألوان الطيف في السودان ، وبتقديرهم للشخصيات القومية والوطنية بصفة خاصة.. قد استطاعت أن تسمو بوطنيتها وبانتمائها فوق الاعتبارات الإثنية والعرقية والدينية ، وضربت مثلاً رائعاً بأن الإنسان يستطيع أن يتخطى كل تلك الحواجز والاعتبارات إذا تصرف بإنسانية مجردة ، لا تعرف التمييز بين ألوان ذلك الطيف.

وفي عام ١٩٩٥م ، أتيحت لي فرصة للتعاقد والعمل مع وزارة خارجية دولة قطر الشقيقة التي لا زلت أعمل معها حتى الآن.. فاضطررت لذلك أن أغادر السودان وقد كان قراراً صعباً لأنه سوف يبعدني عن مواصلة العمل الذي بدأناه في مؤسسة حجار الخيرية.. ولكن عزائي كان أن المؤسسة قد شبت وقوي عودها ، ومن ناحية أخرى فقد خلفني في تولي مهمة السكرتير التنفيذي للمؤسسة أخي وصديقي ورفيق دربي الأستاذ إبراهيم الجمل الذي يعتبر إضافة كبيرة لإثراء عمل المؤسسة في مجالاتها المختلفة ، والذي استطاع أثناء توليه هذا الموقع أن يُحدث نقله نوعية في نشاطات المؤسسة ، وأصبحت اليوم من دعامات عمل الخير المجرد لمصلحة أبناء السودان أجمعين.



بقايا... سطور



إن الصفحات الماضية من هذا الكتاب قد اقتصرت على رواية بعض الأحداث والمواقف والطرف التي شهدتها خلال رحلتي الدبلوماسية منذ التحاقي كدبلوماسي بوزارة الخارجية عام ١٩٦٣م ، وإلى أن تمت إحالتي كسفير للصالح العام (التقاعد) في عام ١٩٨٩م.

لقد توقفت في تلك الصفحات في محطات معينة من تلك الفترة اختلفت زماناً ومكاناً ومعنى وأهميةً ودلالةً ، ولذلك فإن تلك الصفحات يجب ألا ينظر إليها باعتبارها مذكرات، أو سيرة ذاتية ، أو محاولة لدراسة وتحليل سياسة السودان الخارجية في تلك الفترة ، ولكنها دون شك وبالرغم من أنها تجارب شخصية إلا أنها تحمل بين سطورها بعضاً من كل ذلك.

لذلك رأيت أن أنقل تلك التجارب كما حدثت وكما عشتها ، ورؤيتي لدلالاتها في لحظة حدوثها ، كأنها رسالة شخصية مني إلى كل من يقرأ تلك الصفحات حتى يتولد إحساس مشترك بأننا جميعاً قد عشنا تلك التجارب ، ولكل منا الحق والحرية في الحكم على تلك الأحداث واستنتاج ما يراه من تلك التجارب.

ومن هذا المفهوم وبصفتي أحد الذين عاشوا تلك التجارب ، فإن ذلك يدفعني لأن أتعرض لبعض النتائج التي توفرت لي من تلك الفترة ، وهي انطباعات قد تكون خطأ أو صواباً ، ولكنها دون شك صادقة ومجردة لا تهدف إلا أن تعبر عن إحساس بهموم المواطنة وبمسئولية التجربة والوفاء للمهنة.

ويأتي التمثيل الدبلوماسي خارج الوطن في صدر تلك الانطباعات ، ومن تجربتي في هذا المجال فقد توصلت إلى قناعة بأن التمثيل الدبلوماسي خارج الوطن قد

يكون متعةً أو عزاباً ، فهو متعة إذا تفهم الدبلوماسي هذه المهنة وأحبها ووظف وجوده بعيداً عن وطنه التوظيف السليم ، الذي يعود عليه وعلى وطنه بالمنفعة، وذلك بالاستفادة القصوى من هذه التجربة حياتياً في جميع المجالات ، وفي مقدمة ذلك الإلمام بتجارب الآخرين ، والانفتاح على الأخر ، دون قيود تعيق صهر تلك التجارب لكي تصبح ثروة إنسانية.

ومن ناحية أخرى فقد تكون تلك المهنة روتيناً إذا اعتبر الدبلوماسي مهمة التمثيل الدبلوماسي خارج الوطن واجباً وظيفياً فقط ، يجب القيام به دون مشقة أو تضحية تبذل ، فيصيبه الكسول الذهني ، والروتين المهني مما يبطئ نمو وانطلاق شخصيته ، وقد ينتهي به الأمر إلى محاولة ملء الفراغ أو التغلب على الشعور بالملل والوحدة بشتى ضروب الترفيه بأنواعه المختلفة.

وهناك نوع آخر من الدبلوماسيين لا تختلف نظرته للمهنة عن سابقة ولكنه يملأ فراغه بأن يحيل هذه المهنة إلى مصدر إعاشة إضافية ، وبذلك يفقدها معناها ويفقد هو متعة الإحساس بها و يعود إلى أرض الوطن من مشارق الأرض ومغاربها " غانماً " معتقداً بأن ذلك هو قمة النجاح من الالتحاق بالخدمة الدبلوماسية.

الدبلوماسية في رأيي هي مهنة كغيرها من المهن كالطب والقانون والهندسة ، تحتاج إلى مؤهلات علمية من ناحية ، وإلى مهارات شخصية وإلى إخلاص للمهنة في حد ذاتها من ناحية أخرى ، والدبلوماسي الناجح هو الذي يجمع بين كل ذلك، وكأي مهنة أخرى فإنها تتطلب أيضاً التدريب المتواصل والاطلاع والمتابعة وإلى التخصص في فروع الدبلوماسية المختلفة في هذا العصر ولعل هذا ما يفسر التفاوت في مستوى أداء العاملين في السلك الدبلوماسي في المواقع المختلفة أثناء شغلهم لتلك المواقع.

ومن انطباعاتي في تلك الفترة بأن الرعيل الأول من الدبلوماسيين السودانيين وإن لم يتحصلوا على المؤهلات العلمية العالية التي تحصلت عليها الأجيال اللاحقة

التي انضمت إلى السلك الدبلوماسي بعدهم ، إلا أنهم أظهروا كفاءة ومهارة في أداء مهنتهم وكانوا أكثر حرصاً وإصراراً على مصلحة وسمعة وطنهم ، وبذلك استحقوا الإعجاب والاحترام في داخل السودان وخارجه. وهذا الإحساس قد بدأ يتلاشى في صفوف العاملين بالسلك الدبلوماسي في العقود الأخيرة وفي الأوساط الخارجية أيضاً وهذه ظاهرة تستحق التوقف عندها ولكن يجب ألا ينظر إليها بمعزل عن ما أصاب الخدمة المدنية عامة من خراب.

ولكي لا نظلم الأجيال الحديثة من العاملين في السلك الدبلوماسي فيجب أن نأخذ في الاعتبار أن الرعيل الأول قد التحق للعمل بوزارة الخارجية فور إنشاء وزارة الخارجية بعد الاستقلال مباشرة وقد تشبع ذلك الجيل بروح تلك المرحلة التي اكتسبت طابع الحماس والثقة والأمل في مستقبل السودان الذي كان موعوداً بغد مشرق وكانت القضايا الداخلية والخارجية تختلف في معالجتها عن ما هي عليه اليوم ، كما أن الشخصية السودانية آنذاك كانت متماسكة وطنياً وسياسياً واجتماعياً.

ولذلك انطبعت تلك الأجيال بروح المرحلة التي تصالحت مع نفسها ومع الغير ولم تقتصر تلك الكفاءة والتفاني والإخلاص على الرعيل الأول من الدبلوماسيين فقط بل شمل ذلك الكوادر المختلفة من المواقع الأخرى.

وعندما بدأ ذلك الجيل يفسح المجال للأجيال الحديثة أصبحت الأشياء غير الأشياء. فالعالم قد تغير وقضايا السودان الداخلية قد تشعبت وتنوعت ، وتدهورت أوضاعه الاقتصادية ، و تغيرت صورته الاجتماعية، وانفرط العقد الاجتماعي الذي جمع بين كل السودانيين قبل الاستقلال، وأصبحت هنالك تفرقة بين المسلم والمسلم والمسلم والمسيحي والشمالي والجنوبي والشرقي والغربي والعربي والأفريقي.

هذه القضايا الداخلية التي أخذت تتفجر من حين لآخر ، وأدت إلى إفرازات مختلفة كانت معظمها تسبب أبعاداً خارجية تمثل عبئاً جديداً على الدبلوماسية السودانية وفي غياب رؤية واضحة ومتكاملة تمثل إجماعاً سياسياً ملتزماً للقوى

السياسية المختلفة فإن جهود الدبلوماسية الحديثة بدأت تتعثر من حمل تلك التراكمات الثقيلة ،مما فتح المجال للدبلوماسية الإقليمية والدولية لكي تمسك بزمام المبادرة في إيجاد الحلول لقضايا السودان المختلفة ، وهذا في رأيي ليس تقصيراً من الكوادر الدبلوماسية في وزارة الخارجية بل انعكاساً لفشل القيادات السياسية المختلفة في بلورة سياسة خارجية تحفظ للسودان كرامته ، ووحدته ، واستقلاله ، ولكن تلك القيادات قد كرست اهتماماتها من أجل مصالحها الضيقة والبقاء في السلطة.

وبذلك بدأت الدولة في فقدان هيبتها وسطوتها وقدرتها على خدمة مواطنيها وحماية أمنهم ومصالحهم وحقوقهم ، وأن الأجيال المختلفة لم تفشل فقط في تحديد هوية السودان ومستقبله السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، بل أضافت أبعاداً أخرى تمثلت في إقحام الدين والعرق ضمن أجنده ذلك الفشل.

ومن ناحية أخرى فإنها لم تقتصر على ذلك فقط ، بل فشلت أيضاً في تطوير أو الإبقاء على ما ورثته من النظام الاستعماري ، وظلت تتخبط شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً حتى انفرط عقدها وشلت قدرتها على التصالح مع بعضها البعض وأصبح السودان بالنسبة لقياداته وأبناءه حالة اجتماعية وإنسانية وسياسية معقدة فشل الجميع في معالجتها ، وأصبح بذلك مصير السودان ومستقبله يتداول في منابر إقليمية ودولية مختلفة تتحكم فيه أيادي ومصالح أجنبية.

وقد يستطيع القارئ للصفحات السابقة أن يجد هذه الحقيقة بين السطور ويرى كيف كان السودان بالأمس وكيف أصبح اليوم ، ومن هذا المنطلق فإن هذه الخواطر والذكريات قد تنير الطريق للأجيال القادمة التي نأمل أن تكون أكثر قدرة على استيعاب دروس الماضي وأكثر إصراراً على بناء سودان جديد بإرادة أبناءه واستثمار تاريخه و تنوعه العرقي والديني والثقافي وثرواته البشرية والطبيعية في بناء ذلك السودان.



أمير العقل




الأمير الحسن بن طلال

ولد الحسن بن طلال وهو الأبن الأصغر للملك طلال بن عبد الله بمدينة عمان عام ١٩٤٧ وتلقى تعليمه الإبتدائي والثانوي بالمدارس الأردنية ثم التحق بجامعة أكسفورد حيث نال شهادة البكالوريوس وشهادة الماجستير في الدراسات الشرقية واختاره شقيقه الراحل الملك حسين ليتولى منصب ولي العهد عام ١٩٦٥ حيث كان الساعد الأيمن لشقيقه الملك وموضع سره ونائبه إلى أن قام الملك الراحل حسين بإجراء التغييرات الأخيرة في ولاية العهد قبل وفاته بفترة قصيرة عام ١٩٩٩م.

وطيلة تلك الفترة فقد تصدى الأمير حسن لبناء الدولة الحديثة في الأردن خاصة وقد أطلق شقيقه الملك الراحل الأمير حسن في هذا المجال مما جعله يتفرغ للعبة السياسية التي أجادها في ظروف كانت في غاية الصعوبة والخطورة في آن واحد وبذلك نجح الشقيقان في إدارة دفة سفينة بقاء الأردن كدولة لها خصوصيتها بالرغم من الأمواج التي ظلت تتقاذفها من عدة أطراف ولفترة من الزمن.

قام الأمير الحسن بتأسيس عدد من المؤسسات والمعاهد واللجان المتخصصة في مختلف المجالات في الأردن ، فقد أشرف على خطط التنمية في بلاده منذ

عام ١٩٧٣ إلى ١٩٩٠ وفي عام ١٩٧٢ أسس الجمعية العلمية الملكية التي تعنى بالأبحاث العلمية وفي عام ١٩٨٠ كون مؤسسة آل البيت التي أنشأت جامعة آل البيت وفي عام ١٩٨١ أسس منتدى الفكر العربي الذي صار منبراً للحوار حول القضايا الإقليمية والدولية وفي عام ١٩٨٧ أنشأ المجلس الأعلى للعلوم والتكنولوجيا والذي يشمل مركز تنمية الموارد البشرية والمركز الوطني للمعلومات والمعهد الدبلوماسي كما أسس الأكاديمية الإسلامية للعلوم ووكالة المساعدات والإغاثة الهاشمية.

وقد توج الأمير الحسن تلك الإنجازات داخل وطنه بتجسيد شخصيته المتفردة بجهد مقدر في مجال التأليف والتوثيق والنشر ، فقد أثرى المكتبة العربية بتأليف أربعة كتب ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية ، ففي عام ١٩٧٩ أصدر كتاباً بعنوان " القدس دراسة قانونية " وفي عام 1981 أصدر كتاباً بعنوان " حق الفلسطينيين في تقرير المصير " وفي عام ١٩٨٤ أصدر كتاباً بعنوان " السعي نحو السلام " وفي عام ١٩٩٤ أصدر كتاباً بعنوان " المسيحية في العالم العربي ".-

لذلك فإن الأمير الحسن بفكره وثقافته ومبادراته يعتبر اليوم شخصية دولية ذات مرجعية تستند على إمكانياته المتعددة الجوانب في مجالات الثقافة والتراث والاقتصاد والبيئة والعلوم والتكنولوجيا والتعليم ومحاربة الفقر واللاجئين وحقوق الإنسان وحوار الأديان والقضايا الأخرى العالمية ذات الأبعاد الإنسانية المشتركة.

ومن هنا أحتل الأمير الحسن مكاناً عالمياً مرموقاً ومنفرداً ليس فقط بين صفوف أفراد الأسر الملكية الحاكمة في العالم بل بين صفوف المثقفين من العرب والأجانب ومن ناحية أخرى فقد استطاع أن ينجح في تحقيق معادلة صعبة بين مسئولية الحكم وشخصية الحاكم وبين مسئولية الفرد وواجبات المواطنة ، وقد وصل نجاحه القمة في تحقيق تلك المعادلة بصورة صادقة ومشرفة جعلته يسمو فوق كل الاعتبارات الشخصية والرسمية حينما تقبل بصدر رحب قرار شقيقه

الأكبر الملك الراحل حسين بتحيته عن المنصب الذي ظل يشغله بكفاءة وإخلاص وتجرد في خدمة شقيقه ووطنه قرابة الربع قرن من الزمان مما رفع من قدره وحفظ الأسرة الهاشمية من صراعات كان من المحتمل أن تهدد أمن واستقرار الأردن والإطاحة بإنجازاته التي كان لسمو الأمير نصيب الأسد في تحقيقها عندما كان ولياً للعهد.

ومما يؤكد ذلك السمو والرغبة والاستمرار في العطاء أنه الآن ومن موقعه الحالي يرأس اللجنة الاستشارية الخاصة بالسياسات في المنظمة العالمية للملكية الفكرية كما أنه يتمتع بعضوية المجموعة الاستشارية للمفوضية العليا لشؤون اللاجئين وبعضوية اللجنة التنفيذية لنادي روما وعضوية مؤسسة البحث والحوار بين الأديان والثقافات وعلى الصعيد الإقليمي فقد وقع عليه الاختيار لرئاسة اللجنة الخاصة بإصلاح وإعادة هيكلة جامعة الدول العربية.

ولقد تشرفت بمقابلة سمو الأمير الحسن لأول مرة بصفته "نائب الملك" في يوليو ١٩٧٨ عندما قدمت أوراق اعتمادي كسفير لجمهورية السودان بالأردن وبعد المقابلة بفترة قمت بزيارة في إحدى الأمسيات إلى السودانيين العاملين بالقصور الملكية وكانوا يقيمون داخل قصر " بسمان " وهو المقر الرسمي لجلالة الملك ونائبه للتعرف عليهم وتفقد أحوالهم خاصة وأن بعضهم قد قضى فترة طويلة في الأردن.

وفي صبيحة اليوم التالي اتصل بي مكتب سمو الأمير و أخطرني بأن سمو الأمير يرغب في مقابلتي ولقد وضعت عدة احتمالات في تفسير الرغبة من تلك المقابلة خاصة وأنني كنت في بداية عملي كسفير ولذلك عندما ذهبت لمقابلته كنت في حالة من الإرتباك والإضطراب والترقب.

وسرعان ما زالت تلك الحالة عندما استقبلني سمو الأمير ببشاشة وتواضع وابتسامته الصادقة وبادرني قائلاً " كيف أحوال العاملين بالقصر يازول "؟

واستدرك قائلاً بأنه شاهد سيارتي بالأمس في مقر أقامتهم من شرفة منزله وعلم من أجهزة الأمن بأن السيارة كانت سيارة السفير السوداني وأضاف بأنه لم يفاجأ بتلك اللفتة " السودانية " من جانبي لمعرفته بالسودانيين وعلاقاتهم الاجتماعية التي تتلاشى فيها الحواجز الرسمية والاجتماعية عندما تعرف على الطلاب السودانيين أثناء دراسته بجامعة أكسفورد.

ومنذ تلك المقابلة توطدت علاقتي " الشخصية " بالأمير الحسن حتى صار يفاجئني في بعض الأحيان برغبته في تناول قهوة " جبنه " سودانية أو طبق " فسيخ " على الطريقة السودانية ، وكانت تلبية مثل تلك الرغبات تسعدني وتسعد زوجتي كما أنها من ناحية أخرى تشبع غروري كسوداني أولاً وتحقق طموحاتي كسفير ثانياً كما أن تلك اللمحات قد أدت إلى إزالت الحواجز الرسمية بيني وبين سموه على المستوى الشخصي.

و في بعض الأحيان أخذت هذه اللمحات شكلاً أخر فعندما زارني الأخ الصديق الراحل د. علي الملك في عمان اصطحبته معي لإحدى المناسبات الدبلوماسية وتصادف أن يكون الأمير حسن مشاركاً في تلك المناسبة وعندما التقيت به كان د. علي إلى جانبي فقدمته لسموه وتبادل معه الحديث وعلم أن د. علي كان أثناء ذلك الوقت يعمل كأستاذ بشعبة الدراسات الآسيوية والإفريقية بجامعة الخرطوم فقام سموه بالسؤال عن الشعبة ونشاطها الأكاديمي وفي نهاية الحديث طلب مني ومن د. علي تناول الإفطار معه بمنزله صباح الغد.

ولقد كانت الدعوة مفاجأة لكلينا وفي الوقت الذي أثارت فيه فضولي المهني ، إلا أنها بالنسبة للأخ علي كانت فرصة لا تعوض لكي يتشرف بتناول الإفطار مع أمير وفي قصره الخاص كما علق بأسلوبه المسرحي الساخر.

وفي صبيحة اليوم التالي كنا بقصر بسمان ولكننا فوجئنا بوجود عدد كبير من بعض الوزراء ومدراء الجامعات ورجال الفكر وأثناء تناول طعام الإفطار طلب سمو

الأمير من د. علي أن يحدث الحضور عن شعبة الدراسات الآسيوية والإفريقية بجامعة الخرطوم واستمر النقاش والأسئلة حول هذا الموضوع والذي تطور إلى العلاقات العربية الإفريقية حتى منتصف اليوم وبذلك أصبح فعلاً أفطار " عمل " من الدرجة الأولى.

وبعد تلك المناسبة بفترة أنشأت الجامعة الأردنية شعبة مماثلة واستضافت الأردن عدداً من الندوات حول العلاقات العربية - الإفريقية كان الأمير حسن في مقدمة المشاركين فيها.

وبعد ذلك بفترة زارني في مهمة رسمية الزميل السفير عبد المجيد على حسن وكان في ذلك الوقت يعمل بسكرتارية الأمم المتحدة بنيويورك وكانت المهمة تتطلب الاجتماع بالمسئول عن قسم الشرق الأوسط بوزارة خارجية الأردن وفي صبيحة يوم وصوله اصطحبته معي إلى ندوة بجامعة " اليرموك " وتشاء الصدفة أن يكون الأمير حسن مشاركاً فيها وعندما التقينا بسموه سأل السفير عبد المجيد عن طبيعة زيارته للأردن فشرح له المهمة ولم يتردد سمو الأمير في أن يبلغه برأي حكومة الأردن حول تلك المهمة.

وبقدر ما كانت سعادة الأخ عبد المجيد بلقاءه بسمو الأمير وانتهاء مهمته بهذه البساطة إلا أنه علق لي بأن هذه المقابلة قد تثير له مشكلة حينما يرفع تقريره عن مهمته للمسئولين بالأمم المتحدة لأنه يخشى ألا يصدقوا أنه وصل الأردن وفي أقل من أربعة وعشرين ساعة نجح في الحصول على موقف الأردن ليس من المسئول عن الشرق الأوسط في وزارة الخارجية ، بل من ولي العهد شخصياً.

وعندما عدت إلى الأردن عام ١٩٨٤ كمبعوث خاص للرئيس السابق جعفر نميري لتسليم رسالة إلى جلالة الملك حسين وقابلت في هذه الزيارة الرسمية الأمير حسن وكان ولياً للعهد وقمت بشرح الأوضاع في السودان كما تركتها قبل الانتفاضة بأسابيع فأبدى الاهتمام والقلق على

مصير السودان وشعبه كما أبدى الخوف على سلامة السيد/ الصادق المهدي كصديق ومفكر ورئيس وزراء سابق (تعرضنا لتفاصيل ذلك في الصفحات السابقة تحت عنوان " مبعوث الرئيس ").

لقد قصدت من التعرض لتلك المواقف السابقة ذات الطابع " الشخصي " مع الأمير حسن التي تعبر عن تواضعه وبساطته وإنسانيته ووفاءه وحضوره الدائم حتى تكتمل صورة " العالم " من صورة الإنسان لدى القارئ ويتعرف على " أمير العقل " الذي تشرفت بمعرفته والاقتراب من بعض جوانب عقله وجهده وإنسانيته ، وذلك العقل الذي يتلقى بقدر ما يعطي فتدفقت إسهاماته في مختلف الاتجاهات والدوائر جهداً عربياً إسلامياً في خدمة وطنه وقضيته وتاريخه وتقاليده.



المحتــوى







شخصيات..
في الكتاب

- فخر الدين محمد
- جمال محمد أحمد
المؤلف مع الرئيس التنزانى نيريرى
- د. منصور خالد
عبدالكريم ميرغنى مع أم كلثوم
- محمد ميرغنى
- د. أمين مكى



الطبعة الأولى
2004
اللوحة من ملونات
حسن إسحق إبراهيم



المؤلف







هذه الفصول الممتعه، هى مزيج من الذكريات، ولمحات من السيره الذاتيه، ونظرات دقيقه متعمقه فى تقلب الأحوال فى السودان على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً. وقد وُفِّق الكاتب الدكتور أحمد دياب، أيما توفيق أنه اتخذ أسلوباً سلساً جميلاً يمتاز بالبساطه وروح الدعابه.

بعد أن تخرج أحمد دياب من جامعة الخرطوم عام ١٩٦٣، التحق بالعمل فى وزارة الخارجيه أواخر عهد الرئيس المرحوم ابراهيم عبود.

يصف الكاتب تلك التجربه وصفاً حياً مشوقاً، وكأنه تعمد أن يظهر حال السودان فى تلك الأيام. وهى تجربة تدعو للتأمل وربما الحسره، لأنها تؤكد، مع عدد من التجارب المماثله التى يرويها الكاتب بأسلوبه الجذاب، أن السودان يكون فى أحسن حالاته فى العهود الديمقراطيه، فهى انعكاس حقيقى لطبيعة السودانيين ومزاجهم.

لا توجد فى هذا الكتاب، مرارات أو عنتريات أو تصفية حسابات، بل هو سجل أمين لحياة خصبة مثمره.

الطيب صالح

تصميم الغلاف: إلياس فتح الرحمن